

مكتبة التاريخ الوسطي

دراسات في  
تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب  
في العصور الوسطى

الدكتور جوزيف نسيم يوسف  
أستاذ تاريخ العصور الوسطى  
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

١٩٨٨

الناشر  
مؤسسة شهاب الجامعة  
للطباعة والنشر والتوزيع  
٤٨٣٩١٧٢٢ الإسكندرية



دراسات في

shiaabooks.net

مكتبة التاريخ الوسيط

# تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب

في العصور الوسطى

الدكتور جوزيف نسيم يوسف

أستاذ تاريخ العصور الوسطى  
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

١٩٨٨

الناشر  
مؤسسة كتاب الواسعة

للطباعة والنشر والتوزيع  
ت ١٤٨٣٩١٧٢ مكسرداية



## فهرس المحتويات

الصفحة	تصدير
٣ - ١	
٣٤ - ٤	البحث الأول : الدافع الشخصي في قيام الحركة الصليبية
٦٠ - ٣٥	البحث الثاني : العدوان الصليبي والرأى العام الغربى .
١٢٣ - ٦١	البحث الثالث : علاقات مصر بالممالك التجارية الإيطالية في ضوء وثائق «صبح الأعشى» .
١٥٤ - ١٢٤	البحث الرابع : نقاط التلاق والصراع بين اوروبا العصور الوسطى والشرق (القرن ١٠ - ١٥ م) .
٢٣٩ - ١٥٥	البحث الخامس : أحد مصنفى الموسوعات السكندريين في القرن الرابع عشر الميلادى (القرن الثامن الهجرى) دراسة نقدية تحليلية لكتاب «الإمام» للنويرى الاسكندرانى .
٢٧٥ - ٢٤٠	البحث السادس : أنشودة رولان : قيمتها التاريخية ، وماأثير حولها من جدل ونقاش .
٢٩٢ - ٢٧٧	فهرس أبجدى عام



### تصدير

هذا الكتاب الذى يشرفنى أن أقدمه إلى القارئ العربى الكريم ، يحمل عنوان «دراسات فى تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى» ، والذى تتولى نشره مؤسسة شباب الجامعة بالاسكندرية فى سلسلة «مكتبة التاريخ الوسطى» . وهو يضم بين دفتيه ستة بحوث فى تاريخ تلك العلاقات ، وبصفة خاصة فى عصر الحروب الصليبية ، أربعة منها سبق نشرها فى الدوريات ، والمجلات العلمية المتخصصة داخل جمهورية مصر العربية وخارجها فيما بين عامى ١٩٦٣ و ١٩٧٩ ، والبحث الخامس تحت الطبع فى مجلة «عالم الفكر» فى الكويت . أما البحث السادس والأخير فهو ينشر للمرة الأولى فى هذه المجموعة .

البحث الأول يتحدث عن الدوافع الشخصية التى أدت إلى قيام الحركة الصليبية فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى (أواخر القرن الخامس الهجرى وهى قضية ثار حولها الكثير من الجدل والخلاف بين المؤرخين الحديثين المعنيين بتاريخ العصور الوسطى بعامة وتاريخ الحركة الصليبية بخاصة . وقد قمنا باستعراض مختلف وجهات النظر ، وأهم النظريات فى هذا الصدد ، مع إثبات النتائج التى أمكن استخلاصها . والبحث الثانى عرض للحركة الصليبية والرأى العام الغربى المعاصر لها ، من واقع مصادر تلك الحركة الأدبية والتاريخية والنتائج المستفادة منها . والثالث يتناول تاريخ العلاقات بين مصر والجمهوريات البحرية الإيطالية ، وبالتحديد البندقية وجنوة وبيزا ، فى العصور الوسطى ، فى ضوء موسوعة «صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء» للقلقشندى . ولقد سدت المادة التى أوردها القلقشندى فى موسوعته العديد من الفجوات فى تاريخ العلاقات بين هذه الأطراف ، التى قامت - أساسا - على تبادل

المنفعة والمصالح المشتركة ، خاصة وأن الجاليات التجارية الإيطالية ، مثل البنادقة والجنوية والبيازنة ، لم يكن يعنيتها سوى الكسب والإثراء ، ولو كان ذلك على حساب بنى جلدتها من اللاتين ، كما يتضح من مواقفها أثناء الصراع الصليبي الإسلامي ، وبخاصة في منطقة الشرق الأدنى .

أما البحثان الرابع والخامس فأولهما بقلم عالمن تشيكوسلوفاكيين كبيرين هما ياروسلاف سيزار وجوزيف فوزار ، عن نقاط التلاقى والصراع بين أوروبا العصور الوسطى والشرق فيما بين القرنين العاشر والخامس عشر للميلاد (فيما بين القرنين الرابع والتاسع للهجرة) . وقد ألقى البحث باللغة الإنجليزية في المؤتمر الدولي الرابع عشر للعلوم التاريخية الذى عقد بمدينة سان فرنسكو بالولايات المتحدة الأمريكية في الفترة الواقعة من ٢٢ إلى ٢٩ أغسطس ١٩٧٥ . وقمنا بنقله إلى اللغة العربية مع التقديم له والتعليق عليه . وفيه يتحدث العالمان عن مدى معرفة كل من أوروبا والشرق الأدنى بالطرف الآخر خلال الفترة الزمنية موضوع الدراسة ، وطرق المواصلات الرئيسية بين الطرفين ، وحدود الالتقاء والصراع بينهما ، وما يرتبط بذلك من مفاهيم تتعلق بموازين القوى بين الطرفين والأفعال وردود الأفعال والأسباب والنتائج .

أما البحث الآخر فهو بقلم الأستاذ عزيز سوريال عطية أستاذ شرف بمركز دراسات الشرق الأوسط بجامعة يوتا الأمريكية ، ومؤسس المركز ومديره سابقا . والبحث مدون باللغة الإنجليزية عن المؤرخ المصرى المعروف النويرى السكندرى وكتابه «الإمام بما قضت به الأحكام والأمور المقضية في وقعة الاسكندرية» . وقد قمنا ، أيضا ، بنقله إلى اللغة العربية مع التقديم له وتزويده بعدد من التعليقات . وقد نشر هذا البحث ضمن سلسلة بحوث مركز دراسات الشرق الأوسط بجامعة يوتا عام ١٩٧٧ . وتناول عدة نقاط هامة عن المؤلف

وكتابه ، والنورى كثرخ ، ثم حملة بطرس الأول لوسنيان ملك قبرص اللاتينى على الاسكندرية عام ١٣٦٥ م / ٧٦٧ هـ ، والذي يعتبر كتاب النورى المصدر المعاصر والأساس والرصيد لها من وجهة النظر المصرية ، بل وفيما يتعلق بالعديد من الوقائع والأحداث التى لم ترد فى الأصول الأجنبية . كذلك تناول البحث تقييما للتراث المتنوع المتشعب الذى خلفه النورى . وغنى عن القول إن هذا البحث القيم عبارة عن خلاصة عمل جاد شاق دعوب قام به الأستاذ سوربال فى هذا الميدان استغرق عشرات من السنوات .

والبحث السادس والأخير بعنوان «أنشودة رولان : قيمتها التاريخية ، وما أثير حولها من جدل ونقاش» . وعلى الرغم من كثرة ما كتب عن هذه الأنشودة ، بمختلف اللغات ، إلا أنها لاتزال بحاجة إلى مزيد من الدراسات المتأنية المتعمقة ، بسبب قضاياها العديدة التى لم تدرس بعد ، أو تلك التى لم تنل حقها الكافى من الدراسة ، أو التى لاتزال حتى اليوم مثار جدل وخلاف بين المؤرخين . وقد استعرضنا فى هذا البحث عدة نقاط ، من بينها المقصود بكلمة «أغاني المآثر» ، وملخص «أغنية رولان» ، وتاريخ أكتشافها ، واللغة التى كتبت بها ، والعصر الذى دوت فيه ، والتاريخ الذى كتبت فيه ، ومؤلفها ، ومكانها بين الأسطورة والتاريخ ، والحقيقة التاريخية فيها ، والشخصيات والأماكن الجغرافية الواردة فيها . وأنهيها هذه الدراسة بالإشارة إلى الأضواء الجديدة التى سلطت عليها ، والقضايا التى لم تحسم بعد ، ثم أهم طبعاتها وترجماتها .

والله ، سبحانه وتعالى ، ولى التوفيق ، ، ،





البحث الأول  
الدافع الشخصي في قيام الحركة الصليبية



لقد قامت الحركة الصليبية نتيجة لعدة عوامل متشابكة معقدة متداخلة في بعضها ، منها الرئيسى والثانوى ، ومنها المباشر وغير المباشر ، ومنها الخفى والظاهرى . ومن أهم هذه العوامل نظرة الغرب إلى الشرق منذ أقدم العصور باعتباره مهبط الوحي والأديان ومهد العلم والمعرفة ومركز الحضارة والاشعاع الثقافى . وكذلك تطور تطور حركة الحج إلى الأراضى المقدسة عبر القرون الطويلة ، ونمو فكرة الحروب المسيحية المقدسة ضد العرب في الغرب الأوروبى منذ القرن التاسع الميلادى حتى قيام الحركة الصليبية في ختام القرن الحادى عشر . هذا بالإضافة إلى الأحوال السياسية السائدة في الغرب اللاتينى ودولة الروم والعالم العربى وقتذاك . (١) كل هذه العوامل متكاتفه اسهمت في التمهيد للحروب الصليبية وتهيئة الجو والأذهان لقبولها ، تحقيقا لأغراض وأطماع بعيدة الغور في سير مجرى التاريخ .

وإذا كان لنا أن نتناول الأسباب التى هيأت الجو لقيام هذه الحروب ، وأدت في نهاية الأمر إلى احتكاك أهل الغرب بكل من العرب والروم في الشرق ، فأننا سنكشف في هذا المقال عن الرجل الذى مثل دورا رئيسيا فيها والدافع الشخصى في قيامها .

ولا نعدو الحقيقة إذا قلنا إنه بحث شاق وعمر ، دار حوله الكثير من الخلاف بين المؤرخين ، إذ تباينت فيه النظريات ، ولم يبت فيه برأى قاطع

---

(١) لا يتخلو كتاب من كتب الحروب الصليبية أو أحد فصولها من الحديث عن عوامل قيام هذه الحروب . فمن المراجع الأفرنجية يجب أن نذكر مؤلفات ميشو ، وبريه ، وشالندون ، وجروسية ، ورانسيان . ومن المراجع العربية والمعربة نذكر : ديفز : أوروبا في العصور الوسطى ، ترجمة الدكتور عبد الحميد حمدى ، ص ١٧٨ - ٢٠٨ ، والدكتور عمر كمال : مملكة بيت المقدس الصليبية ص ٩ - ٢٢ ، وباركر : الحروب الصليبية ، ترجمة الدكتور السيد الباز العرينى ص ١١ - ٢٦ .

حتى الآن . ولم يدرس هذا الموضوع للآن دراسة وافية ، ولم يظهر فيه كتاب أو بحث مستقل قائم بذاته يلم بكل أطرافه ونواحيه . وكل ما هنالك تنف وشذرات مبعثرة هنا وهناك لا تشفى غلة الباحث . ولذلك أصبح لزاما على المتصدي له تتبعه في شتى المصادر والأصول من شرقية وغربية ، معاصرة وغير معاصرة .

لقد حاول كثير من المؤرخين اسناد هذه الحركة إلى شخص دون آخر أو إلى عامل بالذات دون عوامل أخرى . كما لعبت الأساطير والخرافات دورا كبيرا في هذا الصدد . فهناك مثلا من ينسب أمر قيامها إلى الامبراطور شارلمان وأغنية رولان المعروفة . وجعل البعض الآخر من بطرس الناسك داعية لهذه الحروب ومتفذا لها ، وهناك طائفة من المؤرخين تعزى قيامها إلى امبراطور الدولة البيزنطية الكسيس كومنين . بينما يرى كثير من المؤرخين المحدثين أن الدور الأول ينسب إلى الكنيسة اللاتينية الكاثوليكية ، وبابوية روما ، وبخاصة البابا أربان الثاني الذي سعى جاهدا على أن يقوم في الشرق العربي بنفس العمل الذي سبق أن قلمت به جماعة كلوني الديرية ضد العرب في أسبانيا قبل قيام الحروب الصليبية بحوالى نصف قرن . وستناول فيما يلي أهم هذه النظريات والأفكار بالدراسة والتحليل .

(أولا) : أنشودة رولان وقصيدة حج شارلمان :

في سنة ٤٧٦ سقطت الامبراطورية الرومانية القديمة إثر هجمات البرابرة عليها . وأسست هذه العناصر المتبربره دويلات جرمانية على انقاض الامبراطورية المنهارة . فاستقر الانجلوسكسون في الجزيرة البريطانية ، والقوط الشرقيون في ايطاليا ، والغرييون في أسبانيا ، أسس الفرنجة مملكة لهم شملت مساحات عظيمة في غرب أوروبا من بينها فرنسا وأجزاء واسعة من ألمانيا التي تعتبر موطن الفرنجة الأصلي . وقد آلت هذه المملكة في أخريات القرن الثامن

إلى الكارولنجيين وعلى رأسهم شارلمان أو شارل العظيم . ويعتبر حكمه الذى امتد من سنة ٧٦٨ إلى ٨١٤ من الفترات الهامة الحاسمة فى تاريخ الغرب الأوروبى للوميط ، لما يرتبط به من أحياء الامبراطورية الرومانية المقدسة وتقدم الحضارة وازدهار العلوم والآداب والفنون وقتذاك .

فى ظل هذه الظروف المواتية واصل شارلمان جهود سلفه شارل مارتل فى محاولته الياسة القضاء على حكم العرب فى غرب أوروبا . وأخذ يتحين الفرص لتحقيق حلمه هذا . وقد جواتته الفرصة عندما دعاه الأمراء العرب المربطين شمال نهر الابر و لمساعدتهم فى حروبهم الداخلية ضد خليفة قرطبة . وكان من أثر ذلك أن قام بمحمتين متتاليتين تجاه الأندلس فى عامى ٧٧٧، ٧٧٨ والحملة الثانية هى التى خلدها الشعراء فى الانشودة المعروفة باسم أنشودة رولان التى تعتبر من أهم الأناشيد فى الأدب الشعبى فى العصور الوسطى الأوروبية ، وإن لم يكن لها من الأهمية التاريخية والنتائج الحاسمة ما يبدو من شهرتها الفائقة فى التاريخ (١) .

كل هذا كان له أثره فى ذبوع صيت شارلمان فى الغرب والشرق حتى وصل الخلافة العباسية فى بغداد .. وتبدلت السفارات والهدايا بين العاهلين العربى والمسيحى .. ويقال إن شارلمان نجح فى الحصول على تفويض من هارون

---

(١) ديفز : أوروبا فى العصور الوسطى ص ٥٦ - ويعتقد نفس المؤرخ فى كتابه : شارلمان ص ٢٨٥ - ٢٨٧ ، أن الذى ألف أنشودة رولان شاعر نورماندى مجهول الاسم عاش فى إنجلترا عقب الفتح النورمانى لها . وهو يشتمل على أربعة آلاف بيت مدونة بأسلوب يصلح للالقاء لا للقناء . وفيها يتحدث الشاعر عن أعمال شارل الحربية فى أسبانيا وحصاره المدن ودكه القلاع والحسون فى أسلوب لا يخلو من المبالغة والتهويل . ويقول أن رولان الذى تدور حوله هذه القصيدة هو شخصية واقعية ، وقد اشتبك بنفسه فى الحروب المذكورة وخر صريعا أثناء انسحاب الفرنجة من أسبانيا . ونظرا لما كانت القصيدة تحويه من آراء وأفكار تدعو إلى الجهاد والقتال ، فقد استغلت زمن الحروب الصليبية لتحقيق أغراضها وأهدافها .

الرشد بحماية مسيحي فلسطين ، وتقديم التسهيلات اللازمة للحجاج اللاتين إلى الاراضي المقدسة ، وإن الخليفة منحه فوق ذلك ملكية القبر المقدس الذى شيده الامبراطور قسطنطين فى القدس فى أوائل القرن الرابع الميلادى. ويزعم بعض المؤرخين أن بطريق بيت المقدس أرسل إلى شارلمان مفاتيح قبر السيد المسيح اعترافاً ضمناً بزعامة الروحية على العالم المسيحى (١) .

هذه هى الظروف التى استغلها الغرب فى الدعاية للحركة الصليبية فى آخريات القرن الحادى عشر ، أى بعد وفاة الامبراطور شارلمان بحوالى ثلاثمائة عام . وعلى هذا الأساس ظهرت أغنية رولان وأسطورة حج شارلمان فى الأدب الشعبى فى ذلك الوقت بالذات بقصد ايقاظ النعرة الدينية فى نفوس مسيحي الغرب ودفعهم فى حماس جنونى لنجدة اخوانهم فى الشرق ، فى وقت جندت فيه الاقلام والعقول والافكار لخدمة هذا الغرض فحسب .

وقد تناول هذه الفكرة بالدراسة أكثر من مؤرخ نذكر منهم كارلس ديفز وجاستون باريس ، وهما من كبار العلماء المتخصصين فى التاريخ الوسيط ويقول أولهما ان هذه الأسطورة كانت معروفة من قبل ، ولكنها دخلت فى فترة الحروب الصليبية فى مرحلة جديدة . إذ ساد الاعتقاد وقتذاك أن شارلمان نهض من الموت ليقود أول حملة صليبية متجهة إلى الشرق . وقد استغل الشعراء اللاتين هذه الناحية ، وهم يعرفون جيداً أثرها فى النفوس ، ولعلمهم وجدوا تشجيعاً وترحيباً من البابوية والهيئات الدينية الأخرى فى الغرب ، فخرجوا لنا بأسطورة جديدة لعب فيها الخيال دوراً كبيراً ، إذ صوروا شارلمان فى هيئة محارب صليبي فى حروب مستمرة ظافرة ضد العرب . ولم يكتفوا بذلك ، بل نسجوا من خيالهم قصة مؤداها أن الامبراطور المذكور

حج إلى أورشليم وزار القسطنطينية عاصمة بيزنطة والتي بكبار المسئولين فيها وذلك بقصد تعبئة الشعور بين أهل الغرب ضد العرب في الشرق . وكان من أثر ذلك أن شوهوا الأنشودة الأصلية القديمة بما أدخلوه عليها في آخريات القرن الحادى عشر من آراء وأفكار تحقيقا لغايات معينة (١) .

ويتفق المؤرخ جاستون باريس مع زميله ديفز في أن أغنية رولان وقصيدة حج شارلمان هما من وحي الخيال ، وأنهما لا يستندان إلى الحقائق التاريخية . ويزيد الأمر وضوحا فيقول ان الأغاني التي وضعت في فترة متأخرة أقبست نماذج لشخصيات مثل رولان من الأناشيد والملاحم الأصلية القديمة التي وردت فيها تلك النماذج للمرة الأولى ، وان الأغاني والقصائد التي استلهمها مؤلفوها من أحداث الحروب الصليبية لا شأن لها بتلك الملاحم الغنائية القديمة مثل أغنية رولان ، وان كانت قد اخذت عنها اطارها العام فحسب . وبناء على ذلك فالقصائد التي وضعت أيام الحركة الصليبية أما تقليد للقصائد الأصلية أو ابتداء من مخيلة الشعراء . ويخلص الكاتب من هذا أن أنشودة رولان تم احيائها في القرن الحادى عشر لتحريك الشعور في غرب أوروبا ضد العرب في الشرق . أما قصيدة حج شارلمان فهي قصيدة باريسية الأصل ترجع إلى سنة ١٠٦٠ تقريباً . وتكاد تكون الانتاج الأدبي الوحيد الذي وصل إلينا من هذا التاريخ المبكر في شكله الأصلي دون أن تمتد إليه يد التحوير أو التغيير . ومع ذلك فهي مختلفة من خيال الشاعر الذي نسب إلى شارلمان ورجاله أعمالا لم يقوموا أصلاً بها : فهي لا تمت إلى الحقيقة بصلة ، شأنها شأن أغنية رولان (٢) والخلاصة أن حج شارلمان للاراضى المقدسة أسطورة غير موثوق بصحتها

(١) ديفز : شارلمان ص ٢٨٧ - ٢٨٨ .

Paris, Mediaeval French Literature, 32, 38 - 42.

(٢)



ابتدعتها أقلام الكتاب اللاتين عند بداية الحركة . وليس في المصادر المعاصرة لشارلمان ما يؤكد قيامه بهذا الحجج . وهذا ما يمكن أن يقال أيضاً عن أغنية رولان التي كانت عبارة عن صورة ممسوخة مشوهة للقصيدة الأصلية . وليس من العسير ادراك أنه لم يكن لحجج شارلمان أو الانشودة أى أثر مباشر في قيام الحروب الصليبية أو حتى في التمهيد لها ، اللهم الا دورهما في إثارة الرغبة الكامنة لدى اللاتين للعمل على توسيع دائرة نشاطهم بحيث تشمل الشرق العربي إلى جانب شبه الجزيرة الأيبيرية . وقد تفنن الغرب في ابتداع مثل هذه الأساطير التي لاقت نجاحاً كبيراً في ذلك الحين .

(ثانياً) دور بيزنطة والكيس كومنين في الدعوة إلى الحروب الصليبية :  
وهناك فئة من المؤرخين المحدثين ترجع إلى الامبراطور الكيس كومنين أمر قيام هذه الحروب . ويستدلون على ذلك من خطاب (١) يقال إن الامبراطور البيزنطي أرسله حوالي سنة ١٠٨٨ إلى الكونت روبرت الأول أمير الأراضي الرواظة (٢) ، يطلب منه فيه المبادرة بإرسال نجدات إلى الشرق للدفاع عن القسطنطينية ضد السلاجقة ، ووقف تيارهم الجارف ، ثم التوجه بعد ذلك للاستيلاء على الأراضي المقدسة .

---

(١) أورد جيبتر ده نوجان مقتطفات من الخطاب المذكور باللاتينية في الجزء الرابع من مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية (المؤرخون الغربيون) ص ١٣٤ - ١٣٢ . ولا فم إن كان هذا هو الخطاب الأصل أم ترجمته ، إذ لم يصلنا النص الأخرى له . كذلك نشره في سنة ١٩٠١ العالم الألماني هايجنار ضمن مجموعة وثائق باللاتينية تحت اسم «خطابات ومراسم متعلقة بالغرب الصليبية الأولى» - ص ١٢٩ - ١٣٦ . وقد نقل الخطاب المذكور إلى اللغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية .

(٢) هو الكونت روبرت الأول ده فلاندرز ، وهي الأراضي الرواظة أو بلاد القلمنك إحدى مقاطعات فرنسا . وقد حكم من سنة ١٠٧١ إلى ١٠٩٣ ، وكان من كبار رسله للاقتطاع في الغرب وتمتت بلاده بمكانة مرموقة في الناحيتين السياسية والاقتصادية وتلك . ينظر :

إن طلب الكسيس المساعدة من أهل الغرب والدعوة إلى الحروب الصليبية أمر لا يزال مثار كثير من الخلاف بين المؤرخين . ولكن مما لا شك فيه أنه قد طلب العون من البابا اربان الثانى فى مؤتمرى بياتشيزا Piacenza وكليمون Clermont ، ومن بعض كبار رجال الاقطاع فى الغرب مثل روبرت أمير الأراضى الواطئة . ومع ذلك لا يمكن أن نبت برأى حاسم فيما يتعلق بنوع هذه المساعدة وماهيتها ، وعمّا اذا كان هدفها مساعدة الجيش البيزنطى ضد الخطر السلجوقى فحسب ، أم الدعوة الصريحة إلى حرب صليبية بقصد غزو الأراضى المقدسة .

لقد أثار الخطاب المنوه عنه الكثير من الجدل ، وكان الاعتقاد السائد حتى وقت قريب أن الحملة الصليبية انما تحركت صوب القسطنطينية بناء على طلب الامبراطور البيزنطى . واعتقد كثير من العلماء القدامى فى صحة هذه الوثيقة التاريخية المنسوبة إلى الكسيس كومنين (١) . وفيها يصف فى أسلوب لا يخلو من المبالغة ما فعله الاتراك السلاجقة فى الدولة البيزنطية من مذابح وتقتيل ومن أعمال السلب والنهب ، وكيف أنهم باتوا يهددون العاصمة نفسها بشر مستطير . ونجده يضرب على أحد الأوتار الحساسة بإثارته الحماسة الدينية بين أهل الغرب ، عندما ذكرهم بما يوجد فى القسطنطينية من مخلفات وذخائر مقدسة . ولم ينس ان يقدم لهم - فضلا عما تقدم - المغريات المادية ، عندما لوح لهم بما يوجد فى العاصمة من كنوز ونفائس وأموال وذهب وأحجار كريمة ، وهو يعلم سلفا بجشع اللاتين وجبهم الشديد للمال . وأكد لهم أنهم اذا هبوا لنجدته ستكون هذه الكنوز والتحف من نصيبهم ، أما اذا تباطؤوا فستقع غنيمة باردة فى قبضة التركمان . ويطلب منهم فى ختام خطابه المبادرة بارسال

الامدادات لانقاذ عاصمته المهتدة ، ثم التوجه بعد ذلك للاستيلاء على البيت المقدس وتخليص قبر المسيح .

هذا هو الخطاب الذى احتدم الخلاف حوله ما بين مؤيد ومعارض . وهناك رأيان على طرفى نقيض فى هذا الموضوع . أولهما رأى المدرسة الألمانية التى تنادى بصحة هذا الخطاب . وأنه إذا لم يكن الخطاب الذى وصلنا هو النص الأصلى فهو على الأقل صورة أخرى منه تحوى نفس المعنى وإن كان بأسلوب مغاير . ويدافع عن هذا رأى المؤرخان المعروفان هاجنماير Hagenmeyer ورهرشت Rohricht (١) . أما رأى الثانى فهو رأى المدرسة الفرنسية المعارضة ، وهى تنفى نفياً قاطعاً أن الكسيس أرسل أى خطاب إلى أمير الأراضى الواطئة ، وعلى رأس هذه المدرسة العالمان شالندون Chalandon وشارل ديل Ch. Diehl . ويرى هذا رأى أيضاً كثير من المؤرخين المحدثين أمثال الكونت بول ريان Paul Riant وفازيليف Vasiliev واستروجرسكى Ostrogorsky وستيفن رانسيمان .

ويعزز الفريق المعارض رأيه بقوله ان الأسلوب والكيفية التى دون بها الخطاب لا تتفق بحال مع العادات والتقاليد التى كانت متبعة فى ديوان الانشاء فى الدولة البيزنطية فى ذاك الحين . ويضيف الى ذلك أن هذا الخطاب لم يكتب عام ١٠٨٨ ، وانما وضع فى غرب أوروبا فيما بين عامى ١٠٩٨ و ١٠٩٩ أى بعد تاريخ الخطاب بحوالى عشر سنوات — وذلك بقصد اثارة شعور أهل الغرب وحث مهمهم للإشتراك فى الحرب الصليبية والاسراع بارسال النجدة الى الافرنج بالشرق . وترجع المدرسة المذكورة أن الخطاب وضع أثناء حصار مدينة انطاكية فى الحملة الأولى . وأنصار هذا

---

(١) راجع عن المناقشة فى هذا الموضوع : : Grousset, Crois., 1, p. 2 & n 2

الرأى يدللون على ذلك بقولهم ان البيزنطيين فوجئوا بوصول هذه الجيوش اللاتينية التي كانت تفوق في عددها «نجوم السماء ورمال البحار» (١) وفقا لرواية الأميرة آن كومنين ابنة الامبراطور الكيسيس .

ويقول المؤرخ الفرنسى شالندون ان الكيسيس لم يكن صاحب الفكرة في قيام هذه الحروب ، وان البيزنطيين لم يستدعوا الغربيين للقيام بحرب مقدسة في الشرق العربى ، وان الامبراطور البيزنطى حينما طلب من الكونت روبرت ارسال امدادات ، فذلك ، لأن الخطر التركى كان يهدد الدولة البيزنطية وقتئذ . يضاف الى ما تقدم أن بيزنطة كانت تستخدم الغربيين في جيوشها كمرتزقة قبل عهد الكيسيس كومنين . وكانت ترسل من وقت لآخر الى كبار رجال الغرب والى البابوية نفسها في طلب العون والمساعدات وارسال الفرسان لدفع التركان عن حدودها . ولذلك فان طلب الامبراطور المساعدة من الغرب لايغنى اطلاقا الدعوة الى القيام بحرب صليبية أو الذهاب للاستيلاء على البيت المقدس . ويذهب شالندون الى أبعد من ذلك . فيقول ان ما ذكره المؤرخ برنولد Bernold من أن الكيسيس أرسل وفد الى مجمع بياتشيزا (٧ مارس ١٠٩٥) لحث الغرب على اغاثة الامبراطورية البيزنطية ليس له أى أساس من الصحة ، ذلك لأن الامبراطورية البيزنطية ، ليس له أى أساس من الصحة ، ذلك لأن الامبراطورية كانت وقتئذ في حالة تمكثها من صد أى اعتداء خارجى عليها (٢) . ثم أن المؤرخين اللاتين المعاصرين لتلك الفترة امثال المؤرخ المجهول ، وريمون داجيل Raimond d' Agiles وفوشيه ده شارتر Foucher de Chartres ، لم يشيروا في كتبهم

(١) Anna Comnena, Alexiad, 249 & 263. Cf. Diehl, L'Europe Orientale, 16.

Chalandon, Alexis Comnène, 156—157.

(٢) .....

وتأليفهم إلى طلب الكسيس المساعدة من أهل الغرب للقيام بحرب مقدسة في رقعة الشرق العربي. كذلك التي شنها اللاتين ضد العرب في الغرب الأوروبي .  
واننا لا نجد هذه الأسطورة الا في كتب المؤرخين اللاتين المتأخرين نسيلا أمثال روبرت الراهب (١) وجيبرت ده نوجان (٢) .

ويعمل شالندون قيام هذه الأسطورة بقوله إن أهل الغرب علموا بالصعاب العديدة التي تحملها رجال الحملة الأولى ، وعندما رأوا قلة من عاد منها اذا قورن بالاعداد الضخمة التي غادرت أوطانها ، لم يكن باستطاعتهم أن يتصوروا أن السبب في ذلك إنما يعزى الى عدم كفاءة رؤساء الجيوش الفرنجية والى خلافاتهم ومنازعاتهم المستمرة ، وعدم قيادة موحدة وخطة مرسومة ثابتة . فآلقوا المسؤولية جزافا على كاهل الامبراطور البيزنطي . وكانت متاعبه ومشاكله مع زعمائهم ، وما أظهره حيائهم من الحزم والعزم كى يحافظ على دولته ، سببا في اختراع هذه الأسطورة المعادية له . والتي أنتشرت بصفة خاصة بين الطبقات الشعبية في المجتمع الغربي الوسيط في أواخر القرن الحادى عشر (٣) .

ويتفق الكونت بول ريان مع شالندون ودليل أن في الخطاب مختلف من اساسه ولا يوجد أى أصل يوناني له ، وأنه وضع في الغرب تحقيقا للاغراض المنوه عنها . ويذكر ريان أن مقتطفات من الخطاب المذكور وردت في كتابي جيبرت ده نوجان وروبرت الراهب ، ويعتقد أن واضع الخطاب هو روبرت الراهب (٤) .

Robert le Moine, R.H.C. — H. Occ., III, 727.

(١)

Guibert de Nogent, R.H.C. — H. Occ., IV, 131—132.

(٢)

Chalandon, Alexis Comnène, 157.

(٣)

Riant, A.O. L., I, 74 sqq. Cf. Molnir, II, 275.

(٤)

اما الأستاذ فازيليف فيضع النقط فوق الحروف ، قائلا ان الحركة الصليبية كانت مشروعا غربيا بحتا ، وان وضع بيزنطة من هذه الحركة كان معقداً غاية التعقيد . فلم يكن لدينا أى فكرة عن الحرب الصليبية بمعناها المعروف فى الغرب فى القرن الحادى عشر . ثم أن امتلاك فلسطين لم يعد أمراً حيويًا بالنسبة لها وقتذاك . هذا فضلا عن أنه لم يكن يوجد عداء دينى بين البيزنطيين والعرب ، ولم يوجد مبشرون فى بيزنطة للدعوة للحملة الصليبية ، على عكس الحال فى الغرب الأوروبى . ويزيد فازيليف الأمر وضوحا فيذكر أن بيزنطة قد تورطت دون رغبة منها فى الحملة الصليبية الأولى . وكانت رغبة الوحيدة هى الحصول على بعض المساعدات ضد تهديد السلاجقة لها ، ولم يكن لهذه الرغبة أى صلة بالحملة الغربية على فلسطين (١) .

ويقف العالم استروجرسكى الى جانب زملائه شالندون وريان وفازيليف فيؤكد أن الحركة الصليبية كما فهمها الغرب كانت أمرا غربيا بالنسبة للامبراطورية البيزنطية . فلم يجد جديد فى العلاقات بين البيزنطيين وجيرانهم العرب يستدعى القيام بمثل هذه الحركة . ثم أن مسألة الاستيلاء على الاراضى المقدسة - من وجهة النظر البيزنطية - هى مسألة سياسية من اختصاص الدولة وليست فرضا واجبا على المسيحية عامة . وأخيرا فان الشقاق بين الكنيستين الشرقية والغربية الذى بلغ ذروته فى أواسط القرن الحادى عشر يكاد يجعل من المستحيل وجود اساس طيب للتعاون المشترك بين الطرفين . وينتتم استروجرسكى تعليقه بقوله ان بيزنطة لم تطلب من الغرب محاربين صليبيين وانما جندا مرتزقة (٢) .

---

(١) أنظر مقالة فازيليف فى : Baynes and Moss, Byzantium, 322.

Ostrogorsky, Byzantine State, 320 & 321 n.3

(٢)

ومما يعزز هذا الرأى أن الكيسيس اعترته الدهشة عندما علم بنزول هذه القوات الجرارة فى غير نظام على أراضى امبراطوريته . وتؤكد آن كومنين فى كتابها عن تاريخ حياة أبيها أنه لم يكن يعرف شيئاً عن هذه الحركة ، وأنه علم بقدوم الفرنج عن طريق الاشاعات والأقاويل . ولذلك فوجئ بوصول هذه القوات التى لم تكف منذ أن حلت بالامبراطورية عن أعمال السلب والتدمير . وتذكر الكاتبة الأغرريقية أن الصليبيين الغربيين اتخذوا من مسألة الاستيلاء على أورشليم ستاراً يخفون وراءه مطامعهم التى اجمعوا عليها ، الا وهى خلع الامبراطور والاستيلاء على عاصمة ملكه بعد أن أغراهم ثراؤها الفاحش وهم قوم جشعون محبون للمال ، حتى أن الامبراطور نفسه كان يعتقد أن وجهة أولئك القوم ليست الأراضى المقدسة وإنما القسطنطينية (١) .

وهذا يفسر لنا السر فى موقف الكيسيس والدولة البيزنطية حيال الصليبيين اللاتين ، الذى يتلخص فى العمل بكافة الطرق والوسائل على المحافظة على الامبراطورية من عدوانهم مهما كلفهم هذا من ثمن . ثم يجب ألا ننسى أن العلاقات بين اللاتين والاعريق قبل قيام الحركة الصليبية لم تكن طيبة أو مرضية . فلم يكن هذا مما يشجعها على استدعاء الغربيين للقيام بحرب صليبية ضد الشرق العربى .

---

(١) Anna Comnena, Alexiad, 250. - وتؤكد الكاتبة الأغرريقية هذه الفكرة فى أكثر من موضع من كتابها . فتذكر أن بعض اللاتين من زعماء الحملة الأولى أمثال بوهيمند النورماندى كانوا يطعمون فى الدولة البيزنطية ويريدون الاستيلاء عليها وتأسيس إمارة لاتينية بها . وقد جدوا فى تبشير بعض الدعاة بالحملة أمثال بطرس الناسك ذريعة لتحقيق أهدافهم ؛ فخدعوا السذج وبسطاء العقول وتصببوا فى قيام هذا الطوفان البشرى ، وباعوا ممتلكاتهم بحجة توجيههم لتخليص القبر المقدس - تنظر ص ٢٥٢ من نفس المصدر .

وهكذا نجد أن طلب الكسيس امداده بالجند لم يكن شيئاً جديداً أو  
أمراً غير مألوف : ولم يكن هو أول من استن هذه السياسة من الأباطرة ،  
كما أنه لم يكن آخرهم . اذ سبقه اليها أسلافه مثل ميخائيل السابع ، وهذا  
حدوه من جاء بعده : (١) . فاذا نظرنا الى الخطاب من هذه الزاوية نجد أنه  
صحيح لانه غبار عليه ، واذا طلب الكسيس التجيدات من الغرب الكاثوليكي  
للدفاع عن القسطنطينية وحماية حدود امبراطوريته ، فهذا صحيح أيضا .  
أما طلب الذهاب الى الأراضي المقدسة واخراج السلاجقة منها ، فهو أمر  
مستبعد ويحتاج إلى مزيد من البحث والدراسة ، وان كان هذا لا يمنع من  
القول ان الكسيس بتصرفه هذا - لوصح أن الخطاب المذكور قد صدر عنه  
قد نبه الغرب الأوروبي الى خطر العنصر التركماني . ولهذا أهمية خاصة عند  
اللاتين الذين كانوا يعتبرون القسطنطينية حتى وقت غير بعيد من قيام الحرب  
الصليبية حامية الغرب الأوروبي ضد الخطر السلجوقي . ولكن هجمات  
السلاجقة في آسيا الصغرى واقتطاعهم من ولايات بيزنطة الشرقية أفقدها هذا  
اللقب الذي كانت تتمتع به .

واذا أخذنا بوجهة النظر القائلة بصحة الخطاب ، أو أى خطاب آخر  
بنفس المعنى أرسله الكسيس الى روبرت ، فذلك يرجع الى أن الكونت  
المذكور كان قد ذهب للحج الى الأراضي المقدسة حوالي عام ١٠٨٧ ، وعند  
عودته التقى بالامبراطور البيزنطي ووعد به ارسال خمسمائة فارس لمساعدته  
ضد الأتراك . ويحتمل أن الكسيس عندما لم تصله التجدة ، بعث اليه في العام  
التالى يستحثه على ارسال القوات التي وعده بها (٢) .

Cf. Ostrogorsky, 305.

(١)

Grousset, Crois., I, p. 1 ; Molinier, II, 275.

(٢)



والأمر الذى يتفق عليه الجميع هو أن التفاصيل والحقائق التاريخية الواردة بالخطاب صحيحة فى مجموعها . وينحصر الخلاف بين المؤرخين فى أمرين حسبنا أسفلا : أولهما الخطاب نفسه وعمّا اذا كان قد صدر فعلا عن الكيسيس أم لا ، وثانيهما مسألة صحة دعوة الكيسيس لأهل الغرب للقيام بهذه الحروب الصليبية .

نخلص مما سبق ذكره أن هناك احتمالان لا ثالث لهما . إما أن الخطاب صحيح أو غير صحيح . فإذا كان قد صدر فعلا عن الكيسيس فهذا لا يعنى أكثر من طلب العون من الغرب لدفع خطر السلاجقة عن الدولة البيزنطية وعاصمتها كما فعل اسلافه من قبله وخلفاؤه من بعده ، ولا يمكن تفسيره اطلاقا بالدعوة الصريحة لاثاره حرب صليبية . فهذه الفكرة غريبة بحتة ، نبتت وترعرعت فى الغرب وتولتها البابوية برعايتها وعنايتها طيلة مراحلها . واذا لم يكن قد صدر عن الامبراطور البيزنطى ونسب اليه عمدا أو بدون قصد ، فيحتمل فى هذه الحالة أن يكون قد وضع فى الغرب اللاتينى وقتذاك انتقاما من الكيسيس لموقفه من زعماء الحملة الصليبية الأولى من ناحية ، ولحث اللاتين للمبادرة بنجدة إخوانهم فى الشرق من ناحية أخرى . وفى كلتا الحالتين يجب ألا ننسى أن جميع المعلومات والحقائق التاريخية صحيحة فى جملتها ومضمونها .

(ثالثاً) بطرس الناسك وقيام الحرب الصليبية :

ويرى بعض المؤرخين أن بطرس الناسك هو المسئول الأول عن هذه الحروب . وحثهم فى ذلك أنه ذهب للحج الى بيت المقدس قبيل قيام الحركة بضع سنوات ، حيث التقى بطريق هذه المدينة الذى حدثه عما يقاسيه الحجاج الى الأراضى المقدسة على أيدي السلاجقة . وسلمه الطريق رسالة

للأببا يطلب فيها النجدة والمساعدة . ويضيف البعض أن بطرس هذا رأى فيما يرى النائم السيد المسيح الذى طلب منه مقابلة الأببا والدعوة للحرب الصليبية ، وأن بطرس قام بتنفيذ هذه الرؤيا (١) .

وهكذا صنعت الأسطورة من بطرس الناسك ناصحا لأربان وداعية للحرب الصليبية . والثابت أن الراوية تفتقر هى الأخرى الى ما يعززها ويسندها خاصة وأن المؤرخين الذين عاصروا الحرب الصليبية الأولى وأسهموا فيها بنصيب ، لم يذكروا شيئا عن بطرس والدور الذى قام به فى الدعوة الى هذه الحركة ، اللهم الا دوره فى الحرب نفسها ، اذ يتحدثون عنه كأحد رؤساء الجيش الشعبى فقط . وإن تميزت أسطورة بطرس الناسك بشئ فانما تتميز بطابعها الدينى الواضح .

ثم أن شخصية بطرس الناسك يحوطها كثير من اللبس والغموض . وتؤكد هذه الفكرة أن البحوث التاريخية الأخيرة فى هذا الموضوع اثبتت أن الوعاظ الذين قاموا بدور بطرس الناسك فى التبشير بالحروب الصليبية والدعاية لها انما كانوا يعدون بالآلاف . واذن فلم يكن هناك بطرس ناسك واحد معين ، بل لقد اتصفت هذه الشخصيات المتعددة كلها باسم «بطرس الناسك» . ولذا فان هذا الذى نتحدث عنه هو أحد أولئك الذين ساهموا بنصيب فى هذه الحركة .

وحقيقة الأمر أن الدور المنسوب إلى هذا الناسك ظهر فى أواسط القرن الثانى عشر ، أى بعد قيام الحملة الصليبية الأولى بحوالى نصف قرن، وخاصة

---

Guillaume de Tyr, R.H.C. — H. Occ., I, le p., 34—35; Historia (١)  
Belli Sacri, R.H.C. — H. Occ., III, 169. Cf. also Runciman, Crusades, I, 113; Grousset, Crois., I, 5.

عند المؤرخ اللاتيني البرت دكس (١) ، وعنه أخذ ولیم الصوری (٢) رئيس اساقفة صور . ولا يوجد تحت أيدينا ما يؤيد هذا الرأي سواء في الوثائق الرسمية أو في حوليات المؤرخين المعاصرين الذين شاهدوا مولد الحركة . وكانت آن كومنين هي الكاتبة الوحيدة المعاصرة للحرب الصليبية الأولى التي نسبت صراحة أمر قيامها إلى بطرس الناسك . (٣) ويجب أن نتقبل رأيها بشيء من التحفظ ، إذ أنها هي الأخرى قد وضعت كتابها عن تاريخ حياة أبيها قبيل منتصف القرن الثاني عشر بقليل ، وكانت في الرابعة عشرة من عمرها عندما نزلت الجيوش الصليبية في عاصمة الدولة البيزنطية .

وقد تناول المؤرخ هاجنماير (٤) شخصية بطرس الناسك والدور الذي قام به بالدراسة والتحليل . ووضع الأمور في نصابها بعد أن كشف عن الناحية الخيالية والناحية الواقعية في حياة هذا الراهب . كما حطم الأسطورة القائلة

---

Albert d'Aix, R.H.C. — H. Occ., IV, 272—274. (١)

Guillaume de Tyr, R.H.C. — H. Occ., I, i, 32 sqq. (٢)

(٣) تنسب آن كومنين أمر قيام هذه الحركة إلى بطرس الناسك . وتقول أنه كان قد ذهب للتعبد عند القبر المقدس حيث قاسى الكثير من الأحوال على أيدي الأتراك . ثم قفل عائداً إلى بلده وقد ضايقه كثيراً أخفاقه في تحقيق بغيته ، ورغب في القيام بنفس الرحلة مرة ثانية . وأدرك أنه يجب ألا يذهب بمفرده خشية أن يصيبه مكروه . ولذلك دبر خطة مأكرة خلاصتها أن ييشر في جميع المدن اللاتينية بأن صوت الله يأمره بدعوة جميع النبلاء وأهل الغرب لترك ديارهم والتوجه إلى الأراضي المقدسة لإنتراعها من قبضة الأتراك . وقد نجح في ذلك نجاحاً كبيراً ، إذ تمكن من إثارة النفوس والمشااعر بتدائه هذا . ينظر : Anna Comnena, Alexiad, 248—249.

Cf. Hagenmeyer, Le vrai et le faux sur Pierre l'Ermite, trans. (٤)

by Furcy Rayanaud. Paris, 1883.

وهو الترجمة الفرنسية للأصل الألماني :

Hagenmeyer, Peter der Heremite, ein Kritischer Beitrag zur Geschichte des ersten Kreuzzuges. Leipzig, 1879.

بأن بطرس هو الذى حث البابا أربان على القيام بالمشروع الصليبي مبينا أنه لم يتم بأى دور فى هذا السبيل (١) .

(رابعاً) ريمون كونت سان جيل وجود فرى دوق اللورين السفلى :

وهناك أساطير أخرى لا يعتد بها قامت حول بعض الشخصيات التى اشتركت فى الحملة الأولى . فذكر فريق من المؤرخين أن ريمون سان جيل كونت تولوز أحد زعماء الحملة الأولى هو الذى حث أربان لتنظيم هذه الحملة وأنه الح عليه لعقد مجلس دينى للدعوة لها بغية الحصول على الغفران عن آثامه وخطاياهم . وأن هذا الرجل سبق له الحج إلى الأراضي المقدسة ، ثم عاد إلى الغرب لينشر دعايته ضد العرب والأتراك (٢) . وقد ثبت أن هذه الرواية غير صحيحة ويعوزها السند التاريخي السليم . وهناك رواية أخرى تنسب إلى جودفرى دوق اللورين السفلى أمر قيام هذه الحركة . اذ يروى أنه توجه للحج إلى بيت المقدس ، واجتمع فى طريق عودته إلى وطنه مع أسقف مدينة Puy . حيث التمس منه ارسال وفادة إلى البابا اربان الثانى للدعوة للحملة المزمعة (٣) حتى لقد جعل منه بعض المؤرخين الغربيين الحداثيين محرك الحروب الصليبية وبطلها (٤) .

ويجب أن نتقبل مثل هذه الروايات ذات الطابع الأسطوري بكثير من الحيطه . اذ كان من الطبيعي بعد النجاح الكبير الذى احرزته الحملة الصليبية الأولى ان تظهر بعض الروايات المبالغ فيها التى تنسب أمر نجاحها إلى هذا

Cf. Molinier, Sources de l'histoire de France, II, 274. (١)

Cf. Michel le Syrien, R.H.C. — Doc. Arm., I, 327. (٢)

Cf. Guillaume de Tyr, R.H.C. — Occ., I, le. p. 71 sqq. (٣)

Cf. Diehl, L'Europe Orientale, 19. (٤)

النبيل أو ذاك ممن اشتركوا فيها اشتراكاً فعلياً ، ومن ذاع صيتهم وبرزت شهرتهم .

(خامساً) البابا أربان الثاني والحركة الصليبية :

يتضح اذن أن النظريات السابقة فيها مجافاة للحقيقة وبعد عن الواقع ، وانها لا تعدو وأن تكون من نسج الخيال . فلا يمكن ارجاع الدور الأول في قيام الحركة الصليبية إلى قصيدة حج شرلمان أو أغنية رولان ، أو إلى خطاب الكسيس كومنين ، أو تنبؤات ورؤيات بطرس الناسك ، أو غير هذه وتلك من الأساطير التي يجب حذفها نهائياً من سجل التاريخ .

والأمر الثابت الذي لا خلاف فيه أن البابا أربان الثاني — يؤيده في ذلك الجهاز الكنسي في الغرب — هو الذي قام بالدعوة الصريحة المباشرة إلى الحروب الصليبية وامتلاك الأراضي المقدسة (١) مستغلاً في ذلك سلطاته الدينية والزمنية التي كان يتمتع بها . وينسب إليه جميع المؤرخين اللاتين المعاصرين له الدور الرئيسي في تحقيق هذه الفكرة ، ومن هؤلاء فوشيه ده شارتر (٢) ، وتيدبوده Tudebode (٣) ، وراؤول ده كان Raoul de Caen (٤) .

لقد اعتلى أربان الكرسي البابوي سنة ١٠٨٨ ، ولكن المشاكل الداخلية التي واجهته في السنوات الأولى من حكمه حالت بينه وبين تحقيق أمنية كانت تجيش في صدره وطالما تاق إليها . ولكن بعد أن فرغ من مشاكله مع خصمه اللدود الامبراطور الألماني هنري الرابع وتخلص من مناورته له ، وبعد دخوله روما منتصراً في أوائل عام ١٠٩٥ ، والتي كان قد تركها مضطراً سلفه جريجوري

Grousset, Crois., I, 2; Molinier, op. cit., II, 274—5. (١)

Cf. Foucher de Chartres, R.H.C. — H. Occ., III, 321. (٢)

Cf. Tudebode, R.H.C. — H. Occ., III, 121. (٣)

Cf. Raoul de Caen, R.H.C. — H. Occ., III, 606. (٤)

السابع ، عقد في مدينة بياتشيزا في مارس من نفس العام مجلسا دينيا لمناقشة الشؤون الداخلية . والشئ الجديد في هذا المجلس الذي كانت له آثاره في قيام الحركة الصليبية ، هو أن الكيس كومنن امبراطور بيزنطة أوفد رسلا من قبله إلى اربان في طلب المساعدة العسكرية من دول الغرب للاستعانة بها في دفع خطر السلاجقة الذين استولوا على جانب كبير من امبراطوريته وباتوا يهددون القسطنطينية نفسها . وقد حضر أولئك الرسل المجمع المذكور ، واذن لهم البابا بعرض طلباتهم على المجتمعين ، فأخذوا يصورون الخطر الذي تعرضت له الدولة الرومانية الشرقية التي كانت تعتبر حتى وقت قريب حامية الغرب اللاتيني وحصنه المنيع . وافلحوا في تحريك شعور أهل الغرب واثارة حماسهم لنجدة إخوانهم في الشرق . وكان من الطبيعي أن تصادف طلبات الكيس ترحيباً من البابوية التي وجدت فيها فرصة ذهبية لتحقيق سياستها الخاصة في هذا السبيل (١) .

لقد حركت طلبات الكيس كومان النفس لدى اربان حتى أنه ارسل إلى بعض كبار رجال الاقطاع في الغرب يطلب اليهم ارسال المساعدات إلى الامبراطور البيزنطي ، مقتنيا في ذلك خطى سلفه البابا جريجورى السابع . ويستنتج البعض من ذلك أن مجمع بياتشيزا قد مهد بطريقة ما لمؤتمر كليرمون الذي أعلن فيه اربان مولد الحركة الصليبية ، وأن فكرة ايفاد نجدات إلى الكيس كانت المحاولة الأولى التي مهدت بها البابوية لتلك الحركة ، ويجب أن نتقبل هذا الرأي بشئ من الحذر ، اذ ليست لدينا نصوص تاريخية لدعم هذا الزعم ، مما دفع بعض المؤرخين ومنهم الكونت ريان وفازيليف واستروجرسكى وغيرهم إلى القول إن امتلاك الأراضي المقدسة شئ عموماً مساعدة الدولة البيزنطية شئ آخر ، وأنه يجب عدم الخلط بين هذين الأمرين .

وهناك من المؤرخين الفرنسيين المحدثين أمثال شالندون من يؤكّد أن حالة  
بزنطة أثناء مؤتمر بياتشيزا لم تكن تدعو إلى المساعدة العاجلة . وأن مسألة  
استنجد الامبراطور البيزنطي بالغرب كان أمراً عادياً مألوفاً ، إذ سبق أن  
طلبت بزنطة من الغرب ارسال الجند المرتزقة وبخاصة الفرسان الذين كانت  
في حاجة دائمة اليهم (١) .

وعلى هذا لا نستطيع القول إن فكرة الحروب الصليبية قد اثّرت أو  
نبتت في مؤتمر بياتشيزا الديني . ولا يوجد تحت ايدينا أى نص أو مستند  
يؤكد أن البابا اربان الثاني قد بحث هذه المسألة في المؤتمر المذكور ، وإن كان  
هذا لا يمنع من القول بأن اربان نفسه كان يتلمس الفرص والأسباب لتحقيق  
هذا المشروع ، ولم يتردد لحظة واحدة في اخراجه إلى حيز الأشياء الملموسة  
عندما وجد الظروف المواتية لذلك .

لقد قام البابا اربان بالدعوة الصريحة إلى حمل الصليب وامتلاك الأراضي  
المقدسة وصد خطر السلاجقة ، وبذل جهوداً جبارة في سبيل جعل هذه الفكرة  
التي كانت حلماً يداعب خياله حقيقة واقعة . ولم يتوان في العمل على انجاحها  
بعد أن وجد التربة مهيأة والأفكار معدة مهيأة لتقبلها والمساهمة فيها بدور  
انجائى .

ومما ساعد اربان على ذلك أن الظروف كانت مواتية وقتذاك للقيام بهذه  
الحروب . إذ شب وترعرع في وسط كانت فيه الحروب المسيحية المقدسة  
ضد العرب في غربي أوروبا تشغل مكاناً كبيراً . وتلقى علومه في أديرة كلوني  
التي كانت تقوم بدعاية واسعة النطاق لحث الغربيين على الذهاب إلى أسبانيا  
لمساعدة الدويلات المسيحية في الشمال ضد العرب في سبيل الاستيلاء على شبه

الجزيرة الايبيرية . ولذلك نراه يأخذ بهذه المبادئ الكلوونية : ويتشبع بها . ويبدو هذا واضحاً في تصرفاته ومسلكه وفي موقفه من الحركة الصليبية بعد جلوسه على الكرسي البابوى . كذلك كان اربان نفسه من رعايا مدينة شامبانيا شرقى فرنسا التى أسهم فرسانها بنصيب كبير فى تلك الحملات الأسيانية . وفضلا عن ذلك فقد كان من المقربين إلى البابا الراحل جريجورى السابع ومن كبار مستشاريه . وكان هذا الأخير قد فكر جدياً فى فترة بابويته (١٠٧٣ - ١٠٨٥) فى أن يوسع نطاق الحروب المسيحية المقدسة التى كانت قائمة فى أسبانيا وقتذاك ، بحيث تمتد إلى آسيا الصغرى ، وذلك بارسال حملة من مسيحي الغرب بحجة الدفاع عن القسطنطينية ضد السلاجقة . وكادت هذه الفكرة تخرج إلى حيز التنفيذ لولا ذلك النزاع الذى قام بين جريجورى وهنرى الرابع امبراطور المانيا ، مما حال بينه وبين تحقيق المشروع (١) . ومن هنا يمكن القول أن اربان لم يرث عن جريجورى كرسي البابوية فحسب ، وانما ورث معه أفكار البابا الراحل فيما يتعلق بمسألة الحرب المقدسة فى الشرق العربى أيضاً . وبكلمة أخرى أدق وأوضح فى التعبير ، كان جريجورى هو الذى أعد المشروع وهياً له ، بينما أخرجه اربان إلى حيز الواقع : ومع ذلك فليس من السهل البت برأى قاطع فى دور كل منهما من الحركة ، وعما إذا كان قيامها يرجع إلى جريجورى أم إلى اربان أم إلى كليهما (٢) . وكل ما يعيننا هو أن اربان كان على دراية تامة بأحوال العالم العربى ودولة الروم وقتذاك ، وأنه

(١) ديفز : أوروبا فى العصور الوسطى ص ١٩١ - ١٩٢ وكذلك :

Runciman, Crusades 198—99; Daniel-Rops, La Cathédrale et la Crois., 541—2.

(٢) للمزيد من المعلومات عن موقف جريجورى من الفكرة الصليبية ، أنظر : باركر : الحروب الصليبية ، ص ١٨ و ٢٣ - ٢٤ ؛ فشر : تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ١٧٤ .



وجد الظروف الطيبة للتدخل فى شئون بيزنطة والعرب تحقيقا للسياسة البابوية التوسعية .

وعلى أية حال ، عقب انتهاء مجمع بياتشيزا فى أخريات مارس ١٠٩٥ بدأ البابا اربان جولته الدينية التفتيشية فى غرب أوروبا التى انتهت بالتبشير بالحملة الصليبية الأولى .

لقد أمضى البابا بضعة أشهر فى إيطاليا عقب انقضاى المجلس ، ومنها توجه الى فرنسا ، محترقا جبال الألب . ثم قصد بعد ذلك إلى مدينة بوى وكان اسقفها وقتذاك هو ادهمار ده مونتى Adhemar de Monteil الذى سيصبح مندوبا للبابا فى الحملة الصليبية الأولى ورئيساً روحياً لها . وتذكر بعض المراجع أن هذا الأسقف سبق أن ذهب إلى الأراضى المقدسة حوالى عام ١٠٨٧ ، وأنه حدث البابا بعد عودته عن الخطر السلجوقى . ويحتمل كذلك أن يكون اربان قد فاتحه أثناء زيارته الأخيرة له فى أمر تعيينه مندوبا عنه فى الحملة المزمع قيامها ، وكانت العلاقة بينهما على أحسن ما يكون . وان كانت هذه وغيرها مجرد فروض واحتمالات تغرزها الأحداث المتلاحقة التى وقعت بعد ذلك .

ومن مدينة بوى وجه اربان فى ١٥ أغسطس عام ١٠٩٥ الدعوة إلى حضور مؤتمر كليرمون فى ١٨ نوفمبر من نفس العام . وجدير بالذكر أن هذه الدعوة لم تتضمن أية اشارة إلى مسألة الحرب الصليبية من قريب أو بعيد . ولعل البابا كان يهدف من وراء ذلك جعل مشروعه طى الكتمان ضمانا لنجاحه .

واصل البابا بعد ذلك رحلته الدينية فتوجه إلى مدينة سان جيل وكان صاحبها يدعى ريمون ، وهو من كبار رجال الاقطاع فى الغرب المؤيدين للبابوية . وقد لعب دوراً كبيراً فى تاريخ الحروب المسيحية ضد العرب فى

أسبانيا وفي الحملة الصليبية الأولى نفسها . ويبدو أن البابا قد تحدث إليه في أمر مشروعه الصليبي وعزمه على تنفيذه كما تحدث إلى ادهمار من قبل . ونستدل على ذلك من أن ريمون تطوع للذهاب إلى الشرق بعد انتهاء مؤتمر كليرمون بأيام قلائل ، مما لا يدع مجالا للشك في أنه كان على علم سابق بهذه الخطوة ، أى قبل انعقاد المؤتمر بمدة كافية . اذ لا يعقل أن يعلم الكونت بالقرار الذى اتخذ في مؤتمر كليرمون الذى لم يتسن له الاشتراك فيه ، وأن يحضر بعد ذلك ببضعة أيام ليسجل اسمه في سجل الحرب المقدسة ، في وقت كانت فيه وسائل النقل والمواصلات صعبة بطيئة غير ميسرة .

ثم واصل البابا رحلته التفتيشية فمر بعدة بلاد جنوبي فرنسا . واخيرا توجه إلى كلونى ، ذلك الدير الذى شب فيه واشترأبت نفسه بمبادئه وتعاليمه . وأقام هناك بعض الوقت مما ساعده على التأمل والتفكير الجدى فيما استقر عليه عزمه . ومن المحتمل أن يكون قد استعان بخبرة رجال كلونى في التعرف على أحوال الشرق العربى ، اذ كانوا على علم بمجريات الأمور في هذه المنطقة من العالم (١) .

مما سبق يتضح أن فكرة الدعوة للحرب الصليبية لم تظهر فجأة في كليرمون ، ولم يعلن عنها رسميا في بياتشيزا ، وانما نضجت واختمرت في ذهن اربان خلال هذه الجولة التى طاف فيها الغرب الأوروبى في الفترة الواقعة بين شهرى ابريل ونوفمبر من عام ١٠٩٥ . ومن هنا جاء اهتمام المؤرخين المعاصرين لتلك الفترة وتتبع أحداثها ، ودراسة تحركات البابا وتنقلاته خلالها ،

---

(١) فيما يتعلق بتحركات انابا وتنقلاته ينظر :

وتسجيل ذلك كله في كتبهم وتأليفهم . وخلصوا من ذلك أنه كان بعد العدة فعلاً للنداء بهذه الحروب .

.. وأخيراً في ١٨-نوفمبر سنة ١٠٩٥ عقد مؤتمر كليرمون الذي اشترك فيه عدد كبير من رجال الدين معظمهم من فرنسا . وبالرغم من اعتقاد المؤرخين أن الدعوة للحرب الصليبية كانت الموضوع الأساسي في جدول أعمال المؤتمر فقد عالج المجتمعون في الفترة الواقعة من ١٨ إلى ٢٦ نوفمبر بعض الأمور الدينية التي لا تمت بصلة لتلك الحركة . وأخيراً في ٢٧ من نفس الشهر خرج البابا من الكنيسة التي عقد فيها المؤتمر جلساته ، وخطب في الجمهور الذي احتشد خارجها لسماعه تلك الخطبة التي كانت إيذاناً بقيام الحركة الصليبية (١) . لقد تركت الخطبة الملتهبة أثراً بالغاً في نفوس المستمعين الذين قابلوها بجملة صغيرة في عدد كلماتها خطيرة في مدلولها ، فكانت ابلغ تعبير عن سر هذه الحركة وحقيقة دوافعها ومراميها التوسعية الاستعمارية ، وهي «هذه هي إرادة الله» Deus lo vult التي ستصبح صيغة الحرب والقتال للصليبيين الغربيين خلال ثلاثة قرون من الزمان . ولم يكتف اربان بذلك بل قام ووزع بنفسه الصلبان على الحاضرين الذين قاموا بتعليقها على صدورهم أو وضعها فوق اكتافهم (٢) .

(١) أثبت أربعة من المؤرخين الغربيين المعاصرين لتلك الفترة نص هذه الخطبة أو مضمونها مع اختلافات طفيفة في بعض الألفاظ أو الكلمات التي لا تحل بالمعنى العام ، وهم : فوشيه ده شارتر في الجزء الثالث من مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية (المؤرخون النرييون) ص ٣٢٣-٣٢٤ ، وروبرت الراهب (نفس المجموعة والجزء ص ٧٢٧-٧٣٠) ، وبودرى ده بورجي (الجزء الرابع من المجموعة ص ١٣٧-١٤٠) . ويؤمّز بودرى أنه حضر المؤتمر المذكور ، بينما كتب الثلاثة الآخرون عن المؤتمر كما لو كانوا شهود عيان له . أنظر الترجمة الإنجليزية لنص فوشيه و ترجمة مقتطفات من نص روبرت الراهب في :

Downs, Basic Documents in Med. Hist., 73-6.

(٢) يقول مارشال بلدوين إن كلمة «محارب صليبي» Crusader جاءت من كلمة الصليب =

ومهما يكن من شيء . فقد تطورت أفكار البابا اربان في هذا المؤتمر تطوراً خطيراً . فبدلاً من السعي لاعداد حملة لمساعدة الكسييس كومنن الذي التمس رسلة في بياتشيزا العون من أهل الغرب ، وبدلاً من أن يقتنى خطى سلفه جريجورى في هذا المضمار ، نراه يطالب في جرأة وصراحة القيام بحملة كبيرة لغزو الأراضي المقدسة واستئصال شأفة العرب منها وتأسيس إمارة لاتينية بها . وهكذا بدلاً من أن تكون القسطنطينية هي وجهة الحملة ، أصبح بيت المقدس والشرق العربي هدفها ومرساها .

لقد تمكنت الفكرة من نفس اربان ، ووجد أنه من الضروري اتخاذ الخطوات الإيجابية لتنفيذها . فعين في ٢٨ نوفمبر سنة ١٠٩٥ — أى غداة لقاء خطبته المشهورة — ادهمار اسقف بوى رئيساً روحياً للحملة وقاصداً رسولياً لها . وبذلك أكد البابا الاتجاه الحقيقي لهذا المشروع الغربي التوسعي . فهو مشروع نفذته الكنيسة والبابوية مما لها من سلطات مطلقة لا يستهان بها وقتذاك ثم باركاه واشرفا عليه اشرافاً فعلياً طيلة مراحله . واتخذ اربان على انفراد عدة قرارات لتشجيع المتطوعين للاشتراك في الحملة . وأوفد مندوباً من قبله إلى جنوة للاتفاق على أن يقوم أسطولها بمساعدة الحملة فيما يتعلق بنقل الجنود والعتاد والامدادات عبر البحر . وأخذ يتنقل من بلد إلى آخر مبشراً بالحرب داعياً إلى حمل الصليب (١) .

لقد لاقت الدعوة في الغرب نجاحاً منقطع النظير ، وأثارت حماس الأوروبيين بشكل لم يسبق له مثيل في تاريخ تلك القارة . اذ قامت في عصر

= الذى لبسه كل من انخرط في تلك الحركة . ينظر Baldwin, op. cit., 101  
ومن هنا عرف المحاربون الذين اشتركوا فيها باسم المحاربين الصليبيين ، وسميت الحركة نفسها باسم الحركة الصليبية .

(١) باركر : الحروب الصليبية ص ٢٣ — ٢٤ ، وكذلك :

سادت فيه المسيحية على انقاض الوثنية القديمة ، وسيطرت الكنيسة اللاتينية على مصائر الخلق ومقدراتهم ، يتقبلون أوامرهم ونواهيها بالسمع والطاعة . فاذا قالت أن المسيح يأمر أتباعه بالتوجه إلى الشرق في زحف مقدس لتخليص قبره ، فهذا معناه أن يهب الغرب من اقصاه إلى اقصاه للاشتراك في هذا الزحف . والويل لمن يخالف تعليمات الكنيسة ، حينئذ يتعرض لسيفها المسلط على الرقاب . وما أكثر أسلحتها التي كانت تستخدمها من حرمان ونقمة ولعنة وقطع . ولعل هذا يفسر سر الحماس الجنوني الذي قوبلت به تلك الدعوة في بدايتها . فلم يقتصر على جيش معين أو مدينة بذاتها ، بل عم جميع انحاء أوروبا . ولم يقتصر كذلك على طائفة دون أخرى : بل شمل الفرسان وكبار رجال الاقطاع إلى جانب الاقنان وعبيد الأرض ، مما يؤكد وجود ظروف واحدة في دول الغرب تجمع بينها وتؤلف بين قلوبها ، وان الافكار هناك كانت معدة فعلا لقبول هذه الحروب والاشتراك فيها .

## المراجع أولاً - المصادر الأصلية

1. Albert d'Aix, *Historia Hierosolymitana*. Ed. R.H.C. — H. Occ., IV, 265—713 (Paris, 1879).
2. Anna Comnena, *The Alexiad*. An English trans, by E.A.S. Dawcs. London, 1928.
3. Anonymous, *Historia Belii Sacri*, R.H.C. — H. Occ., III. Paris, 1866 (pp. 165—169).
4. Baudri de Bourgueil, *Historia Hierosolimitana*. Ed. R.H.C. — H. Occ., IV, 1—111. (Paris, 1879).
5. Downs, N. (Ed.), *Basic Documents in Medieval History*. New York, 1959.
6. Foucher de Chartres, *Gesta Francorum Iherusalem Peregrinantium* (1095—1127). Ed. R.H.C. — H. Occ., III, 311—485, (Paris, 1866).
7. Guilbert de Nogent, *Historia quae dicitur Gesta Dei Francos*. Ed. R. H.C. - H. Occ., IV, 113—263.
8. Guillaume de Tyr, *Historia rerum in paribus transmarinis gestarum*. Ed. R.H.C. — H. Occ., t. I. p. (1—702). Paris, 1844.
9. Hagenmeyer, H. (Ed.), *Die kreuzzugsbriefe : Epistolae et chartae ad historiam primi belli sacri spectantes*. Innsbruck, 1901.
10. Michel le Syrien, *Extrait de la Chronique de Michel le Syrien*. Ed. R. H.C.—Doc. Arm., I, 309—409 (Paris, 1869).
11. Roul de Caen, *Gesta Tancredi in expeditione Hierosolymitana*. Ed. R.H.C.—H. Occ., III, 587—716.
12. Robert le Moine, *Historia Iherosolimitana*, Ed. R.H.C.—H. Occ., III, 717—882.
13. Tudebodus abbreviatus, *Gesta Francorum et Aliorum Hierosolymitanorum*. Ed. R.H.C.—H. Occ., III, 119—163.

## ثانياً - المراجع الثانوية

### (١) مراجع عربية ومعربة

- ١ - باركر (ارنست) : الحروب الصليبية - نقله إلى العربية الدكتور السيد الباز العرفي -

- ٢ - ديفز (ه.و. كارلس) : أوربا في العصور الوسطى - نقله إلى العربية الدكتور عبد الحميد حمدي محمود - الاسكندرية ١٩٥٨ .
- ٣ - ديفز (ه.و. كارلس) : شارلمان - نقله إلى العربية الدكتور السيد الباز المريني - القاهرة ١٩٥٩ .
- ٤ - عمر كال توفيق (دكتور) : مملكة بيت المقدس الصليبية - اسكندرية ١٩٥٧ .
- ٥ - فشر (ه.ا.ل.) تاريخ أوروبا في العصور الوسطى - جزءان - ترجمة الدكتور زيادة والدكتور المريني والدكتور العدوي - القاهرة ١٩٥٠ و ١٩٥٧ .

ب - مراجع أوروبية

1. Baldwin, M.W., The Mediaeval Church. New York, 1960.
2. Baynes, N.H. & Moss, H. St. (Eds.), Byzantium. Oxford, 1953.
3. Chalandon, F., Essai sur le Règne d'Alexis Ier. Comnène. Paris, 1900.
4. ———, Histoire de la Première Croisade. Paris, 1925.
5. Daniel-Rops, L'Eglise de la Cathédrale et de la Croisade. Paris, 1952
6. Diehl, Ch., L'Europe Orientale de 1081—1453 (Moyen âge t. IX). Paris 1945.
7. Grousset, R., Histoire des Croisades. 3 vols, Paris, 1948.
8. Hagenmeyer. Le vrai et le faux sur Pierre L'Ermite, trad, F. Raynaud. Paris, 1883.
9. Molinier, A., Les Sources de l'Histoire de France des Origines aux Guerres d'Italie. Cf. t. II : Epoque féodale, les Capétiens jusqu'en 1180. Paris., 1902.
10. Ostrogorsky, G., History of the Byzantine State. Trans. by J. Hussey Oxford, 1956.
11. Paris, G., Mediaeval French Literature, trans. from. the French by H. Lynch. London, 1903.
12. Riant, P., Inventaire critique des lettres historiques des croisades. Cf. A.O.L.I, 1—224. Paris, 1881.
13. Runciman, S., A History of the Crusades. 3. vols. Cambridge, 1954-55.

البحث الثانى  
العدوان الصليبي والرأى العام الغربى

محاضرة نشرت فى سلسلة المحاضرات العامة لجامعة الاسكندرية للعام  
الجامعى ١٩٦٧/١٩٦٨ - الاسكندرية (مصر) ١٩٦٨ - ص ٣١-٥٢ .





لقد أثبت الواقع والتاريخ ، كما أثبتت الأحداث التي كان مسرحها العالم العربي منذ القدم حتى يومنا هذا ، أن الحروب الصليبية تمثل حلقة من خلفات الاستعمار ومرحلة من مراحله ، وإن كان لها وضعها الخاص في تاريخ الاستعمار مما يتفق والظروف التي صاحبت قيامها . وقد اعترف عدد غير قليل من المؤرخين الغربيين الحداثيين المعنيين بالعدوان الصليبي بحقيقة أبعاده ومراميها . وفي ذلك يقول المؤرخ الفرنسي رينيه جروسيه R. Grousset ، في مؤلفه « حصيلة التاريخ » : « إن الحروب الصليبية أدت إلى أول توسع استعماري للغرب المسيحي في الشرق العربي » . بينما يقول زميل له ، وهو جورج تريفيليان الانجليزى G. Trevelyan « إن الحركة الصليبية هي حركة اتساع خارجي ، قامت بها أوروبا المسيحية الاقطاعية ضد العرب » . ويأخذ بهذا الرأي المؤرخ الفرنسي المعروف لويس هالفن L. Halphen ، إذ أوضح في كتابه « انطلاقة أوروبا فيما بين القرنين الحادى عشر والثالث عشر » ، أن الحركة الصليبية هي امتداد طبيعي لحروب التوسع الاقطاعي التي شهدتها الغرب في القرون السابقة لتلك الحركة . ويزيد برنارد لويس B. Lewis الأملوضوحاً فيقول في كتابه « العرب في التاريخ » : « إن تلك الحروب كانت أول محاولة مبكرة في التوسع الاستعماري للغرب الاوروبي ، تحركها اعتبارات مادية ودينية ، ويغلفها الدين كعامل نفساني » .

هذه شهادة عدد من كبار الكتاب والمؤرخين الحداثيين ، وهي تكشف عن أهداف العدوان وأبعاده الخطيرة واتجاهاته الاستعمارية في المنطقة العربية . ولقد أثبتت أحدث البحوث التاريخية المحايدة ، المنزهة عن الميول والأهواء ، أن الحركة الصليبية كانت تهدف منذ البداية إلى التوسع الاستعماري تحت قناع زائف من الدعاية الدينية ، في عصر تميز فيه الغرب الاوروبي بالتزمّت الشديد

في هذه الناحية ، وأن غرضها الحقيقي هو الاستيلاء بالقوة المسلحة على فلسطين العربية ، وتأسيس مستعمرات لاتينية بها ، ثم العمل على تعزيز هذه المستعمرات وتوسيع حدودها والمحافظة عليها بشتى الطرق والوسائل ، حتى تكون رأس جسر لأهل الغرب يستخدمونه لتفتيت وحدة العالم العربي وكسر شوكته حتى يظل في حالة جمود وتخلف وعدم قدرة على الحركة ، ضماناً لبقاء نفوذهم في المنطقة .

وكان الجهاز الكنسى في الغرب هو الذى دعا إلى الحركة الصليبية وهو الذى أمدّها بتأييده وتشجيعه المادى والمعنوى ، عندما افتتح بابا روما اربان الثانى ، فى أواخر نوفمبر من عام ١٠٩٥ م ، عصر التوسع الصليبي ضد العروبة والعرب ، وعندما صاح الجميع صيحتهم المشهورة «هذه هى إرادة الله» ، وعندما حمل الجميع شارة الصليب وتوجهوا فى حماس جنونى إلى الشرق العربى ، يريدون غزوه واحتلاله . وكان من الطبيعى أن يصطبغ العدوان بهذه الصبغة الدينية الظاهرية ، وكان من غير المعقول ألا يصطبغ بها فى وقت اتسمت فيه العصور الوسطى فى الغرب بمبسم الدين ، وفى وقت كانت المسيحية الكاثوليكية لها شأن كبير . وكان طبيعياً أيضاً أن يكون الجهاز الكنسى البابوى هو الموجه للعدوان المحرك له ، وكان من غير المعقول أن يقوم غيره بهذا الدور ، فى وقت لم تكن فيه القوميات قد ظهرت بأوروبا ، وفى وقت كان فيه العالم الغربى عبارة عن وحدة كبرى فى مجموعه ، له كنيسة واحدة هى كنيسة روما اللاتينية ، وله بابا واحد هو بابا روما على رأس هذه الكنيسة يأتّم الجميع بأمره ، وله عاصمة روحية واحدة هى روما وقد سادت لغتها اللاتينية وحضارتها بين جميع أهل الغرب . كما مرت دوله جميعاً بنفس العوامل والتطورات التاريخية التى ميزت نهاية التاريخ القديم

وبداية العصر الوسيط . كذلك تركت فيه غزوات البرابرة الجرمان نفس التأثير ، وكان النظام الاقطاعي بمعناه المعروف منتشرأ في الغرب كله . وفي ظل هذه الظروف ، وتبعأ لكل هذه العوامل المتعددة ، وأهمها عامل الحقد والكراهية والرغبة في التوسع والاستعمار على حساب العرب ، خرجت الفكرة الصليبية إلى حيز الواقع والأشياء الملموسة .

ولقد شغل العدوان قرابه ثلاثة قرون ، تبدأ من أواخر القرن الحادى عشر إلى أواخر القرن الرابع عشر ، أمتد فيها الصراع بين الغازى الدخيل وبين العرب أصحاب الديار .

ومما يدعو إلى التأمل العميق أن العدوان لم يكد يبدأ حتى أخذ الكتاب والمؤرخون اللاتين المعاصرون له ، يتناولونه فى كتبهم وتأليفهم بالنقد اللاذع والسخرية المريرة . وكشفوا فى مراجعهم عن وجود رأى عام غربى ضد الفكرة الصليبية . كما أثبتوا بالدليل القاطع تطور الحالة النفسية للجاهيل فى الغرب ، وما كان لهذه الحركة العقلية من آثار فى دفع العدوان والمعتدين . وإذا كان لكل فعل رد فعل ، فقد كان للعدوان الصليبي رد فعل مزدوج : يتمثل جانبه الأول فى المقاومة الصلبة العنيفة العنيدة التى واجه بها العالم العربى العدوان والمعتدين . بينما يتمثل جانبه الثانى فى معارضة الرأى العام الغربى لهذا العدوان . وهذا الشق الثانى هو موضوع محاضرة اليوم .

وموضوعنا هذا من المواضيع الهامة ، التى مازالت فى حاجة إلى المزيد من البحث الجاد الهادف ، والدراسة الدائبة الواعية . فلم يظهر فيه للآن مؤلف مستقل قائم بذاته ، يلم بمختلف جوانبه ونواحيه ، باستثناء كتاب بالمر ثروب P. Throop وعنوانه «نقد الحركة الصليبية: دراسة فى الرأى العام الغربى والدعاية الصليبية» . وقد تعرض مؤلف الكتاب للموضوع من زوايا

معينة ، بينما ترك جوانب أخرى تنتظر من يتناولها بالبحث . وجدير بالذكر أن الكتاب والمؤرخين الغربيين الحديثين يتجنبون البحث بافاضة في هذا الموضوع ، حتى لا ينزلقوا — رغمًا عنهم — إلى الحديث الصريح عن الأبعاد الخطيرة للفكرة الصليبية والتيارات المعارضة لها في قلب الغرب الاوروبي . وكل ما هناك نتف وشذرات مبعثرة هنا وهناك ، في كتب التاريخ المعنية بالعدوان الصليبي لا تشفى غلة الباحث في هذه الناحية . لذلك يجب على المتصدي لهذا الموضوع ، أن يلم بأشئاته من مختلف المصادر والأصول المعاصرة ، من عربية وأجنبية ، ومن الآداب الشعبية التي وضعت في الغرب زمن العدوان ، والتي تعبر تعبيراً أميناً صادقاً عن أدق المشاعر والانفعالات والأحاسيس البشرية : كشفت لنا دون زيف أو افتعال عن موقف أهل الغرب ، من عامة الشعب وصفوة رجال الفكر تجاه العدوان وعواقبه ، ورأيهم الحقيقي فيه دون تحيز وخالصاً لوجه التاريخ .

وهنا نستعرض بعض هذه التيارات المعارضة التي أشرنا إليها . من ذلك :

في أواخر القرن الحادى عشر قامت الحملة الصليبية الأولى (١٠٩٦ — ١٠٩٩م) وتمكنت في سنوات معدودات من تأسيس أربع مستعمرات لها في الشرق ، هي مستعمرة الرها في أعلى الفرات ، ومستعمرة انطاكية في أعلى الشام ، ومستعمرة طرابلس الشام بالساحل ، ومستعمرة بيت المقدس في قلب فلسطين . ويكشف كثير من المؤرخين اللاتين الذين عاصروا تلك الحملة ودونوا أحداثها في مؤلفات لاتزال باقية حتى اليوم ، عن شكهم في العدوان وتشككهم في فعاليته . كانوا يسخرون من المغامرين الصليبيين الذين يشتركون على حد قولهم — «في مثل تلك الحملات المجنونة الهوجاء ، تاركين كل ما يملكون في الغرب تحت رحمة الآخرين .» وكان الناس يجدون متعة في التهم

على أولئك المغامرين ، والمصير السيء الذى ينتظرهم فى الشرق العربى . وإن دلت هذه التصريحات المبكرة على شيء ، فانما تدل على بداية بذور الشك والتشكك فى الفكرة الصليبية ، من أساسها ومع بدايتها ، وما كانت تنطوى عليه من دوافع عدوانية قوبلت بالسخط والسخرية وعدم الرضاء .

كانت الحملة الأولى هى الحملة الغربية الوحيدة التى حققت ما حققته من انتصارات على حساب ضعف العرب وانقسامهم ، فى وقت أخذ فيه الغرب بسياسة المبادأة والهجوم ، بينما ألزم العرب بسياسة الدفاع عن أنفسهم وعن ديارهم بوجه عام ، وفى وقت كان فيه مركز الثقل يميل بقوة لصالح المعتدى بعد الصحوة التى شملت أوروبا من أقصاها إلى أقصاها . كل هذا ممكن أهل الغرب من تحقيق انتصارات سريعة خاطفة لم تكن تخطر لهم ببال . ولكن ما أن أفاق العرب بعد تلك الضربة المفاجئة ، حتى استشعروا الخطر المائل المحقق بهم ، وأخذوا يتكثرون لمواجهته ودفعه عن ديارهم . وكان أن بدأت فى السنين الأولى من القرن الثانى عشر بوادر يقظة عربية أخذت تسرى كالتيار فى المنطقة ، ولم يكن قد مضى على بداية العدوان سنوات معدودات وأثمرت هذه الافاقة العربية الواعية ، ظهور شخصية عماد الدين زنكى صاحب الموصل الذى تمكن فى أواسط القرن الثانى عشر من استعادة الرها من الصليبيين .

وثارت ثائرة الغرب . فقد كانت هذه أول إمارة يؤسسونها فى العالم العربى ، وأول إمارة يستعيدها العرب . ودعت البابوية إلى حملة جديدة ، تستهدف غزو الرها ، وهى التى تعرف بالحملة الصليبية الثانية (١١٤٧ - ١١٤٩م) . وأخذ الدعاة يدعون لها بكل مكان فى الغرب ، ولكن الحملة فشلت فى تحقيق هدفها أمام بوادر الافاقة العربية . ومع فشلها أخذ الشعور باليأس يتزايد بين الغربيين ، وارتفعت الأصوات تتهم أولئك الذين دعوا

لتلك الحملة ، وكان على رأس الدعاة القديس برنارد اوف كليرفو ، بأنهم «أنبياء كذبة كالسيخ الدجال .. وأنهم أبناء الشيطان ، بعد أن أضلوا المسيحيين الغربيين بكلماتهم المعسولة الجوفاء ، وبعد أن وجهوهم نحو البيت المقدس في الشرق ، بخطب كاذبة خادعة» .

ومع هذا الشعور العدائى المتزايد ضد الفكرة الصليبية في الغرب ، تمتد حركة اليقظة لتشمل العالم العربى ، وتتمخض عن ظهور شخصيات عربية أدت دورها على مسرح الأحداث وقتذاك ، وعلى رأسها نور الدين محمود ابن عماد الدين زنكى ، والبطل صلاح الدين الأيوبي الذى تمكن من تكتيل القوى العربية في الشرق تحت راية واحدة هى راية العروبة ، وإعلان الجهاد المقدس من قلب مصر ضد العدو الرابض في فلسطين . وتفلح القوة العربية الذاتية الموحدة من إلحاق شر أنواع الهزائم بالغربيين بعد فترة من المناورات والاستطلاع وجس النبض ، في موقعة حطين الشهيرة في يوليو سنة ١١٨٧ م ومن طردهم من البيت المقدس في أكتوبر من نفس العام .

كانت هذه ضربة معلم جاءت في وقتها ، وكان وقوعها وقع الصاعقة فوق رؤوس الغربيين ، ولطمة قاسية لآمالهم وأحلامهم وأطماعهم في العالم العربى واذلال لهيبتهم وكرامتهم . وقامت قيامتهم . وفي ثورة حاكمة أخذوا يدعون إلى حملة جديدة للاستيلاء على بيت المقدس لتكون المنطلق لتحقيق باقى الأطماع الصليبية . وتعرف هذه الحملة بالصليبية الثالثة (١١٨٩ - ١١٩٢م) . وقد قادها ثلاثة من كبار ملوكهم ، هم فيليب أوغسطس ملك فرنسا ، وريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا ، وفردريك بارباروسا امبراطور المانيا الذى مات غريقاً في أحد الأنهار الصغيرة في آسيا الصغرى قبل وصوله إلى اورشليم . ولم تكن هذه الحملة أسعد حظاً من سابقتها ، إذ منيت بالفشل أمام الاصرار

العربي المدرك للعدوان وعواقبه . لم تفلح الحملة في غزو البيت المقدس والاستيلاء عليه . وأخذ صلاح الدين ، بعد ذلك ، يكيل الضربات تباعاً إلى معاقل الصليبيين في الشرق العربي والساحل الشامى . وكان لهذه الضربات آثارها ، كما كان لأفعال المعتدين ردودها . إذ وضع أحد الرهبان الغربيين حواراً باللغة اللاتينية بينه وبين الله ، اختتمه بعبارة لها دلالتها ، هي : «إنه لأحق غي هذا الذى يتبعك (يعنى الله) في معركة جديدة ضد العرب» . ويقصد بذلك أن الله لم يدع الغربيين إلتزام بمثل تلك الحملات العدوانية ، ولذلك لحق بهم الخزي والعار . وكتب أحد الغربيين يقول : «لم يعد ثمة أمل في غزو الأراضى المقدسة .. لقد انتصر العرب .. وهكذا أراد الله» .. إشارة إلى أن إرادة الله التى بدأ بها العدوان الصليبي هي التى هيأت النصر للعرب والهزيمة للمعتدين .

هذا هو الإحساس الذى عبر عنه الكتاب والمؤرخون الغربيون القدامى ، وهو إحساس يشوبه ، منذ البداية ، الفتور واليأس والقنوط تجاه العدوان ونتائجه . وخلال تلك الكوارث والحن التى أنزلها العالم العربى بالغرب الاوروبى في أخريات القرن الثانى عشر ، ظهر كثير من المفكرين الايطاليين المتحررين الذين أخذوا ينددون بالعدوان في لهجة صريحة قاسية . ومن بين هؤلاء شخص يدعى يواكيم الفلورى ، نسبة إلى بلدة فلوريا بجنوب ايطاليا وكان للبيئة التى نشأ فيها يواكيم ، حيث وجدت ثقافات عديدة متنوعة المصادر والأصول ومن أهمها الثقافة العربية — كان لهذه البيئة المتحررة أثرها في الأفكار المستنيرة التى نادى بها . لقد أبدى معارضة شديدة للحرب الصليبية ، ومن أقواله الماثورة في هذا الشأن : «إن المسيح نفسه يعارض استيلاء الغرب على البيت المقدس ، وإن الحروب الصليبية التى قام بها أهل الغرب ضد العرب هي ضد



الارادة الالهية . وعلى البابوات أن ينوحوا ويتباكوا ليس على البيت المقدس الذى يوجد فى الشرق ، وإنما على بيتهم المقدس هم ، أى الكنيسة العالمية التى استشرى فيها الفساد .. وعليهم أيضاً أن يتوقفوا عن إنهك المسيحية الغربية فى حروب ضد العرب لا طائل تحتها ولا أمل يرتجى من ورأها .

وتستمر النوائب والبلايا تحل بالصليبيين الدخلاء على أيدي العرب ، ويزداد مع الزمن الرأى العام الغربى المعارض للعدوان وضوحاً وانتشاراً ، فى الوقت الذى يزداد فيه العرب قوة وصموداً وتمسكاً . وتصبح القاهرة منذ أوائل القرن الثالث عشر ، بعد الدور الذى قامت به فى سبيل توحيد العالم العربى ، هى قلب هذا العالم النابض بالحياة ، ومقره المنيع ، ومركزه الدائم المستمر لإمداده بالمال والرجال والمؤن والسلاح ضد قوى البنى والعدوان ويرى الغربيون فيها عقبة كأداء فى سبيل تحقيق أطماعهم المعروفة فى المنطقة . وتتجه أنظارهم إليها فى محاولات هدفها القضاء عليها ، ليتسنى لهم تحقيق هذه الأطماع . وكان أن تعرضت مصر خلال النصف الأول من القرن الثالث عشر لحملتين صليبيتين كبيرتين ، هما الحملة الخامسة (١٢١٨ - ١٢٢١ م) التى قادها أحد رجالهم وهو جان دى بريين Jean de Brienne الذى كان متولياً على عكا ويحمل لقب الملك الاسمى لبيت المقدس منذ أن استعادها العرب من اللاتين ، والثانية هى الحملة الصليبية السابعة (١٢٤٨ - ١٢٥٠ م) بقيادة الملك الفرنسى لويس التاسع المعروف بالقديس لويس . ولكن ميزان القوى كان قد اعتدل نهائياً لصالح العرب ، وأصبح مركز الثقل يميل إلى جانبهم . ولذلك ألحقوا بالعدو الفرنجى هزائماً مريرة على ضفاف النيل . وقصة هزيمة لويس التاسع وأسره بدار ابن لقمان فى المنصورة معروفة لنا جميعاً . لقد أدت تلك الهزيمة إلى ازدياد الشعور بالسخط فى الغرب ، وإلى انتشار موجة

موجة عارمة من الشك واليأس بين الغربيين أكدتها وعمقتها التجارب السابقة التي مروا بها ، والدروس التي لقتها العرب إياهم . كما تأثرت قدسية لويس التاسع بسبب تلك الهزيمة . وتعرض دعاة الحرب الصليبية في الغرب للسبب والاهانة من الناس علناً وجهاً . وازدادت هذه النغمة حدة بعد موت لويس التاسع أثناء حملته الصليبية الأخيرة على تونس في الشمال الافريقي سنة ١٢٧٠م وهي المعروفة في عداد الحركة الصليبية بالحملة التاسعة . وازدادت مع اخفاقها موجة المرطقة في الغرب ، بعد أن أخذ الناس ينفضون من حول الكنيسة اللاتينية ، ويخرجون على أوامرها وتعاليمها ، في وقت كان فيه الجهاز الكنسي لعوامل عديدة مختلفة ، يسير هو الآخر نحو التدهار والانحيار .

وفي أواخر القرن الثالث عشر ، أخذ نجم الصليبيين الغربيين في الأفول ، كما بدأت الفكرة الصليبية في الاحتضار ، في وقت أصبح فيه زمام المبادرة في قبضة العرب ، بعد أن توحدت كلمتهم واتحدت جبهتهم . واتخذوا سياسة الهجوم دفعاً للعدوان ، بينما التزم أعداؤهم بسياسة الدفاع عن أنفسهم وعن كياناتهم المتداعية في الأرض المقدسة . في ظل هذه الظروف تمكن خلفاء صلاح الدين من بني أيوب ، ومن بعدهم المماليك في مصر ، من القضاء على بقايا المعادل الفرنجية بالساحل الشامي ، إلى أن انتهى الأمر بسقوط آخر معاقلهم الحصينة وهي عكا سنة ١٢٩١م في قبضة السلطان الأشرف خليل . ولم تبق بعد ذلك سوى بضعة جيوب صغيرة مبعثرة على امتداد الساحل سقطت تباعاً في أيدي المصريين في نفس العام ، منها صور وصيدا وحيفا . وبذلك انهار سلطان الفرنج تماماً في منطقة الشرق العربي .

ونتيجة لذلك عمت موجة من الحزن واليأس بين دعاة الحرب والداعين إلى مواصلة العدوان في الغرب ، وازداد الشعور بالمرارة والحقد ضد العرب .

وقامت خلال القرن الرابع عشر محاولات يائسة لإحياء الروح الصليبية البغيضة من جديد ، لتحقيق نفس الأطلاع القديمة . وقام كثير من الدعاة بالدعوة إلى الحرب الصليبية في شتى أرجاء الغرب ، كما ظهرت مشاريع ومؤلفات عديدة في هذا الشأن . ومن هؤلاء الدعاة بطرس دي بوا Pierre Dubois ، ورامون لال Ramon Lull ، وبركارد من جبل صهيون Burcard of Mount Sion ، وبترس دي توما Pierre de Thomas ، وفيليب دي مزير Philippe de Mézières ، وهبرت أوف رومانز Humbert of Romans ، وغيرهم ممن أخذوا يشجعون أهل الغرب على الأخذ بأسباب الحروب الصليبية من جديد .

ويعتبر الكتاب الذى وضعه هبرت أوف رومانز باللغة اللاتينية ، واسمه «الدعوة إلى حملة صليبية جديدة» ، وثيقة أصلية معاصرة تتميز بأهميتها الفائقة فيما نحن بصددده . ففيه يعدد هبرت الأسباب التى جعلت الناس فى الغرب ينصرفون عن الفكرة الصليبية ويحجمون إحجاماً تاماً عن الاشتراك فى حملات جديدة ضد العرب . وينتقل بعد ذلك إلى تقسيم المعارضين للعدوان المتنددين به إلى مجموعات متقاربة متجانسة ، مع بيان الأسباب التى تدعو كل مجموعة منها إلى الوقوف من العدوان هذا الموقف المعارض . وجدير بالذكر أن مؤلف الكتاب لم يكن يهدف أساساً إلى الكشف عن معارضة رأى العام الغربى للفكرة الصليبية ، وإنما وجد نفسه مضطراً ، وهو يدعو إلى حملة صليبية جديدة ، إلى الرد على المعارضين لها . فكشف عن غير قصد منه - هذا التيار الذى كان يسرى كالتار فى الغرب ضد فكرة الحرب ، وما جرتة على الغربيين من ويلات .

وقد يتحدث هبرت ، فى القسم الأول من مؤلفه ، عن الأسباب التى دعت

أهل الغرب إلى الانصراف عن الفكرة الصليبية ، وحصر هذه الأسباب في النقاط الست التالية :

(أولاً) اتصاف الغربيين بالجن :

يشير المؤلف هنا إلى الجن الطبيعي الذي يتصف به الغربيون ، وخوفهم الزائد من ركوب البحر . ويقول إنهم كانوا يرتعدون خوفاً كلما مر بخاطرهم ما قد يصيبهم خلال الطريق منذ خروجهم من ديارهم في الغرب إلى الشرق العربي من مخاطر وأحوال قد تؤدي بهم مورد التهلكة . ويؤكد ذلك أحد المؤرخين العرب ، وهو أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي ، إذ قال في كتابه «صبح الأعشى في صناعة الإنشاء» إن أولئك القوم هم أجن خلق الله تعالى . ويضيف همبرت إلى ذلك ، أن انغماس الغربيين في اللاهو والملاذات ، أمات روح الحرب والقتال فيهم . ويعبر الأدب الشعبي في الغرب عن هذا الجن أوضح تعبير . إذ كان الناس يصرحون علانية أنهم يفضلون التمتع بالحياة في ديارهم ، عن المخاطرة بحياتهم في حرب صليبية قد تكون فيها نهايتهم . كذلك أبدى كثير من الشعراء ، في قصائدهم وأشعارهم ارتباطهم ببلادهم الجميلة ، وذكروا أن مغادرتهم لها في حملة خارجية ، سوف يسبب لهم ألماً وحسرة زائدين .

(ثانياً) سخرية الغربيين من المغامرين الصليبيين :

تكشف الوثائق أن كثيراً من الغربيين كانوا يسخرون من زملائهم الذين يتوجهون في حملة صليبية ضد العرب . وهم في ذلك يقولون : «ما الفائدة من القيام بمثل تلك المغامرة التي تكلف الكثير ، بينما يترك المرء مصالحة الخاصة في بلاده التي تدر عليه الربح الوفير ، ليشارك في حرب لا تنتهي ، ولا يمكن أن تنتهي ، وقد يخسر فيها كل شيء» . وهم أيضاً يقولون في أسلوب لاذع :

« كم ستكون الخسارة التي ستحل بالمغامر وأسرته وبأهله وعشيرته ، إذا ذهب في حرب صليبية خارج بلاده » .

(ثالثاً) الرابطة الأسرية وأثرها :

أعطى الكثيرون في الغرب ظهورهم للحرب الصليبية ، بسبب ارتباطهم بعائلاتهم وذويهم . وكان الواحد منهم يتساءل : « كيف أترك أبي وأمي ، وكيف أفارق زوجتي وأولادي ، وأذهب في حرب لن أجنى من ورائها شيئاً ، بل قد أخسر كل شيء ؟ » ويلاحظ أن الأغاني الشعبية التي وضعت زمن العدوان باللغتين الألمانية والفرنسية القديمتين ، تبرز هذا المعنى وتؤكدده . فهي مليئة بعبارات تدل على اليأس الذي استولى على أهل الغرب ، بمجرد التفكير في فراق الأهل والأقارب والأحباب ، بسبب الاشتراك في حرب صليبية . وكثيراً ما كانت مثل هذه الأغاني اللا صليبية ، تنشد على الآلات الوترية في الشوارع والطرق بصوت مرتفع ، وهي تعبر عن شكوى الزوج المسكين أو العاشق المتيم من لوعة الفراق ، كما تصور الصراع النفسي الذي كان يمزق المغامر الصليبي من الأعماق .

(رابعاً) معارضة نساء الغرب للفكرة الصليبية :

وكان لنساء الغرب موقف واضح من العدوان له أسبابه ودوافعه . لقد عارضن فكرة الحرب الصليبية معارضة تامة ، ولم تبدين أى اهتمام بها ، لأنها تسبب في الفصل بينهن وبين أزواجهن ، ولأنها تؤرق جبهن لبعد الأحباء . وفي كثير من الأغاني الشعبية ، يذكر الشعراء أن النساء احتججن بشدة لأن الحرب انتزعت رجالهن منهن . وهذا يدل على أن الحساس لتلك الفكرة ، لم يكن أصيلاً أو متأصلاً ، بسبب تلك الروابط الشخصية العميقة . فالزوج المسكين الذي يشترك في حملة صليبية ، مشغول في الواقع عنها بزوجة وأولاد

تركهم وراءه في الغرب . وكذلك العاشق الولهان ، يشترك مع الجيش الصليبي بجسده ، بينما عقله وقلبه منصرفان إلى خليلة قد يكون وداعه لها هو الوداع الأخير . أما الزوجة التي ذهب زوجها في الحرب ، فهي تعيش في قلق نفسي يعتمل في داخلها . إن غياب زوجها يعني هدم بيتها الصغير ، وتفكك الرابطة الأسرية ، وما يحجره ذلك على المجتمع من مآس وهزات .

كانت هذه العوامل بادية للعيان . فالمشتركون في العدوان غير مقتنعين به غير راضين عنه ، وكذلك الحال بالنسبة للمتخلفين في الغرب ، وإن اختلفت الدوافع والأسباب .

ولقد أدركت الكنيسة اللاتينية الخطر الذي يحيق بالحركة الصليبية وفتور الحماس لها . وحتى تحمد من كراهية النساء للحركة ، أعلنت أنها تمنع الزوجات اللاتي يذهب أزواجهن في حرب صليبية ، نفس الامتيازات التي يتمتع بها كل من ينخرط في سلك هذه هذه الحروب ، وأولها الغفران البابوي . ومع ذلك لم تهتم نسوة الغرب بتلك المغريات ، وأدرن لها ظهورهن ، في وقت بدأت فيه الكنيسة نفسها تفقد سلطانها وسطوتها ، بينما أخذت أسلحتها العديدة تفقد هي الأخرى فعاليتها ، نتيجة للتغير الكبير الذي طرأ على الغرب الأوروبي وقتذاك .

(خامساً) تعللات وحجج وأعذار للتصل من الاشتراك في الحرب :

وثمة كثيرون أخذوا يتعللون بعدم إمكانهم الاشتراك في حرب صليبية خارج بلادهم لسبب أو لآخر . فمنهم من احتج بعدم وجود المال الكافي لديه للانفاق على نفسه أثناء الحملة . ومنهم من اعتذر بسبب سوء حالته الصحية التي لا تحتمل مشاق الرحلة وأخطارها . بينما تذرع البعض بقولهم إنه ليس هناك من ينوب عنهم في بلادهم للقيام بأعمالهم وإدارة شئونهم الخاصة

أثناء تغييهم في الشرق . وهناك من احتج بأنه أب لأولاد صغار هم بحاجة إليه وإلى رعايته لهم ووجوده بجوارهم ، وأنه إذا تركهم وشأنهم فلن يجدوا من يعولهم ويرعاهم ، وسيكون مآلهم الضياع .  
(سادساً) عدم الإيمان أساساً بالفكرة الصليبية :

وينتقل ههنا بعد ذلك إلى ذكر السبب الرئيسى الذى حال بين الغربيين وبين الاشتراك فى مغامرة صليبية جديدة ، وهو عدم الإيمان أصلاً بالفكرة الصليبية . فهم يرون أنه ليس هناك أى داع للقيام بمثل تلك المغامرة . وكانت التجارب السابقة التى مر بها أهل الغرب ، والضربات التى تلقوها على أيدي العرب ، مما يعزز هذا الاتجاه . فهناك كثيرون لا يؤمنون إطلاقاً بالامتيازات المادية والروحية التى كانت البابوية تمنحها عادة لمن ينخرط فى سلك حرب صليبية ضد العرب . ولم تكن هذه الاعفاءات ، فى يوم ما ، موضع ترحيب من الشعب ، وإن كان هدف المسئولين منها هو الترغيب .

لقد أبدى الشعراء الغربيون شكوكهم صراحة فى جدية هذه الامتيازات وفى قيمتها . وأعلن البعض فى قصائدهم أنها لا تساوى شيئاً ، بينما قال البعض الآخر إن البابوات كانوا يمنحون صكوك الغفران لمن يشترك فى تلك الحروب طمعاً فى المال فحسب . كل هذا يكشف عن شعور بالاستهانة والاستخفاف واللامبالاة كان سائداً فى الغرب ضد الفكرة الصليبية .

وهكذا لم يكن الحماس الشعبى للحركة الصليبية حقيقةً متأصلاً ، كما لم يكن لدى الفرنج رغبة صادقة فى القتال . وليس لنا أن ننتظر منهم ذلك بعد أن تأكد فتور الحماس عندهم بشكل ملموس ، وبعد أن وضحت أبعاد العدوان وتكشفت حقيقة مراميهم . فهم يحاربون فى أرض غريبة عنهم ، وفى بلاد غير بلادهم وملك غير ملكهم .

بعد أن عدد همبرت اوف رومانز الأسباب التي حالت بين شعوب الغرب وبين الاشتراك في العدوان الصليبي ، نجده يقسم المعارضين للعدوان المتشككين فيه إلى ست مجموعات متجانسة ، هي :

المجموعة الأولى : وينادى أفرادها بأن إراقة دم أى عربى في حرب صليبية أمر يتنافى والتعاليم التي نادى بها المسيح . لقد كانت دعوته دعوة محبة وسلام ، وليست دعوة اقتتال وسفك دماء . هذا ، بصرف النظر عن عشرات الألوف من الغربيين الذين يذهبون ضحية هذه الحرب ، ومن بينهم أباطرة وملوك وأمراء وفرسان ، كانت بلادهم أحوج ما تكون إليهم وإلى خبراتهم وأن بقاءهم في ديارهم كان أولى من المخاطرة بحياتهم في تلك الحملات المهلكة ويتساءل المنددون بالفكرة الصليبية عن الحكمة في المخاطرة بصفوة رجال الغرب في حروب لن تعود آخر الأمر بأى نفع على أوروبا .

المجموعة الثانية : ثمة مجموعة أخرى يرى أتباعها أن ظروف الحرب لن تكون آخر الأمر في صالح الغرب لأسباب عديدة متعددة ، منها أن المحاربين الغربيين يعتبرون قلة دائماً ، إذا قورنوا بالكثرة العددية للعرب أصحاب الديار ثم أنهم سوف يقاسون من جو الشرق الحار الذي لم يتعودوا عليه وهم في داخل ملابسهم الخفيفة التي تحمى من حررتهم ، بينما العرب معتادون على هذا الجو ، ويمتازون بملابسهم الخفيفة التي تساعدهم على سرعة الحركة ومباغثة العدو واقتناصه . وعلى المقاتلين الغربيين تناول أطعمة ومأكولات غير مألوفة لهم ولأذواقهم ، بينما العرب يألفونها . وبينما نجد العرب على علم تام بالمعابر والممرات وبالطرق والمسالك في بلادهم ، كان الصليبيون يجهلونهم . وبينما المخاطرون اللاتين تعوزهم الامدادات المستمرة من المؤن ، كان كل شيء متوفراً لدى العرب ، ولم تكن مسألة إمداد الجيش بالمؤن والأزواد تشكل



أية صعوبة بالنسبة لهم . وهذه كلها أمور لها وزنها واعتبارها عند خوض معركة ما ، بحيث لا يمكن التهوين من شأنها . ويستطرد أتباع هذه المجموعة من المعارضين قائلين : «إنه لمن الغباء ، بطبيعة الحال ، أن يذهب المرء للقتال تحت ظل هذه الظروف المضادة» . ويتوصلون من وراء هذا التحليل المنطقي بقولهم : «لما كانت الحكمة وبعد النظر يعتبران من أهم الشروط لضمان النجاح في حرب ما ، لذا يجب على الغربيين ألا يحاولوا إطلاقاً إثارة مثل هذا الصراع الدامى الذى لن يعود عليهم بأية فائدة» .

المجموعة الثالثة : أما المجموعة الثالثة من المعارضين لفكرة الحرب ، فينادى أتباعها بأنهم على استعداد للدفاع عن أنفسهم في حالة واحدة فقط ، هى إذا هاجمهم العرب في عقر دارهم في الغرب . وخلاف ذلك فهم يتركونهم وشأنهم دون أن يلهثوا وراءهم في مغامرات غير مأمونة العواقب أو مضمونة النتائج . ويعبر عن ذلك تعبيراً صادقاً الأدب الشعبى في الغرب في القرن الثالث عشر ، وهو عصر احتضار الفكرة الصليبية . إذ يجد مثالا حياً في قصيدة بالفرنسية القديمة لشاعر فرنسى يدعى وليم رتبوف ، جاء فيها : «إنه لمن الحرق والغباء أن يخاطر المرء بحياته في حرب خارجية ، طالما كان بوسعه أن يتصل بالله في وطنه ، وهو بين أهله وعشيرته وأن يعيش في نعمة ويسر وسلام» . وتكرر هذه الفكرة في القصيدة على امتدادها . وكانت هذه هى النغمة السائدة في الغرب من أقصاه إلى أقصاه إبان العدوان . وقد ازداد رنينها بعد أن أيقن الغربيون أن العدوان الذى أثاروه ضد العرب كان بمثابة مقبرة لهم ولآمالهم في رقة العالم العربى .

المجموعة الرابعة : يتساءل أتباع هذه المجموعة قائلين : «لماذا لا يقضى الغربيون — مثلاً — على اليهود الذين يعيشون بين ظهرانيهم ، والذين يسببون

لهم متاعب ومضايقات لاعد لها ولا حصر ؟ لماذا لا يلفظونهم خارج ديارهم ويرتاحون منهم ، بدلا من الجرى وراء العرب وقطع آلاف الأميال سعياً وراء مغامرة مخوفة بالمخاطر والأهوال ؟» .

وتحتاج هذه النقطة إلى وقفة سريعة لازمة . فهي تكشف عن كره الغربيين العميق لليهود . كما تكشف عن أفكار كانت تدور في رؤوس الغربيين تجاه هذا العنصر ، وعن المحاولات التي كان يجري بحثها هناك ابان الحركة الصليبية بهدف التخلص من اليهود . وهذه حقيقة لها أكثر من دلالة وأكثر من مغزى إذ كان العداء قديماً ومستحكماً بين الغربيين واليهود المقيمين في الغرب . وهو يرجع إلى عوامل عديدة ، من أهمها تحكم اليهود - وقبل أن تبدأ الحركة الصليبية بزمن طويل - في اقتصاديات الغرب وإضرارهم بها . فضلاً عن أن الغربيين كانوا يعتبرون اليهود غير قوميين أو وطنيين أو مخلصين للبلاد التي يعيشون تحت سمائها ويستظلون بظلها . إذ كانت الجاليات اليهودية تشكل داخل البلاد التي تعيش فيها دولة داخل الدولة .

وقد اتخذ هذا العداء مظاهر شتى . إذ تشير المصادر الغربية التي عاصرت العدوان الصليبي ، إلى المذابح التي شهدتها أوروبا ضد يهود الغرب ، والتي كان الصليبيون - عادة - يبدأون بها أي حملة صليبية يقومون بها ضد العرب ومن ذلك موقف الحملات الألمانية الشعبية التي سبقت قيام الحملة الصليبية الأولى ، حيال اليهود في أوروبا . كانت إحدى هذه الحملات بقيادة شخص يدعى فولكار . وتروى المصادر اللاتينية أنه عندما بلغ أفرادها مدينة براغ ، وهم في طريقهم إلى الأراضي المقدسة ، أعملوا القتل في جميع يهود المدينة . وثمة حملة أخرى كانت بقيادة شخص يدعى كونت اميكو ، وقد بدأت مسيرتها بقتل جميع اليهود في مدن الراين . واستمرت المذبحة - كما تروى

المصادر - شهراً كاملاً في كثير من المدن ، من بينها ماينز وكولونيا وتريف وورمز وميتز . وقد قتل فيها عدد كبير جداً من اليهود من بينهم رئيس الجالية اليهودية نفسه . وكان اليهود يلجأون أحياناً إلى قصور المطارنة للاحتباء بها من غضبة الجماهير في الغرب . ولكن الغربيين كانوا يهاجمون تلك القصور ، ويجبرون المطارنة على مغادرتها ، ثم يقومون بذبح اللاجئين إليها من اليهود . وقد تكررت هذه المواقف في كافة أرجاء الغرب طيلة مراحل العدوان الصليبي معلنة عن سخط وغضبة الشعوب الغربية على هذا العنصر الذي كان في نظرها أشبه بدود لحاء الشجر ، أو السوس الذي ينخر في العظام ، أو اخطبوط تمتد أذرعه إلى كل شبر في الغرب .

والخلاصة أن هذا الشعور المعادى لليهود في الغرب له جذوره العميقة . فهو يرجع إلى أقدم العصور ، ولا يزال قائماً حتى اليوم ، وإن كانت هناك في الوقت الحاضر ظروف معينة وموقفة تخفف في الظاهر من عنفه وحدته . ولكنه عدااء كامن ينتظر أول فرصة مواتية ليعبر عن نفسه مرة أخرى ، كما حدث - على سبيل المثال - في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين . والسؤال الذي يجب أن نطرحه على أنفسنا اليوم ، ونحن نخوض معركة المصير العربي ضد الصهيونية والاستعمار ، هو : كيف نستفيد من هذا العدااء لصالح قضية المصير العربي ؟ والاجابة عنه تحتاج إلى بحث وتدبر ، وإلى دراسة وتخطيط ، وإلى ذكاء ودهاء ، وإلى منهج علمي مدروس .

المجموعة الخامسة : وهناك مجموعة أخرى في الغرب ترى أن العدوان الصليبي كانت له نتيجة غير ما توقع الغربيون أنفسهم . إذ أشعل ضدّهم ثورة العرب ، الذين باتوا يتحينون الفرصة المواتية للتأر والانتقام . ويزيد أنصار هذه المجموعة الأمر وضوحاً بقولهم : «إنه لا توجد لدينا عندما نقوم بغزو

أرض العرب ، قوة ثابتة دائمة يمكن بها السيطرة على أولئك الذين يحرقون تلك الأرض ويفلحونها ويعيشون على ما تغله من خيرات ، طالما أن رجالنا لا يرغبون في البقاء في تلك الجهات .»

وترتبط هذه الفكرة أساساً بسياسة التهجير والاستيطان الاستعماري في العالم العربي إبان العدوان الصليبي . إذ تلخص التجربة الصليبية في قدوم الحملات الغربية لتحقيق أهداف العدوان . وبعد انتهاء كل حملة ، يعود غالبية الصليبيين إلى ديارهم بالغرب ، بينما تبقى في الشرق أقلية منهم . وحتى هذه الأقلية الضئيلة إما أن تذوب تلقائياً بين الأغلبية العربية ، وبذلك تتمحى شخصيتها وينتهى كيانها ، وإما أن تنزح إلى أوطانها بعد قليل . ويرجع ذلك إلى أسباب عديدة ، من سياسة واجتماعية واقتصادية ، داخل أوروبا نفسها تشد أولئك المغامرين إليها ، فضلاً عن اضطراب الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية داخل الأرض العربية المحتلة ، والمقاومة العربية الشديدة المتزايدة التي تسبب لأولئك الدخلاء قلقاً بالغاً . وأخيراً إدراك الغزاة أن العرب يحيطون بهم من كل جانب ، وأنهم إذا اتحدوا دفاعاً عن وجودهم ومقدساتهم - وهذا أمر لا مندوحة عنه - سيطبقون عليهم ويقبضون على البقية الباقية منهم . ولهذا السبب لم تكن نداءات تهجير الغربيين إلى المستعمرات الصليبية في الشرق تلقى استجابة كافية بين أهل الغرب . يضاف إلى ما تقدم ، أنه كان من عادة الصليبيين الغربيين الاستقرار في المدن وترك المواطنين العرب في القرى يحرقون الأرض ويفلحونها . والنتيجة أن العرب أصحاب الديار كانوا دائماً أغلبية في ديارهم ، بينما الفرنج أقلية ليست هناك أى رابطة تربطهم بالأرض التي يحتلونها . وهذا يلقي تفسيراً كافياً على تساؤلات أنصار المجموعة الخامسة المعارضة للفكرة الصليبية .

المجموعة السادسة : وهناك فريق آخر من المتدينين بالعدوان يبرر موقفه بأن هذا العدوان ضد مشيئة الله وإرادته . فقد أُنذِر — سبحانه وتعالى — الغربيين بالكوارث والويلات التي سوف تحل بهم إذا دخلوا في صراع مع العرب . ويتعزز هذا الفريق رأيه عندما يتساءل في لهجة لاذعة قاسية ثم عن الشك العميق في العدوان وجدواه . يتساءل أتباع هذا الفريق قائلين : «لماذا سمح الله لصلاح الدين أن يسترد بسرعة فائقة الأرض التي بذل الغربيون الأرواح والجهد والمال في سبيل الحصول عليها ؟ ولماذا سمح الله بأن يغرق الإمبراطور الألماني فردريك الأول بباربوسا أحد زعماء الحملة الصليبية الثالثة في جدول ماء صغير وهو في طريقه لقتال العرب في الأرض المقدسة ؟ ولماذا سمح الله للملك لويس التاسع وأخوته ونبلائه كلهم تقريباً بأن يقعوا أسرى في قبضة المصريين ؟ ولماذا مات لويس التاسع وابنه يوحنا الحزين وهما يهاجمان العرب في تونس في الشمال الأفريقي ؟ أما كان بوسعه — عز وجل — أن يحول دون وقوع كل هذه البلايا والكوارث إذا كانت هذه الحرب التي تقوم بها أمراً يرضيه ؟ لاشك أنه — جل وعلا — غير راض عنها ، ولهذا حلت علينا لعنته»

وجدير بالذكر أن مثل هذه التساؤلات وغيرها بما تحمله من معان الشك والتشكك في العدوان ومظاهر السخط على القائمين به الداعين إليه ، كانت أمراً عادياً شائعاً ومألوفاً في الغرب وقتذاك ، وكانت على ألسنة الجميع من كبير وصغير وغنى وفقير . ولم تقتصر على بلد واحد من بلدان الغرب ، وإنما شملت الغرب الأوروبي كله من أقصاه إلى أقصاه . وقد حفظت لنا المصادر التاريخية والآداب الشعبية التي وضعت في الغرب في عصر التوسع الصليبي ، هذا التراث القيم من الضياع بما له من أهمية فائقة .

وما دمنّا نتحدث عن معارضة الرأي العام الغربي للعدوان الصليبي ضد

العالم العربي ، يجب أن نشير إلى ثلاثة من صفوفة الأحرار المعتدلين في آرائهم من أهل الغرب الذين وقفوا من هذا العدوان موقف الصريحة . وقد عاش ثلاثتهم في القرن الثالث عشر ، وهو القرن الذي شاهد الفكرة الصليبية وهي تلفظ آخر أنفاسها ، ويمثل كل منهم قطاعاً عاماً من قطاعات المجتمع الغربي وقتها .

أولهم من رجال الفكر والقلم ، وهو الشاعر الفرنسي ولیم رتبوف ..  
وثانيهم من رجال الدين والكهنوت : زهو الكاهن الانجليزى متى الباريزى  
وثالثهم من رجال الحكم والسياسة ، وهو الامبراطور الألماني فردريك الثانى ،  
حفيد الامبراطور فردريك بارباروسا أحد زعماء الحملة الصليبية الثالثة ..

عاصر الشاعر ولیم رتبوف (١٢٤٥ - ١٢٨٥ م) أحداث تلك الفترة من الزمن . ووضع قصيدة طويلة باللغة الفرنسية القديمة ، يسخر فيها من الجهاز البابوى في الغرب الذى جعل من العدوان الصليبي وسيلة لابتزاز الأموال وتحقيق أطماعه البعيدة في العالم العربي . ومما قاله إذا إنه كان الله موجوداً في كل مكان من العالم ، فلاشك أنه موجود في ايطاليا وفي انجلترا وفي ألمانيا وفي فرنسا وفي غيرها من بلدان الغرب . وعلى هذا ليس هناك داع للبحث عنه في الأراضي المقدسة فيما وراء البحار . وكأن لسان حاله يقول : «لماذا يلهث الغربيون وراء الله في أرض غريبة عنهم تفصل بينهم وبينها آلاف الأميال ، في حين أنه بوسعهم الاتصال بالله في ديارهم والعيش في نعمة ويسر وسلام ، إذا كان هذا في الحقيقة هو الهدف الذى يسعون إليه . فإن الحصول على رضا الله وغفرانه لا يستدعى بالضرورة التوجه إلى قبره في فلسطين» . وهكذا يكشف الشاعر بطريق غير مباشر عن حقيقة العدوان الصليبي الذى لا يمت إلى الدين بصلة ، ولو أنه اتخذ من الدين قناعاً لتغطية أهدافه ، في عصر كانت

فيه الظروف والأوضاع في الغرب مهياة لذلك . ويستمر الشاعر في نقده اللاذع للفكرة الصليبية بكل ما تنطوى عليه من أحتقاد وأطماع ، معبراً عما كان يجيش في صدور الملايين من أهل الغرب اللاتيني .

أما الكاهن متى الباريزي فهو الآخر من كبار كتاب القرن الثالث عشر . وقد وضع مؤلفين باللاتينية ، هما «التاريخ الكبير» و «تاريخ انجلترا» . وفي كتابه الثاني يتهمهم تهكماً مريراً على الجهاز الكنسي البابوي ، ويهاجم الفكرة الصليبية هجوماً صريحاً مكشوفاً . ومن أقواله الماثورة : «لم يكن يعنى البابا الدعوة إلى حملة صليبية إلا بالقدر الذي يخدم أطماعه ، ويحقق مصالحه العلمانية» ويقول في موضع آخر من الكتاب : «لقد اقتنى البابا ، وهو أبونا الروحي ، خطي الامبراطور قسطنطين الكبير ، وكان الأولى به أن يحذو حذو القديس بطرس ، ولهذا سبب الكثير من القلاقل والاضطرابات في العالم» . ويقصد بذلك أن الكوارث والحن التي شهدتها العالم وقتذاك كانت بسبب انغماس البابوية في الشئون الدنيوية ودخولها في صراع عنيف مع القوى العلمانية وعلى رأسها الامبراطورية . وقد يبدو هذا مستغرباً في تلك العصور التي كان فيها للدين مكانة كبيرة في المجتمع الغربي الوسيط ، خاصة وأن هذا الهجوم ضد الفكرة الصليبية والنظام الكنسي قد صدر عن رجل دين يعرف جيداً خبايا هذا النظام ومساوئه ومواطن الضعف فيه . ولكن كان لدى متى الباريزي من الجرأة والشجاعة ما يكفي لقول الحق في تلك العصور التي عاش فيها الفرد في الغرب داخل دائرة ضيقة مغلقة لم يكن من السهل الافلات منها ، وإن كانت تبشير عصر جديد قد بدأت تلوح في الأفق .

أما ثالث هؤلاء فهو الامبراطور الألماني فردريك الثاني (١٢١٥-١٢٥٠م) كان من أعجب شخصيات العصور الوسطى ، حتى لقد نعته المعاصرون

له بأعجوبة الدنيا . نشأ في صقلية ، وقسم أملاكه فيما وراء الألب بين أبنائه ، واستقر هو في الجنوب الايطالى حيث تأثر بالثقافة المتحررة الموجودة هناك ، وهى ثقافة متنوعة المصادر والأصول ، امتزج فيها اليونانى والرومانى القديم بالتراث البيزنطى بالحضارة العربية . كان واسع العلم والثقافة ، كثير الاطلاع ، يجيد عدة لغات من بينها العربية . وامتاز بتحرره من سلطان الكنيسة اللاتينية وقيودها . كان معجباً بالعرب وعلومهم وعاداتهم وأخلاقهم وكان على صداقة متينة مع عدد منهم ، مثل الكامل محمد سلطان مصر الأيوبي وابنه الصالح نجم الدين أيوب . وامتاز بروح التسامح ، واحترام جميع الأديان . وكان بلاطه موثلاً للعلماء المسلمين والمسيحيين على السواء . وكثيراً ما كان يجتمع بمفكرى الاسلام ، كما كان على صلة بتلامذة ابن رشد والمفكرين في العالم العربى . وتروى المصادر العربية أنه كثيراً ما كان يتصل بالعلماء في مصر وسورية وغيرهما من البلدان ، إذا ما واجهه مشكل في الرياضة والعلوم . لكل هذا كان العرب في المشرق وفي صقلية وجنوب ايطاليا يكون له كل تبحر واحترام ، حتى لقد اعتبره كثير من المؤرخين العرب ، مثل أبو الفداء العيني ، أنه أميل إلى الاسلام منه إلى النصرانية ، وأنه كان يؤثر القرآن على الانجيل . بينما اضطهدته الكنيسة اللاتينية وأصدرت ضده قرار الحرمان الكنسى أكثر من مرة ، متهمة إياه بالهرطقة والخروج على الدين . وباختصار ، لم يكن الامبراطور فردريك الثانى كاثوليكياً متعصباً ولا صليبياً ضيق الأفق ، وذلك على عكس ما سبقوه ومن جاءوا بعده من الحكام والقادة الغربيين في عصر التوسع الصليبي .

لقد عبر هؤلاء عن موقف ذوى العقل والتعقل تعبيراً دقيقاً صادقاً في تلك العصور ، حيث بدأت الأنظمة القديمة التى ارتكز عليها العالم الوسيط



فى الدين والسياسة والحرب والاقتصاد والفكر فى التداعى لتحل محلها مثل وأنظمة أخرى مغايرة تؤذن بقيام عصر جديد له مفاهيم جديدة تتمشى مع الظروف والأوضاع التى طرأت على العالم وقتذاك . وقد وجد إلى جانب هؤلاء كثيرون ممن فهموا الأمور على حقيقتها ، ومن أخذوا ينددون بفكرة الحروب الصليبية . وساعد على ذلك نمو المدن والقوميات ، و ظهور شخصية الفرد ، واتساع المدارك والآفاق ، وتطور الحركة الفكرية ، ونشأة الجامعات التى خرج من بين جذرائها الكثير من الشباب المثقف المستنير .

وكيفما كان الأمر ، ومهما كانت الدوافع والأسباب التى حدث بأهل الغرب من مختلف الطوائف والفئات والأجناس ، إلى معارضة العدوان الصليبي والتشكيك فيه ، فلاشك أن وجود هذا التيار المعارض فى قلب العالم الغربى ، وازدياده وتضاعفه ، أمر له دلالة ومغزاه . وسواء أكان هذا الشعور المعارض من جانب الغربيين تجاه العدوان لأسباب تتعلق بشئونهم الخاصة ومصالحهم الذاتية داخل بلادهم ، أم لعدم إيمانهم أساساً بالفكرة الصليبية ، خاصة بعد أن تأكدت أبعادها الخطيرة ، وما جلبته عليهم من كوارث ، ونكبات — فانه يكشف عن وجود رأى عام معاد للحرب ضد العرب كان يسرى كالتيار فى الغرب . وغير خاف أن هذا كان سنداً قوياً لموقف العرب ولقضيتهم العادلة فى عصر التوسع الصليبي ، لا يمكن إغفاله أو التهوين من شأنه ، وكان عاملاً له أثره فى تقويض مستعمرة الغزاة فى العالم العربى ، فى وقت كان فيه ميزان القوى فى المنطقة قد اعتدل لصالح العرب ، وفى وقت أصبح فيه العرب فى مركز القوة بعد أن اتفقت كلمتهم وتوحدت جبهتهم ، مما كان له أكبر الأثر فى رد العدوان وردع المعتدين .

البحث الثالث  
علاقات مصر بالمالك التجارية الإيطالية  
في ضوء وثائق «صبح الأعشى»

بحث في مؤلف «ابو العباس القلقشندي وكتابه صبح الاعشى» - نشر  
وزارة الثقافة بجمهورية مصر العربية في سلسلة «المكتبة العربية» - العدد ١٣٨  
القاهرة (مصر) ١٩٧٣ - ص ١٤٧ - ٢٠٠ .



عاصر أبو العباس أحمد القلقشندي فترة تغير وانتقال شهدها العالم المعروف وقتذاك . إذ ولد بمصر سنة ٧٥٦ هـ (١٣٥٥ م) وتوفي في ٨٢١ هـ (١٤١٨ م) عن ٥٦ سنة ، بعد حياة حافلة أمضاها في العلم والعمل والدراسة والتأليف . وأسهم التحاقه بديوان الإنشاء بمصر سنة ٧٩١ هـ (١٣٨٩ م) ، فضلا عن تنقلاته وجولاته وأسفاره العديدة في البلاد الخاضعة لحكم المماليك ، مساهمة واضحة يبدو أثرها فيما أثرى به المكتبة العربية من مؤلفات قيمة تناولت شتى الموضوعات . ومن أهمها ، إن لم يكن أهمها على الإطلاق ، كتابه المعروف باسم «صبح الأعشى في صناعة الإنشاء» (١) .

عاصر القلقشندي نهاية العصور الوسطى يمثلها ومبادئها ونظمها وتقاليدها وبداية عصر جديد له أوضاع ومفاهيم جديدة مغايرة . إذ عاش مع الانقلابات والانقضاضات الهائلة التي اهتز لها كيان العالم الوسيط من أساسه في الفكر والسياسة والاقتصاد والحرب . فلم يكن هناك شيء ثابت على حاله ، بل كان كل شيء في تغير دائم مستمر . ولقد شمل هذا التغير شتى مرافق الحياة ومختلف أوجه النشاط في المجتمع الإنساني . عاش في عصر كانت فيه الدماء الساخنة تجري في العروق معلنة انتهاء عصر وبزوغ فجر جديد (٢) . تحدث

Encyclopédie de l'Islam, t. II (Leyde & Paris, 1927), 742-3; Ronart, (١) S. & N., Concise Encyclopaedia of Arabic Civilization : The Arab East (Amsterdam, 1959), 432.

وللمزيد من التفاصيل عن القلقشندي وسيرته ومؤلفاته ، أنظر السخاوي : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ج ٢ (القاهرة ١٣٥٤ هـ) ص ٨ ، ابن العباد شذرات الذهب في أخبار من ذهب - ج ٧ (القاهرة ١٣٥١ هـ) ص ١٤٩ ، راجع أيضا كلمة محمد عبد الرسول في كتاب «صبح الأعشى» - ج ١ (القاهرة ١٩١٣) ص ١٩ - ٢٤ .

(٢) أنظر عن ذلك :

Le Goff, J., La Civilisation de l'Occident Médiéval

(Paris, 1965), 445 ff. ; Waugh, W., T., A History of Europe from 1378 to 1949 (London, 1932), 1-9; Huizinga, J., The Waning of the Middle Ages (London, 1955), 9 ff., 153 ff., 228 ff.

عن القاهرة ، عاصمة المصريين ، وهى فى أوج قوتها وعظمتها فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر ؛ «فهى أم الممالك ، حاضرة البلاد ، دار الخلافة كرمى الملك ، منبع الحكماء ، ومحط الرجال» كما أشار إلى سلاطين الممالك الذين تربعوا على عرشها فى عصره (١) . وإن كان قد تحدث عن مصر ، وحكامها ، فلم يغفل الغرب وأحواله . فقد كانت الدول والممالك الإيطالية ، وبخاصة البحرية منها المشتغلة بالتجارة ، قد سبقت غيرها إلى عصر النهضة ، وازدادت صلاتها بمصر قوة ورسوخاً . فتردد الرسل والمبعوثون والسفار بينها وبين مصر ، وعقدت المهادنات ، وتواترت المكاتبات ، وتوثقت العلاقات الطيبة تدعياً للمصالح المشتركة . كذلك شاهد الفكرة الصليبية وهى تلفظ آخر أنفاسها فى أواخر القرن الرابع عشر ، بفشل حملة بطرس الأول لوسنيان حاكم قبرص اللاتينى على الإسكندرية سنة ٧٦٧ هـ (١٣٦٥ م) ، وكان ذلك فى عهد السلطان المملوكى الأشرف شعبان (٢) .

وإن دل هذا على شئء فعلى أن الفكرة الصليبية لم يعد لها مكان فى مجتمع القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، بعد أن انصرف الناس فى غرب أوروبا

---

(١) صبح الأعشى - ج ٣ (القاهرة ١٩١٤) ص ٣٦٧ . أنظر أيضاً صفحات ٢٧٨ - ٢٨١ و ٤٣١ و ٤٣٧ - ٤٣٨ من الجزء نفسه .

(٢) صبح الأعشى - ج ٤ (القاهرة ١٩١٤) ص ٢٤ ، وج ٨ ( القاهرة ١٩١٥ ) ص ١١١ - ١١٥ . وللمزيد من المعلومات عن حملة لوسنيان على الاسكندرية ، أنظر :

Atiya, A. S., The Crusade in the Later Middle Ages ( London, 1938), 345—78; idem, Crusade, Commerce and Culture (Bloomington, 1962), 102—4.

هذا وفقاً لحكم بطرس لوسنيان قبرص فى الفترة من سنة ١٣٥٩ م إلى سنة ١٣٦٩ م ، أم الأشرف شعبان سلطان مصر . فهو حفيد الملك الناصر محمد . وقد تولى الحكم لمدة ١٤ سنة (٧٦٤ - ٧٧٨ هـ / ١٣٦٣ - ١٣٧٧ م) ومات مقتولاً .

عنها إلى مصالحهم الخاصة ومشكلاتهم الداخلية . كما يدل على أن المجتمع الغربي بدأ ينبذ سياسة الحديد والنار ، ويتجه اتجاهاً مخالفاً لما كان سائداً في عصر التوسع الصليبي ، وذلك بازدياد التلاحم بينه وبين الشرق الأدنى الإسلامى بعامه ومصر بصفة خاصة . وقد تمثل ذلك فى العلاقات الطيبة التى قامت بين مصر وبين الدول التجارية الإيطالية ، وعلى رأسها البندقية وجنوة وبيزه ، والتي يمدنا كتاب «صبح الأعشى» بمعلومات عنها على جانب كبير من الأهمية تسد فجوة كبيرة فيما نحن بصددده (١) .

وغنى عن القول أن هذا الكتاب يعتبر بالنسبة للأمة العربية والعالم المحيط بها المتعامل معها ، دائرة معارف فى شتى النواحي الأدبية والتاريخية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعسكرية والفكرية والفلسفية . وعلى الرغم من فوات مئات السنين على وفاة مؤلفه ، فالكتاب لا يزال حتى اليوم مصدراً أساسياً يرجع إليه طلاب العلم والمعرفة فى الشرق والغرب على السواء فى كثير من المعارف والعلوم ، فضلاً عن أهميته بالنسبة للعلاقات بين شتى العالم فى فترة من أدق فترات التاريخ ... وعلى الرغم من الدراسات التى صدرت عنه وعن مؤلفه ، لا يزال «صبح الأعشى» كنزاً مغلقاً على ما يحتويه من نفائس ، منجماً لم يستغل بعد الاستغلال الكافى ، ومعيناً لا ينضب للباحث فى الأفرع التى أشرنا إليها .

ويمتاز القلقشندى بأنه مصدر ثقة فيما يكتب ، وبخاصة الفترة التى عاصرها وشاهد أحداثها . والمتصفح للكتاب يدرك على الفور أن صاحبه رجع إلى

---

(١) تضمنت وثائق «صبح الأعشى» الخاصة بالمكاتبات والمراسلات والمهادنات وعقود الأمان بين مصر والممالك التجارية الإيطالية الكثير من المعلومات الهامة التى لم تتعرض لها المراجع الأجنبية .

عشرات المصادر العربية والأجنبية التي استقى منها معلوماته ، وقد فقد بعضها ولم يصلنا ، فحفظ لنا مادته من العبث والضياح .

وإذا نظرنا إلى الكتاب نظرة مدققة فاحصة ، عريضة شاملة ، فسوف نجد أن مؤلفه يتبع منهاجاً علمياً واضحاً يقوم على وحدة الفكرة من ناحية ، وعلى أسلوب التفريغ داخل إطار محدد مرسوم من ناحية أخرى . فهو ينقسم إلى عشر مقالات تسبقها مقدمة وتلحق بها خاتمة . وقد ركز المؤلف في المقالة الأولى على التعريف بصناعة الإنشاء وكل ما يتعلق بها لتكون المدخل إلى باقي المقالات التي أبان فيها أهمية معرفة المسالك والممالك ، والدول والبلدان التي لها علاقات بمصر ، كما أشار إلى منتجاتها وصادراتها ووارداتها ، وذكر المكاتبات المتبادلة بينها وبين مصر بما في ذلك كتب الأمان والمهادنات وعقود الصلح . كل هذا يكشف عن ثقافة القلقشندى المتكاملة في النواحي الجغرافية والتاريخية والسياسية والاقتصادية ، فضلاً عن مكانته المعروفة في الناحية الأدبية (١) .

وبين ثانياً أجزاء «صبح الأعشى» نجد المادة التي تهمننا ؛ الخاصة بالعلاقات بين مصر والممالك التجارية الإيطالية — مبعثرة هنا وهناك ؛ وهي تلقى ضوءاً واضحاً على طبيعة هذه العلاقات وماهيتها . وترجع المادة التي زودنا بها القلقشندى إلى العصرين الأيوبي والمملوكي ، وإن كان الجانب الأكبر منها يتعلق بعصر القلقشندى نفسه ، أي النصف الثاني من القرن الرابع عشر والسنوات الأولى من القرن الخامس عشر . ومن هنا جاءت قيمتها التاريخية باعتبار أن صاحبها كان معاصراً لها وشاهد عيان لأحداث ذلك الزمان

(١) أنظر كتاب الدكتور عبد الطيف حمزة وعنوانه «القلقشندى في كتابه صبح الأعشى عرض وتحليل» القاهرة ١٩٦٢ (مجموعة أعلام العرب - العدد رقم ١٢) .

بحكم عمله في ديوان الإنشاء بمصر ، الذي أتاح له فرصة التعرف على كل ما يختص بتلك العلاقات والاطلاع على وثائقها ومستنداتها . وثمة ملاحظة أخرى هي تلك المادة التي تلازم زمنياً عصر التوسع الصليبي ضد العالم الإسلامي : ومن هنا جاءت العلاقات بين مصر والممالك التجارية الإيطالية معبرة عن طبيعة ذلك العصر أصدق تعبير . فهي تكشف عن وجود علاقات اقتصادية بين مصر والجاليات التجارية الإيطالية داخل نطاق النزاع الديني .

وكيفما كان الأمر ، نستدل من وثائق «صبح الأعشى» أن الدول التجارية الإيطالية التي كانت لها علاقات بمصر وقتذاك هي على التوالي : البندقية وجنوة وبيزّه . وقد قامت علاقاتها مع مصر على أساس تجارى بحت . ولنضف ذلك بحسن أن نعود قليلاً إلى الوراء لنلقى نظرة عاجلة على الظروف التي مر بها الغرب منذ بداية العصر الوسيط حتى عصر التوسع الصليبي .

في أواخر القرن الخامس الميلادي سقطت الإمبراطورية الرومانية القديمة أثر غزوات البرابرة عليها . وقامت على أنقاضها في الغرب ممالك جديدة لها أنظمة وحضارة جديدة مغايرة (١) . وبسقوطها تندهور حياة المدينة باقتصادها النقدي ونشاطها التجارى المعروف الذى كان محوره البحر المتوسط ، لتبدأ البنور الأولى لعصر الإقطاع الذى ساد الغرب طوال العصر الوسيط الأول ؛ والإقطاع يقوم أساساً على الأرض وفلاحتها وماتغله من خيرات . وكانت حضارته حضارة زراعية ريفية لانعرف التجارة أو الصناعة إلا في أضيق

La Monte, J. L., The World of the Middle Ages (New York, 1949) (١) 36—50, 70—3, 152—3; Sullivan, R. E., Heirs of the Roman Empire (New York, 1960), 10, 12—3, 17, 31, 37—42 48—50, 63—6; 73; 101; 104; Katz, S., The Decline of Rome and the Rise of Mediaeval Europe (New York, 1960), 88—9, 91—2, 99, 100, 104—5, 108—10, 112, 114—5 118; 135.



الحدود (١) . وساعد على ذلك أن أوروبا كانت في القرون الأولى من تلك العصور مسرحاً لأحداث سياسية خطيرة لم تساعد على نمو التجارة ونهوضها من كبوتها ، نذكر منها غزوات البرابرة التي أوجدت حالة واضحة من الفوضى والاضطراب في كافة أرجاء الغرب ، ثم حركة الفتح العربي وما ترتب عليها من سيطرة الإسلام على البحر الأبيض المتوسط الذي أصبح بحيرة إسلامية بعد أن كان بحراً رومانياً (٢) . ثم تصدع إمبراطورية شارلمان وتفككها بعد موته ، بالإضافة إلى عوامل أخرى عديدة. ونتج عن كل هذا توقف الحياة الاقتصادية في العالم الغربي وإصابتها بشلل حاد لقرون طويلة . وأصبحت حركة التجارة محدودة غير نشطة لاتتعدى تبادل السلع الزائدة عن الحاجة (٣) .

(١) هارتمان (د.م.) وباراآلاف (ج.) : الدولة والإمبراطورية في العصور الوسطى - ترجمة وتعليق د. جوزيف نسيم يوسف (الاسكندرية ١٩٦٦) - ص ١٥ وما بعدها و ١٠٣ وما بعدها . انظر أيضا :

Pirenne, H., *Medieval Cities* trans. from the French by F.D. Halsey (New York, 1948), 43 ff.; Pirenne, H., Cohen, G. & Focillon, H., *La Civilisation Occidentale au Moyen Age du XIe au milieu du XVe siècle* (Paris, 1941), 7 ff.

Pirenne, H., *Economic and Social History of Medieval Europe* (٢) (London, 1961, 2-3, 40-1; idem, *Med. Cities*, 15-6.

انظر أيضا لويس (أرشبالد) : القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط (٥٠٠ - ١١٠٠ م) - ترجمة أحمد محمد عيسى - (القاهرة ١٩٦٠) ص ٨ وما بعدها و ٨٧ وما بعدها و ٢١١ وما بعدها .

(٣) كولتون (ج.ج.) : عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة - ترجمة وتعليق د.

جوزيف نسيم يوسف - ط. ثانية (الاسكندرية ١٩٦٧) - ص ٢٨٨ - ٢٨٩ ، لوين (ر.) : التأثيرات الشريفة والنهضة الاقتصادية في الغرب - ترجمة توفيق اسكندر في كتاب يشتمل على خمسة بحوث مترجمة باسم «بحوث في التاريخ الاقتصادي» (القاهرة ١٩٦١) - ص ١٤٤ و ١٧١ . انظر أيضا :

Stephenson, C., *Medieval Feudalism* (New York, 1942), 97-8.

وللمزيد من المعلومات عن التجارة بين الشرق والغرب في العصور الوسطى المبكرة ، وبخاصة في القرون : الثامن والتاسع والعاشر ، انظر :

Lopez, R.S. & Raymond, I.W. (trans.),

*Medieval Trade in the Mediterranean World* (New York, 1955), 19-41.

كان هذا الوضع السائد في الغرب حتى أوائل القرن الحادى عشر عندما بدأت المدن الجديدة فى الظهور ، بينما أخذ الإقطاع فى الإنهيار والزوال : ويعتبر ظهور المدن من الأمور البالغة الأهمية ؛ إذ أسهم فى زلزلة بقايا النظام الإقطاعى ومهد لقيام مجتمع جديد وحضارة جديدة أساسها التجارة والصناعة وكان هذا النشاط بمثابة انقلاب اقتصادى كبير من أبرز نتائجه التوسع فى نظام الأجر النقدى وابتداع العملات بدلا من نظم الخدمة الإقطاعية التى كانت سائدة من قبل (١) .

وكان للعامل الجغرافى أثره الكبير فى تطور بعض المدن الغربية وأزدهار التجارة بها ، من ذلك المدن البحرية الإيطالية ، وعلى رأسها : البندقية وجنوة وبیزه التى استمدت أهميتها من موقعها على البحر المتوسط الذى كان محور نشاطها ، والذى جعل منها حلقة اتصال بين الشرق والغرب (٢) . وساعد على قيامها بهذا الدور الاحتياجات المتبادلة بين شتى العالم وقتذاك . فقد كان لمنتجات الشرق بصفة عامة ومصر بصفة خاصة أهمية كبيرة بالنسبة للغرب الأوروبى . ومن أهم السلع التى كان الغرب فى حاجة إليها التوابل والبهارات لحفظ المأكولات سليمة ولصناعة الأدوية والعقاقير ، فضلا عن السكر والعمور والبخور والعاج والأحجار الكريمة والخامات الأولية اللازمة لصناعة النسيج كالقطن . كذلك كان الشرق فى حاجة إلى بعض الخامات الغربية التى لم تكن متوفرة عنده مثل : الأخشاب والمعادن كالححاس والحديد .

---

Pirenne, Med. Cities, 58 f.; idem, Economic and Social Hist., (١)  
42 f., 116 ff., 169.

أنظر أيضا مفورد (لويس) : المدينة على مر العصور « أصلها وتطورها ومنقبتها » إشراف ومراجعة الدكتور إبراهيم نصعى - ج ٢ (القاهرة ١٩٦٤) ص ٤٧٢ وما يليه .

(٢) توفيق اسكندر : بحوث فى التاريخ الاقتصادى - مقالة لوبيز « أثر الشرق فى نهضة الغرب الاقتصادية » ص ١٧٥ - ١٧٦ .

وكانت تلك المدن البحرية تقوم بعملية تصدير واستيراد هذه السلع تلبية لتلك الاحتياجات المتبادلة بين شتى العالم ، وتجنّى من وراء ذلك أرباحاً هائلة (١) .

والبنديقية بالذات تاريخ بحرى مجيد أنفردت به عن غيرها من دول الغرب الأوروبي مثلما أنفردت به عن زميلتها جنوة وبيزه (٢) . فهي مدينة ممتدة على المستنقعات والبحيرات . ويكشف موقعها الجغرافى عن عظمتها البحرية والتجارية (٣) . إذ تقع على رأس البحر الأدرياتي (٤) ، الذى كان يعتبر على حد قول الكاتبة إيلين بور E. Power أعظم طريق بحرى لتجارة العصر الوسيط . ثم هى فى موقع متوسط بين الشرق والغرب ، فضلاً عن كونها ميناء من موانئ البحر المتوسط . ويكاد هذا الميناء أن يكون فى قلب أوروبا لوقوعه فى أقصى الطرف الشمالى . كل هذا أكسبها ميزات حسبتها عليها كثير من بلدان أوروبا ، ففيها كان يرسو التجار الوافدون من الثغور المصرية : كالإسكندرية ودمياط وغيرها من موانئ شرق البحر المتوسط ، ومن بلاد الشرق الأقصى ، ومعهم الأنسجة الحريرية والتوابل والكافور والعاج واللؤلؤ والعمود والطنافس وغيرها . ومن البنديقية كانت هذه البضائع تنقل إلى ألمانيا وفرنسا وإنجلترا والأراضى الواطئة وغيرها من بلدان الغرب (٥) .

(١) أنظر ديل (شارل) : البنديقية جمهورية أرستقراطية - ترجمة الدكتور أحمد عزت عبد الكريم والأستاذ توفيق أسكندر (القاهرة ١٩٤٨) ص ٢٠ و ٣٥ و ٣٦ و ٥٩ .

(٢) ديل : البنديقية جمهورية أرستقراطية - ص ٧ .

Cf., Pirenne, Med. Cities, 59. (٣)

ويمدنا القلقشندى بمعلومات طيبة عن المدينة وسكانها وقاعدة ملكها وأطوالها وسبب تسميتها بهذا الاسم وحكامها وعملتها وأهم منتجاتها وأعمالها . أنظر صبح الأعشى - ج ٥ (القاهرة ١٩١٥) ص ٤٠٤ . راجع أيضاً

Pirenne, Cohen & Focillon, op. cit., 21.

(٤) يقال له أيضاً بحر أدريا أو خليج البنديقية . أنظر محمد أمين الخانجي : منجم الممران فى المستدرك على معجم البلدان - ج ١ (القاهرة ١٩٠٧) ص ١٧٤ .

Power, E., Medieval People (London, 1954), 34—5. (٥)

ويمدنا القلقشندى بمعلومات طيبة عن البندقية وأهلها وصاحبها وألقابها ، وهو يطلق عليها «مملكة البنادقة» معتبراً إياها من ممالك الفرنج الكبار الواقعة ما بين الخليج القسطنطينى وجزيرة الأندلس (١) . فهى تقع على الخليج المعروف باسم «جون البنادقة» فى الركن الشرقى من سهل لمبارديا (٢) . ويعرف سكانها باسم «البنادقة» نسبة إلى المدينة نفسها ، «وهم طائفة مشهورة من الفرنج» . (٣) كما يعرف حاكمها ومتولى أمرها باسم «ملك البندقية» (٤) والملك عندهم هو الدوق . ويزيد القلقشندى الأمر وضوحاً فيردد أكثر من مرة «أن الملك اسمه عندهم دوك» (٥) ؛ ولذلك يقال له «دوك البندقية» (٦)

(١) صبح الأعشى - ج ٥ - ص ٤٠٤ . ومن الكتب القيمة عن البندقية كتاب أوجست

باي

Bailly, A., La Sérénissime République de Venise, Paris, 1946.

فقد أشار إلى موقف البندقية من الحركة الصليبية فى القرن الثانى عشر الميلادى (ص ٦٨ وما بعدها) ، والصراع من أجل بضائع الشرق الأدنى الاسلامى ، وكذلك التنافس بينها وبين جنوة (ص ١١٦ وما بعدها) .

(٢) صبح الأعشى - ج ٣ - ص ٢٣٤ . ويطلق الأدريسى على «جون البنادقة» اسم «البنادق» و «خليج البنادقين» . أنظر : نزهة المشتاق فى ذكر الأمصار والأقطار والبلدان والجزر والمدائن والآفاق (طبع روما سنة ١٨٧٨) - تحقيق أمارى - ص ١١ . راجع أيضاً ديل : البندقية جمهورية أرستقراطية - ص ٩٠٧ .

(٣) صبح الأعشى - ج ٥ - ص ٤٠٤ و ج ١٣ (الناشرة ٩١٨) : ص ٨٨ . وتتفق المصادر الاسلامية على تسميتهم بهذا الاسم .

(٤) صبح الأعشى - ج ٥ - ص ٤٠٤ و ٤٨٥ .

(٥) صبح الأعشى - ج ٣ - ص ٤٣٧ . ويقول القلقشندى : إن «ملكهم من أنفسهم يقال له الدوك» . أنظر صبح الأعشى - ج ٥ - ص ٤٠٤ . وفى موضع آخر يقول : وكل من ملك منهم يسمونه دوك بالكاف المشوبة بالجيم فيقال «دوك البندقية» ، وهذا اللقب جار على ملوكهم إلى آخر وقت . «انظر صبح الأعشى - ج ٥ - ص ٤٨٥ . ولكن القلقشندى يعود فيناقض نفسه عندما يذكر أن الدوك غير الملك . وهذا غير صحيح ، فالمعروف أن الدوك عندهم بمثابة الملك . أنظر صبح الأعشى - ج ٨ - ص ٤٨ .

(٦) صبح الأعشى - ج ٥ - ص ٤٨٥ .

أو «دوقس البنادقة» (١) ، أو «دوج البندقية» (٢) ، الذى كان يعتبر رمز عظمة البندقية (٣) . وهذه التسمية الأخيرة هي أكثرها شيوعاً في المراجع الحديثة من عربية وأجنبية . أما تعريفه في ديوان الإنشاء بمصر فهو «صاحب البندقية» (٤) .

ولقد حرصت البندقية على إقامة علاقات طيبة مع مصر ودول الشرق الأدنى الإسلامى قبل قيام الحركة الصليبية . وحصلت هي وغيرها من الجاليات البحرية الإيطالية على امتيازات تجارية واسعة من الخلفاء الفاطميين بمصر (٥) وأثرت من وراء ذلك ثراء كبيراً . وكان إسهامها في الحملات الصليبية التي اندلعت في أواخر القرن الحادى عشر نتيجة طبيعية لسياستها الاقتصادية . ولكن هذه الحملات ، وإن اتسمت بميسم العنف ، إلا أنها مع ذلك دفعت التجارة النامية في أوروبا الغربية دفعة كبرى إلى الأمام (٦) . إذ أدى الاحتكاك الحربى بين الغرب الأوروبى والشرق الأدنى الإسلامى إلى احتكاك تجارى

---

(١) صبح الأعشى - ج ٥ - ص ٤٠١ و ٤٠٢ .

(٢) صبح الأعشى - ج ٨ - ص ٤٧ .

(٣) أنظر ديل : البندقية جمهورية أرستقراطية - ص ٨٥ وما بعدها .

(٤) أورد القلقشندى هذا التعريف عند حديثه عن المكاتب إلى «صاحب البندقية» أنظر صبح

الأعشى - ج ٨ - ص ٤٧ .

(٥) أنظر Pirenne, Med. Cities, 61. هذا ويشغل حكم الفاطميين لمصر الفترة من

سنة ٣٥٨ إلى سنة ٥٦٧ هـ (٩٦٩ - ١١٧١ م) ، وقد انتعشت العلاقات التجارية بين البندقية ومصر الفاطمية خلال القرن الحادى عشر ، وهو القرن السابق لقيام الحركة الصليبية .

(٦) كوتلون : عالم المصور الوسطى في النظم والحضارة (الترجمة العربية) ص ٢٠٢ ، ديل :

البندقية جمهورية أرستقراطية - ص ٣٠ ، أنظر أيضا كتاب الدكتور عزيز سوريال عطية عن

الحرب الصليبية والتجارة والثقافة ، 162 ff. Atiya, Crusade, Commerce and Culture, 162 ff.

هذا ، ويرى لوبيز أن الحروب الصليبية كانت خاتمة أكثر منها بداية ، وأن النهضة الاقتصادية في الغرب كانت سببا لها أكثر مما هي نتيجة لها . أنظر توفيق اسكندر : بحوث في التاريخ الاقتصادى

ص ١٧٤ .

يتمثل في تبادل السلع والبضائع بينهما . وهذا يعني أن العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب لم تنقطع حتى في وقت الحروب الصليبية (١) .

وكان لأهل البندقية دور ملموس في هذا المضمار . فأسهموا بسفنهم وأساطيلهم في نقل الجند والعتاد والمهمات من موانئ أوروبا إلى سواحل مصر والشام . كما أشرّكوا مع القوات الصليبية في الاستيلاء على الموانئ الشامية تحقيقاً لمصالحهم وأطماعهم التجارية في المنطقة . لقد كان هدف تجار البندقية استغلالاً بحث ، نظراً للكسب الكبير الذي يعود عليهم من السيطرة على الطرق التجارية للسلع الشرقية التي أصبحت مصر مصدر ثراء عريض للمشتغلين بها . فإن امتلاك مصر والشام حيث تنهى الطرق البحرية الرئيسية لهذه السلع كان حجر الزاوية في السيطرة على تجارتها (٢) .

لذلك قامت أساطيلهم بدور فعال في الاستيلاء على المراكز الرئيسية في الشام . فشاركوا في استيلاء اللاتين على بيت المقدس سنة ١٠٩٩ م ، كما كانوا عنصراً بارزاً في الحملات التي كانت مصر والشمال الأفريقي مسرحاً لها فيما بعد (٣) . ولم يقتصر التجار البنادقة على المساهمة في قيام الإمارات اللاتينية بالأراضي المقدسة ، بل امتد إلى العمل على الاحتفاظ بها أطول مدة ممكنة تمكيناً لمصالحهم وتثبيتاً لها (٤) . وقد تمثل ذلك في المعاهدات التي عقدت

---

(١) أنظر توفيق اسكندر : بحوث في التاريخ الاقتصادي - ص ١٧٥ .

(٢) Pirenne, Economic and Social Hist., 31; Grousset, R., The Sum of History, English version by A. & H. Temple Patterson (Oxford, 1951), 181.

أنظر أيضاً توفيق اسكندر : بحوث في التاريخ الاقتصادي - ص ١٧٦ (مقالة لوييز).

(٣) جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى - ط. ثانية (الاسكندرية ١٩٦٧) ص ٨٧ - ٨٨ .

(٤) Pirenne, Med. Cities, 64; Coulton, G.G., Medieval Panorama (٤) (New York, 1955), 320.

بينهم وبين حكام مملكة بيت المقدس اللاتين ، التي تضمنت امتيازات عديدة إقليمية ومالية وقضائية لصالح أولئك التجار (١) .

والخلاصة أن البنادقة وغيرهم من التجار الإيطاليين كانوا يجرون وراء مصالحهم حينما وجدت . فكانوا يشتركون مع الصليبيين إذا وجدوا في ذلك مصلحة لهم . ولكنهم سرعان ما يتحولون عنهم ويسارعون إلى التفاهم مع خصومهم المصريين وفقاً لما تمليه عليهم مصالحهم الخاصة . وهكذا كانت الحرب الصليبية مجرد ورقة يلعبون بها (٢) .

ويتضح هذا الموقف المتلون من تذكرة من إنشاء القاضي الفاضل بعث بها صلاح الدين الأيوبي مع رسول من قبله يدعى الأمير شمس الدين الخطيب إلى الخليفة العباسي المستضيء بالله . وتتناول التذكرة بإيجاز السنوات الأخيرة من الحكم الفاطمي لمصر وبداية الدولة الأيوبية . وفيها يعرض صلاح الدين عرضاً سريعاً لأعماله وفتوحاته وجهاده ضد كل من الفرنج بالشام وبقايا الفاطميين بمصر ، ثم موت نور الدين محمود سلطان حلب والشام ، ومحاولات صلاح الدين توحيد الجبهة الإسلامية المفككة في الشرق الأدنى لمواجهة الخطر الصليبي بالشام الذي كان قد أستفحل أمره وبات يهدد المسلمين بشر مستطير (٣) .

Pirenne, Economic and Social Hist., 30—3; Mahmud, S.F., (١)

The Story of Islam (Karachi, 1959), 135.

انظر أيضاً ديل : البندقية جمهورية أرستقراطية — ص ٢١ .

(٢) توفيق اسكندر : بحوث في التاريخ الاقتصادي (مقالة لوبيز) ص ١٧٦ .

(٣) لم يعدد القلقشندي تاريخ ارسال هذه التذكرة التي تتضمن عرضاً سريعاً لفتوحات صلاح الدين في اليمن والمغرب ، وأطالع الفرنج في مصر ، والفترة الأخيرة من حكم العائذ الفاطمي في عهد وزارة صلاح الدين والتي انتهت بموت العائذ وانتهاء الخلافة الفاطمية بمصر ، ثم موت نور الدين وأحوال الدولة النورية بد وفاته ، وموقف صلاح الدين من الصالح اسماعيل بن نور الدين ، ومحاولاته السيطرة على الشام ليوفر لجهاد ضد الفرنج وفي ختام التذكرة يطلب صلاح =

وكيفما كان الأمر ، فقد وردت في التذكرة إشارة واضحة إلى سياسة البنادقة حيال كل من صلاح الدين والصليبيين ، فيما يلي نصها :

«ومن هؤلاء البنادقة .... تارة لاتطاق ضراوة ضرهم ، ولاتنفأ شرارة شرهم ، وتارة يجهزون سفاراً يحتكمون على الإسلام في الأموال المحلوبة ، وتقصر عنهم يد الأحكام الموهوبة ، ومانهم الآن إلا من يجلب إلى بلدنا آلة قتالة وجهاده ، ويتقرب إليها بإهداء طرائف أعماله وبلاده ، وكلهم قد قررت معه المواصفة وانتظمت معه المسألة ، على مانريد ويكرهون ، ونؤثر ولا يؤثرون (١) » .

كان الصليبيون في هذا الوقت قد أسسوا إماراتهم الأربع في الأراضي المقدسة على حساب الضعف الذي انتاب الشرق الأدنى الإسلامي عند قيام الحركة الصليبية (٢) . فقد كانت الخلافة الفاطمية في طور الاختصار ، وتوشك على السقوط عند أول ضربة قوية توجه إليها (٣) . والتنافس على

---

الدين من الخليفة العباسي أن ينعم عليه بتقليد جامع لمصر والمغرب واليمن والشام وكل ما تشتمل عليه الولاية النورية. وعلى الرغم من أن القلقشندي لم يحدد تاريخ إرسال هذه التذكرة إلى الخليفة العباسي إلا أنه من المحتمل حسب تسلسل الأحداث أن تكون بعد سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٤ م) بقليل ، وهي السنة التي مات فيها السلطان نور الدين محمود وخلفه في الحكم ابنه الصالح اسماعيل . انظر نص التذكرة في صبح الأعشى - ج ١٣ - ص ٨١ - ٩٠ . وستتناولها بالدراسة والتحليل عند التدرّج للعلاقات بين جنوة ومصر في عهد صلاح الدين الأيوبي .

(١) صبح الأعشى - ج ١٣ - ص ٨٨ .

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق (بيروت ١٩٠٨) ص ٢٣٤ - ٢٣٥ .

(٣) ابن الأثير منتخبات من كتاب الكامل في التاريخ ، في «مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية - المؤرخون الشرقيون» ج ١ (طبع باريس ١٨٧٢) ص ٥٥٠ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - ج ٥ (القاهرة ١٩٣٥) ص ٣٣٨ و ٣٣٩ و ٣٤٥ - ٣٤٦ .



أشده بين كل من «أمورى» حاكم بيت المقدس اللاتينى ونور الدين محمود صاحب الشام على ملك مصر . وتوالت حملات كل منهما عليها فيما بين عامى ٥٥٨ و ٥٦٤ هـ (١١٦٣ - ١١٦٨ م) ، وقد انتهت بهزيمة الفرنج وانتصار جيش نور الدين بقيادة أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين الأيوبي (١) وكان القضاء على الخلافة الفاطمية وقيام دولة الأيوبيين بمصر إيذاناً ببداية بوادر اليقظة الإسلامية فى أواسط القرن السادس الهجرى (أواسط القرن الثانى عشر الميلادى) بعد أن أحس المسلمون بالخطر الجاثم الذى ، كان يهددهم ، وأخذوا يتكثرون لمواجهة ودفعه عن ديارهم (٢) .

فى ظل هذه الظروف كان البنادقة يساعدون الصليبيين بأساطيلهم ، فهم مسيحيون مثلهم ويتقاضون أجوراً على نقلهم هم ومهائهم عبر البحر إلى الشرق : ولكنهم كانوا فى الوقت نفسه يتقربون إلى السلطات المسئولة بمصر خشية ضياع المكاسب التى يجنونها من وراء التعامل معها . وهى سياسة ذات شقين متناقضين ولكنها على أية حال تتفق مع مصالحهم الخاصة التى كانت بالنسبة لهم فوق أى اعتبار .

---

(١) انظر عن ذلك ابن شداد : سيرة صلاح الدين الأيوبي (مصر ١٣١٧ هـ) ص ٢٨ - ٣٥ ، ابن الأثير : الكامل فى التاريخ فى مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية ج ١ - ص ٥٣٢ - ٥٤١ و ٥٤٦ - ٥٥١ و ٥٥٣ - ٥٥٨ . راجع أيضاً

Michel le Syrien, Extrait de la chronique de Michel le Syrien, ed. R.H.C.—Doc. Arm., I (Paris, 1896), 353—9; Guillaume de Tyr, *Historiarum in partibus transmarinis gestarum*, ed. R.H.C.—H. Occ., I (Paris, 1844), 890—1, 934, 945—6.

(٢) جوزيف نسم : الوعاة وحركات اليقظة العربية ابان العدوان الصليبي (الاسكندرية ١٩٦٧) ص ٢٦ و ٢٧ وما بعدها .

وتتأرجح العلاقات بين البندقية ومصر في العصر الأيوبي (١) بين التآزم والتصافي ، وهو العصر الذي تبلورت فيه حركة الإفاقة الإسلامية ، والذي شاهد بداية جهاد المسلمين ضد الفرنج في الأرض المقدسة بقصد إجلائهم عنها . ويستمر خلفاء صلاح الدين من بني أيوب ومن بعدهم المماليك البحرية في (٢) مصر في قتال الصليبيين ، إلى أن يتمكن السلطان الأشرف خليل (٣) سنة ٦٩٠ هـ (١٢٩١ م) من الاستيلاء على عكا ، وهي آخر معاقلهم الحصينة بالساحل الشامي . ولم تبق بعد ذلك، سوى بضعة جيوب مبعثرة على امتداد الساحل منها : صور وصيدا وحيفا ، سقطت تباعاً في أيدي المصريين في العام نفسه (٤) .

لم تمت الفكرة الصليبية تماماً بسقوط عكا في أواخر القرن الثالث عشر ، وإن كان ضياعها من الفرنج إيذاناً ببداية النهاية لعصر التوسع الصليبي ضد العالم الإسلامي . فكان المصريون يعلمون أن أهل الغرب اللاتيني سوف يقومون بمحاولات جديدة يائسة تستهدف تحقيق أحلامهم القديمة في المنطقة ، وأن البنادقة وغيرهم من الجاليات التجارية لن يتوانوا عن مساعداتهم مثلما فعلوا في الحملات المبكرة .

فبعد حوالى عام من سقوط عكا تم عقد هدنة يرجع تاريخها إلى صفر

---

(١) احتلت الدولة الأيوبية من تاريخ مصر ٨٠ سنة تقريباً ، فهي تبدأ حوالى سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) وتنتهى في سنة ٦٤٨ هـ (١٢٥٠ م) .

(٢) يشغل حكم المماليك البحرية لمصر الفترة من سنة ٦٤٨ هـ إلى سنة ٧٨٤ هـ (١٢٥٠ - ١٣٨٢ م) .

(٣) تولى الملك الأشرف خليل بن قلاوون الحكم لمدة ثلاث سنوات ، وقد انتهى حكمه سنة ٦٩٣ هـ (١٢٩٣ م) وقتل وسنه ٣٠ سنة .

(٤) أنظر عن ذلك ابن أبيك : كز الدر وجامع الفرر - مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٦٤٣ تاريخ - ج ٨ - ورقة ٣٢٠ - ٣٥ ، بالخرمة : قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر - مخطوط مصور بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٤١٠ تاريخ - ج ٣ قسم ١ - لوحة ٩٨٨ .

سنة ٦٩٢ هـ (١٢٩٢) بن الأشرف خليل وبين صاحب أرغونة (١) الفرنجي الذي كان مصافيا له . وقد تضمنت خاتمتها بنداً صريحاً يتعلق بالبندق وغيرهم من طوائف الفرنج الذين دأبوا على إلحاق الضرر بالديار المصرية والبلاد الشامية . وخلاصته أن على صاحب أرغونة - الذي كان على علاقة صداقة ومودة مع الأشرف خليل ، منع أولئك القوم ، عن قصد مصر والشام مستخدماً في ذلك كافة السبل ، حتى ولو أدى الأمر إلى قتالهم لصرفهم عما هم قادمون عليه .

ونص هذا الشرط الوارد بالهدنة المذكورة هو :

«... وعلى أن الملك دون حاكم (الريد أرغون) (٢) هو وأخواه وصهراؤه أصدقاء من يصادقون الملك الأشرف (خليل) وأولاده وأعداء من يعادهم من سائر الملوك الفرنجية وغير الملوك الفرنجية . وإن قصد الباب يرومية (٣) ، أو ملك من ملوك الفرنج ، متوجاً كان أو غير متوج كبيراً كان أو صغيراً ، أو من الجنوية ، أو من البنادقة ... مضرة بلاد الملك الأشرف ، بمحاربة أو أذية ، يمنعمهم الملك دون حاكم هو وأخواه وصهراؤه ويردونهم ، ويعمدون

---

(١) لظروف عديدة داخلية - منها موقف قشتالة في الشمال الأسباني من أرغونة ، اتجه حكام أرغونة وتقدموا إلى الخارج . فاهتموا بالتجارة ، وأقاموا صلات مع صقلية وإيطاليا والشرق الأدنى . كما كانوا يعتبرون أنفسهم حماة للرعايا المسيحيين في الشرق ، خاصة بعد سقوط آخر معاقل الصليبيين بالساحل الشامى في أيدي المماليك في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي .

(٢) المقصود بذلك السيد حاكم مملكة أرغونة ، وهو حينذاك خايمي الثاني Jaime II وقد حكم من سنة ١٢٩١ إلى سنة ١٣٢٧ م .

(٣) المقصود بابا روما رأس الجهاز الكنسي البابوي في الغرب الأوروبي . وقد تضمنت وثائق «صبيح الأعشى» إشارات عديدة تيمع عن بابوية روما وعلاقتها بمصر في عصر التوسع الصليبي

شوانيتهم (١) ومراكبتهم : ويقصدون بلادهم ، ويشغلونهم  
بنفوسهم عن قصد بلاد الملك الأشرف وموانيه وسواحلها وثغوره  
المذكورة وغير المذكورة ، ويقاثلونهم في البر والبحر بشوانيتهم  
وعمايرهم وفرسانهم وخيالتهم ورجالهم (٢) .

وإذا كانت البندقية - كما رأينا - قد مدت يد العون إلى الصليبيين  
تحقيقاً لمصالحها فحسب ، فقد امتنعت عن معاونتهم في كثير من الأحيان عندما  
كانت تجد أن مثل هذه المعاونة سوف تضر بمصالحها في مصر والشرق الأدنى  
الإسلامي ، وحتى لا توغر صدر السلطات المسئولة بمصر عليها . ونجسد  
مثالاً واضحاً لذلك في موقفها من حملة لويس التاسع الصليبية على  
مصر في أواسط القرن الثالث عشر الميلادي . فبينما كان الملك الفرنسي يستعد  
لهجومه على مصر في عهد السلطان الأيوبي الصالح نجم الدين ، أجرى اتصالات  
مع الدول البحرية الإيطالية لاستئجار السفن اللازمة لنقل الجند والمؤن والعتاد  
عبر البحر إلى الشرق (٣) . وعندما اتصل بالبندقية لهذا الغرض رفضت

---

(١) الشوانى جمع شونة أو شينة ، وهى نوع من السفن الخربية الكبيرة تقام فيها أبراج  
وقلاع للدفاع والهجوم . وتجهز الشوانى في أيام الحرب بالسلح والمؤن وتحشد بالمقاتلة والجداين .  
وكان الشيء يسمى «الغراب» أيضاً . انظر المترى : المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار -  
ج ٢ (القاهرة ١٢٧٠ هـ) ص ١٩٤ - ١٩٥ . ابن ماق : كتاب قوانين الدواوين (القاهرة ١٩٤٣  
ص ٣٤٠ ، ميخائيل عواد : المآصر في بلاد الروم والاسلام (بغداد ١٩٤٨) ص ٦٦ ح ٤ .  
(٢) صبح الأعشى - ج ١٤ (القاهرة ١٩١٨) ص ٦٦ .

(٣) لم تكن فرنسا وغيرها من دول الغرب مثل ألمانيا وانجلترا والأراضى الواطئة تملك في  
ذلك الحين سفناً تسمح لها بنقل قواتها وعتادها عبر البحر إلى الشرق الاسلامي . وكانت المدن التى  
لها أساطيل هى تلك التى لها موانئ على البحر المتوسط ، وبصفة خاصة البندقية وجنوة وبيزه . ولقد  
أدرك هذه الحقيقة أحد المؤرخين المسلمين ، وهو ابن فضل الله العمري ، إذ أوضح في كتابه المعنون  
«رسالة تشتمل على كلام اجمال في أمر مشاهير ممالك الفرنج عباد الصليب في البر دون البحر - نشر  
أمارى (طبع روما سنة ١٨٨٣) ص ٣» - أن عساكر الملك الفرنسي لويس التاسع في البر أطول  
منها في البحر ، وأنه ليس له أسطول ولا مراكب .

تزويده بما يحتاج إليه من سفن (١) ، وبسبب العلاقات الطيبة التي كانت قائمة بينها وبين مصر وقتذاك (٢) . إذ كانت تخشى من قيام حملة صليبية بحرية ضدها تؤدي إلى إغلاق أبواب التجارة في وجهها ، وهي مصدر ثروة طائلة بالنسبة لها (٣) .

لقد كان هدف البنادقة منذ بداية الحركة الصليبية حتى نهايتها هو الربح والكسب المادى ، ولم يكن يعينهم الباعث الدينى إلا بالقدر الذى يحقق مصالحهم . فقد غلبت الصفة التجارية البحتة على مسلكهم وتصرفاتهم (٤) . ويكنى أن نعرف أن شعارهم الذى عرفوا به وقتذاك هو «لنكن أولا بنادقة ثم لنكن بعد ذلك مسيحيين» (٥) .

كانت البندقية في الواقع هي أقوى قوة بحرية في ذلك الوقت ، حتى إن حاكمها اللوج أصبح الحاكم المطلق على أربعة بحار هي : البحر الأدرياتي والبحر الإيبي وبحر مرمرة والبحر الأسود ، فضلا عن أن سفنها كانت ترتفع

---

(١) Daru, Le Comte, Histoire de la république de Venice (Bruxelles, 1840), 181.

(٢) كان للبندقية في الاسكندرية حينذاك فندقان لسكر التجار البنادقة والممل على راحتهم أثناء اقامتهم . كذلك كانت لهم كنيسة خاصة بهم ، وغيرها من الامتيازات التي منحهم اياها سلاطين بني أيوب . انظر عن ذلك :

Heyd, W., Histoire du commerce du Levant au moyen-âge, I (Leipzig, 1885), 410—2; cf. also : Lane-Poole, St., A History of Egypt in the Middle Ages (London, 1936), 218.

(٣) Grousset, R., Histoire des Croisades et du Royaume Franc de Jérusalem, III (Paris, 1936), 428

(٤) Mahmud, Story of Islam, 132.

(٥) Matthew Paris, English History from the year 1235 to 1273, (٥) trans, from the Latin by J.A. Giles, II (London, 1853), 306; cf. also: Atiya, Crusade in the Later Middle Ages, 114.

في البحر المتوسط ، وملأت متاجرها سواحل شرقي هذا البحر . كما كانت جزر قبرص ورودس وكريت تحت حكمها . وقضت سفنها على قراصنة البحر الذين كانوا يسببون الكثير من المتاعب للتجار والمسافرين . كذلك حاولت القضاء على المنافسين لها في ميدان التجارة البحرية ، وبخاصة جنوة . وبلغت سيطرة البندقية ووسطوتها البحرية أنه كان يجب أن تمر التجارة مع الشرق عن طريقها هي فقط (١) .

وبأحتضار الفكرة الصليبية في أواخر القرن الثامن الهجري (أواخر القرن الرابع عشر الميلادي) ، كان طبيعياً أن تزداد العلاقات بين البندقية ومصر قوة وتوثق بعد أن زالت العوائق التي حالت في الماضي دون ذلك . وتلقت وثائق «صبح الأعشى» ضوءاً على هذه المسألة . ففي ١٦ من صفر سنة ٨١٤ هـ (١٤١٢م) ورد إلى السلطان الناصر فرج (٢) من المماليك الجراكسة كتاب من دوج البندقية المسمى ميخائيل مع رسوله المدعو نيقولا البندقي (٣) وفيه

(١) Power, Med. People, 37; cf. also Pirenne, Med. Cities, ٤٠.

راجع كذلك ديل : البندقية جمهورية أرستقراطية - ص ٢٣ - ٢٤ و ٢٢ و ٥٠ - ٥٧ .  
(٢) جاء اسمه في رسالة دوج البندقية «السلطان المملوك فرج الله» ، والمقصود الملك الناصر فرج بن برقوق ، وكان قد قول الحكم مرتين : المرة الأولى لمدة سبع سنوات لنهاية سنة ٨٠٨ هـ (١٤٠٥م) وقد انتهى هذا الحكم بخلمه ولم يكن قد بلغ السابعة عشرة من عمره . ثم يأتي أخوه الملك المنصور عبد الميزين بن برقوق ليتولى الحكم بصفة أشهر ويخلع وسنه ١٨ سنة . ويعود الملك الناصر فرج مرة أخرى ليتولى الحكم سبع سنوات آخر لنهاية سنة ٨١٥ هـ (١٤١٢م) وينتهي حكمه بقتله وله من العمر ٢٤ سنة .

(٣) المفهوم مما جاء في وثائق «صبح الأعشى» أن كتاب الدوج ورد باللسان الفرنسي ، وقد قام بنقله إلى العربية اثنان من الترجمة بديوان الانشاء بمصر وقتذاك هما شمس الدين منقر وسيف الدين سودون . والكتاب ملون على ورقة مربعة وسطوره متقاربة . وقد احتفظ القلقشندي ضمن وثائقه بترجمته العربية ، وهي لا ترق بحال في مستواها اللغوي من حيث البلاغة وجزالة اللفظ إلى مستوى المكاتبات العربية الصادرة من ديوان الانشاء بمصر إلى ملوك الغرب . انظر صبح الأعشى - ٨٥ - ص ١٢٣ .

يتحدث ، بعد تقبيل الأرض وبث الشوق والود ، عن تردد التجار البنادقة على مصر في أمان وسلام بسبب عدل السلطان ثم يشير الدوج في ثنايا الخطاب إلى حادثة اعتقال السلطان لفنصل البنادقة وتجارهم بالأسكندرية لتصرف بدر منهم ، مؤكداً أنه لم يقع منهم ما يستوجب ذلك ، ملتصقاً في النهاية التوصية خيراً بالفنصل والتجار وحسن معاملتهم ضماناً لاستمرار ترددهم على مصر ومعهم مطمئنين .

وفيما يلي نص الكتاب .

«السلطان المعظم ، ملك الملوك «فرج الله» ناصر الملة الإسلامية ،  
خلد الله سلطانه —

يقبل الأرض بين يديه نقولاً (١) دوج البنادقة ، ويسأل الله أن يزيد عظمته ، لأنه ناصر الحق ومؤيده ، وموئل الممالك الإسلامية كلها . وينهى ماعنده من الشوق والمحبة لمولانا السلطان وأنه لم تزل أكابر التجار والمحتمشين (٢) والمترددین من الفرنج إلى الممالك الإسلامية شاكرين من عدل مولانا السلطان وعلو مجده ، ونزايد الدعاء ببقاء دولته ، وقد رغب التجار بالترداد إلى مملكته الشريفة بواسطة ذلك ، ولأجل الصلح المتصل بيننا والمحبة .

وأما غير ذلك ، فإنه بلغنا ما أتفق في العام الماضي من حبس العر (٣) في ثغر دمياط الحروس ، وأن مولانا السلطان مسك

---

(١) ذكر التلغشندي قبل ذلك بأسطر قليلة أن اسمه «ميكايل» وأن اسم رسوله «نقولا» ، ولعل هذا سهو منه . أنظر صبح الأعشى -- ج ٨ ص ١٢٣ ح ١ .

(٢) المقصود أكابر تجار البنادقة . والمحتمشون جمع محتمش وهو من ألقاب التجار الفرنج . وسنمرض لذلك بالتفصيل في ختام البحث .

(٣) كذا وردت في «صبح الأعشى» بدون نقط ، ولم يتسن تفسيرها .

فنصل البنادقة والمحتمسين من التجار بثغر الاسكندرية المحروس ،  
وزنجهم (١) بالحديد ، وأحضرهم إلى القاهرة ، وحصلت لهم  
البهولة بين حبوسهم والضرر والقهر الزائد ، وكسر حرمتنا بين  
أهل طائفتنا ، فإن الذى فعل مع المذكورين إنما فعل معنا ،  
وتعجبنا من ذلك : لأن طائفتنا لم يكن لهم ذنب ، وهذا مع كثرة  
عدل مولانا السلطان فى مملكته ، ومحبتنا له ، ومناداتنا فى جميع  
مملكتنا بكثرة عدله ، وبمحبتنا لطائفتنا ، وإقباله عليهم ، وقولنا  
لجميع نوابنا : إنهم يكرمون من يجدونه من مملكة مولانا السلطان  
ويراعونه ويحسنون إليه ، والمسئول من إحسانه الوصية بالفنصل  
والتجار وغيرهم من البنادقة ، ومراعاتهم وإكرامهم والإقبال  
عليهم ، والنظر فى أمورهم إذا حصل ما يشبه هذا الأمر ومنع من  
يشاكلهم لتحصل بذلك الطمأنينة للتجار ، ويرددوا إلى مملكته (٢)

ويدل هذا على تردد تجار البنادقة على ثغرى الاسكندرية ودمياط ، وهم  
ينعمون برعاية الدولة وحمائيتها ، بعد أن لفظت الفكرة الصليبية آخر أنفاسها  
وكان من الطبيعى أن تثور بعض المشكلات والخلافات بين الجانبين البندقى  
والمصرى نتيجة حركة التعامل المتصلة بينهما . وكان يتم - عادة - تسويتها  
عن طريق الرسل والسفراء وتبادل المكاتبات (٣) .

(١) أى قيدهم بالحديد .

(٢) صبح الأعشى - ج ٨ - ص ١٢٣ - ١٢٤ .

(٣) يمدنا «صبح الأعشى» بمعلومات هامة قيمة فيما يتعلق بالكتب الواردة من ملوك الفرنج  
وكبار أهل الغرب إلى مصر . يقول القلقشندى : ان الفرنج لم يراعوا بصفة عامة الفصاحة والبلاغة  
فى مكاتباتهم ، وأنه كان من عادتهم التعظيم فى تلك المكاتبات (ج ٦ - القاهرة ١٩١٥ - ص  
٢٩٩ و ٣٠١) . كذلك يتحدث عن طريقة طى الكتاب عندهم (ج ٦ - ص ٣٥٢) ، ومقادير  
قطع الورق ونوعه ببلادهم (ج ٦ - ص ١٩٣ و ج ٨ - ص ٦٥) ، والرسائل الواردة بالمكاتبات =



لم تكف القلقشندى بإيراز طبيعة العلاقات بين مصر وللبندقية في العصرين الأيوبي والملوكي ، بل أوضح أيضاً أن مصر كانت تكتب صاحب البندقية كلما دعت الضرورة إلى ذلك (١) . وأورد في وثائقه رسم المكاتبه إليه حسبما هو متعارف عليه بديوان الإنشاء بمصر . إذ ذكر أنه كتب إليه جواب رداً على مكاتبته منه بتاريخ رجب ٧٦٧ هـ (١٣٦٦ م) ، جاء في مطلعها :

«وردت مكاتبه حضرة الدوج ، الجليل ، المكرم ، الخطير  
الباسل ، الموقر ، المضمخ .... فخر الملة المسيحية ، جل الطائفة  
الصليبية ، دوج البندقية .... صديق الملوك والسلاطين» .

وكان رسم المكاتبه إليه في جواب آخر بعث به إليه رداً على مكاتبته وردت منه ، هو :

«وردت مطالعة الملوك الجليل ، المكرم المجل ، الموقر ، البطل ،  
الهام ، الضرغام ، الغضنفر ، الخطير ، مجد الملة النصرانية ،

---

وما يتبع عند وصول رسون من قبل أحد ملوكهم أو حكامهم إلى مصر يحمل رسالة أو رداً على مكاتبته (ج ٣ - ص ٤٩٠ و ج ٤ - ص ٥٨ - ٥٩) . وأشار أيضاً إلى الإجراءات التي تتبع بشأن الكتب التي ترد إلى مصر بخط مخالف للخط العربي كاللسان الفرنسي . فكان يتولى ترجمتها إلى العربية من يوثق بهم من أخصاء الدولة ممن يعرف ذلك اللسان ، ثم تقرأ الترجمة على السلطان ويحصد ما يأمر به في جوابه ليكتب به (ج ٦ - ص ٢١٣ و ٢١٦) . ولهذا السبب أشار صاحب «صبح الأعشى» إلى أهمية معرفة الكاتب بديوان الإنشاء بمصر باللغات الأعجمية ، وهي لغة الكتب التي ترد عليه الملكة من الخارج ، وذلك حتى يفهمها ويحجب عنها من غير اطلاع ترجمان عليها أن أمكن ذلك حفظاً لمر ملكه وسلامة بلده . ويقول القلقشندى : ان اللغة الفرنجية تعتبر من اللغات العجمية التي لها قلم يخصها وتكتب به ، وان كتب الفرنج كانت ترد بخطهم ولنتهم (ج ٣ - ص ١٦٥ - ١٦٧) . ومن الواضح أن كتاب ميخائيل دوج البندقية المشار إليه أعلاه قد ورد إلى الأبواب السلطانية بمصر باللسان الفرنسي ، وقد قام بنقله إلى العربية أثنان من الترجمة بديوان الإنشاء وقتذاك . (١) جدير بالذكر أن القلقشندى لم يحتفظ ضمن وثائقه بأية مكاتبه صادرة من ديوان الإنشاء بمصر إلى دوج البندقية على الرغم من إشاراته المتكررة إلى تواتر المكاتبات بين الطرفين .

فخر الأمة العيسوية ، عماد بنى المعمودية ، معز بابا رومية ،  
صديق الملوك والسلاطين . دوك البنادقة (١) .

ولعلنا نستدل من هذه الألقاب التى كان يخاطب بها صاحب البندقية عن  
الأبواب الشريفة بمصر ، مدى ما كان يتمتع به من مركز ممتاز ومكانة بارزة  
وشهرة واسعة . ويكشف عن كل ذلك الدور الهائل الذى لعبته البندقية بالنسبة  
لتجارة شرق البحر المتوسط . ويكفى أن نعرف أن من الدنانير التى كانت  
مصر تتعامل بها عادة ما يعرف باسم «الدوكات» ، «وهذا الاسم لا يطلق فى  
الحقيقة عليها إلا إذا كان ضرب البندقية» (٢) ويدل هذا فى الوقت  
نفسه على جودة دنانيرها التى سميت بـ«الدوكات» نسبة إلى «الدوك» أو  
«الدوج» (٣) .

لقد غدت البندقية إحدى دول العالم العظمى فى العصور الوسطى ،  
وفرضت عليها ظروفها وموقعها أن تبذل أقصى عنايتها لتقدم تجارتها . وجعل  
هذا من سكانها أمة عظيمة فى البحار فى وقت كانت لاتزال فيه بعض أمم الغرب  
غارقة فى عصر الإقطاع . وإذا كانت البندقية تعتبر من أعظم دول البحر

---

(١) صبح الأعشى - ج ٨ - ص ٤٧ . والمزيد من التفصيل أنظر الجزء نفسه - ص ٤٨  
و ج ٦ - ص ١٧٨ و ١٧٩ . وجدير بالتنويه أن القلقشندى اكتبى هنا بالاشارة إلى ألقاب دو  
البندقية دون اثبات نص الرد الذى يمت به إليه سلطان مصر ، وهو فى ذلك الحين الملك الأشرف  
شهاب حفيد الملك الناصر محمد . وليس من السهل تفسير سبب عدم إيراد القلقشندى فى كتابه المكاتبا  
الصادرة عن ديوان الانشاء بمصر إلى صاحب البندقية سواء كانت ردا على رسائل يبعث بها الدوج  
إلى سلطان مصر أم رسائل صادرة من مصر إلى الدوج فى انتظار رد منه عليها ، خاصة وأن صاحب  
«صبح الأعشى» قد عاصر فترة ازدهار العلاقات بين الدولتين وعمل فترة غير قصيرة من الزمن بديوان  
الانشاء الأمر الذى كان يسمح له بإثبات تلك المكاتبات .

(٢) صبح الأعشى - ج ٣ - ص ٤٣٧ . وتعرف هذه الدنانير أيضا باسم «البندقى» أنظر  
دليل : البندقية جمهورية أرستقراطية - ص ٦٥ .  
(٣) صبح الأعشى - نفس الجزء والصفحة .

المتوسط للدور الكبير الذى قامت به ؛ فقد كان لمصر ، وهى الأخرى من بلاد هذا البحر ، فى ميدان التجارة العالمية فى العصر الوسيط المتأخر أهمية لا يمكن بحال التقليل من شأنها ، على الأقل قبل أن يكتشف البرتغاليون طريق رأس الرجاء الصالح فى أخريات القرن الخامس عشر . وأدرك البنادقة منذ أمد بعيد الربح الذى يجنونه من وراء التعامل مع مصر ، فعملوا جاهدين على عقد الصلات مع السلطات الحاكمة فيها (١) .

و إذا كنا قد تحدثنا عن علاقات مصر بالبندقية فى ضوء وثائق «صبح الأعشى» ، فلم يكن دور كل من جنوة وبيزة يقل عنها أهمية فى ميدان التجارة البحرية والمغامرات الصليبية . وإذا كانت وثائق «صبح الأعشى» غنية بالمادة التى تكشف عن توطد مركز البندقية فى مصر ، فإن المادة التى أمدتنا بها تلك الوثائق فيما يتعلق بكل من جنوة وبيزة كانت أقل من البندقية . ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى أن البندقية كانت تعتبر بالفعل أكبر قوة بحرية فى عصر التوسع الصليبي ، وبخاصة فى حوض البحر المتوسط ، مما أكسبها هذا الوضع المتميز الذى أنفردت به عن زميلتيها فيما يتعلق بعلاقاتها مع مصر . ولو أن هذا لا يقلل بحال من الدور الذى قامت به كل من جنوة وبيزة .

لقد كان لكل من جنوة وبيزة علاقات قوية مع مصر قبيل قيام الحركة الصليبية ، وحصلتا من «الفواطم» خلال القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) على امتيازات تجارية كبيرة . وساعدهما على ذلك موقعهما الجغرافى باعتبارهما من موافى البحر المتوسط ، وهمة الوصل بين الشرق والغروب

---

(١) للمزيد من المعلومات عن العلاقات التجارية بين مصر والبندقية فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، واتجار البنادقة مع المصريين رغم تهديدات الكنيسة اللاتينية فى هذا الشأن ، أنظر ديل : البندقية جمهورية أرستقراطية (الترجمة العربية) ص ٥٨ - ٦١ .

وتعرف جنوة في وثائق القلقشندي باسم «بلاد جنوة» (١) و«مملكة الجنوين» معتبراً إياها من ممالك الفرنج الكبار (٢). وقاعدتها مدينة جنوة الواقعة على خليج كبير. ويسمى سكانها «الجنوين» و«الجنوية». وهم طائفة مشهورة من الفرنج (٣). أما بزة فيعرفها القلقشندي في وثائقه بأنها «بلاد البيازنة» (٤) و«بلاد بزة» (٥) ويعتبرها من ممالك الفرنج الصغار، ومركزها بزة التي هي مرسى جيد وتقع غربي رومية. وسكانها ينسبون إليها، فيعرفون باسم «البيازنة» (٦) أو «البياشنة» (٧) وهم أيضاً فرقة من الفرنج، وليس لهم ملك وإنما مرجعهم إلى بابا روما (٨).

ذكرنا أنه قامت علاقات تجارية طيبة بين كل من جنوة وبزة من ناحية وبين مصر الفاطمية من ناحية أخرى قبل الحركة الصليبية. ففي سنة ١٠٦٣ م عقد مندوب من قبل جنوة معاهدة تجارية مع الفاطميين. وكان كثير من تجارها يقدون إلى ثغر الاسكندرية لاستيراد السلع والبضائع التي كان الغرب في حاجة إليها. كما كان رعاياها بصفة عامة موضع حماية الدولة

---

(١) صبح الأعشى - ج ٣ - ص ٢٣٥ ويتحدث القلقشندي بإيجاز عن موقع جنوة وأطوالها ومتجاتها وأهلها. أنظر ج ٥ - ص ٤٠٥ - ٤٠٦ و ٤١١.

(٢) صبح الأعشى - ج ٥ - ص ٤٠٥.

(٣) صبح الأعشى - ج ٥ - ص ٤٠٥ و ج ١٣ - ص ٨٥ و ٨٨.

(٤) صبح الأعشى - ج ٥ - ص ٤١١.

(٥) صبح الأعشى - ج ٣ - ص ٢٣٤.

(٦) صبح الأعشى - ج ٥ - ص ٤١١ و ج ٣ - ص ٢٣٤.

(٧) صبح الأعشى - ج ١٣ - ص ٨٨.

(٨) صبح الأعشى - ج ٥ - ص ٤١١.

ورعايتها . كذلك حرصت بيزة حرساً شديداً على أن تظل علاقتها مع الخلفاء الفاطميين ودية . فقد أوفدت في أواسط القرن السادس الهجري (أواسط القرن الثاني عشر الميلادي) ، بعد مضي نصف قرن على قيام الحركة الصليبية ؛ سفيراً من قبلها إلى بلاط الخليفة الفاطمي الظاهر بالله (١) للعمل على تسوية بعض المشكلات الناجمة عن تعرض بعض تجارها لفريق من التجار المصريين بالنسب والنهب . وعاقبت الحكومة الفاطمية التجار البيازنة المقيمين بمصر بالسجن . وهذه الواقعة قرينة الشبه لما حدث لقنصل البندقية وتجارها بمصر في حادثة مماثلة في عهد السلطان المملوكي الناصر فرج في بدايات القرن الخامس عشر . ولقد نجح سفير بيزة في الوصول إلى تسوية مرضية مع الحكومة الفاطمية ، تعهدت فيها بيزة بالاقتصاص من المعتدين ومعاقبتهم والامتناع عن تقديم أى مساعدة للصليبيين في الشام أو لغيرهم من أعداء مصر ، بينما تعهدت الحكومة الفاطمية من جانبها بإطلاق سراح رعايا مدينة بيزة الذين أعتقلتهم ، وحماية الحجاج والتجار والبيازنة الذين يسافرون في سفن غير حربية (٢) .

لقد اتخذت كل من جنوة وبيزة في علاقاتها بمصر قبل الحركة الصليبية موقفاً يتفق ومصالحها الخاصة ، شأنها في ذلك شأن البندقية . وجاء اشتراكها في الحملات الصليبية أو انصرافهما عنها نتيجة طبيعية لما تمليه عليهما تلك المصالح (٣)

(١) حكم الظاهر بالله سنة ٥٤٤ إلى سنة ٥٥٨ (١١٤٩ - ١١٥٣ م) .

(٢) انظر من ذلك Heyd, op. cit, I, 391.; Lane-Poole, op. cit., 182.

راجع أيضاً محمد جمال الدين سرور : مصر في عصر الدولة الفاطمية (القاهرة ١٩٦٠) ص ١٧٣ -

١٧٥ .

(٣) نعرف أنه في عام ١٠٩٧ م - أي أثناء الحملة الصليبية الأولى - قام أسطول جنوى -

وبإنتهاء الخلافة الفاطمية وبداية دولة الأيوبيين بمصر في عام ٥٦٧ هـ (١١٧١م) - أى بعد بداية الحركة الصليبية بحوالى ثلاثة أرباع القرن - نجد أن الجنوية والبيازنة يتخذون سياسة ذات وجهين متباينين : أحدهما يقتضى مـهما مساعدة الصليبيين ضد المصريين وغيرهم من مسلمى الشرق الأدنى . باعتبارهم مسيحيين مثلهم ، فضلا عن الامتيازات العديدة التى يحصلون عليها من وراء نقل المغامرين الغربيين بسفـرهم وأساطيلهم . أما الوجه الثانى فيستلزم منها الحرص قدر الاستطاعة على الإبقاء على العلاقات الطيبة مع مصر التى كانت قائمة من قبل حتى لاتتضرر مصالحهم الاقتصادية فيها . وكانت هذه السياسة المزدوجة مصدر متاعب لمؤسس الأسرة الأيوبية ، فى وقت كان يستعد فيه لتوحيد القوى فى المنطقة توطئة لتوجيه ضربة حاسمة إلى الصليبيين فى الشام (١) .

ويتضح ذلك من التذكرة التى أرسلها صلاح الدين إلى الخليفة العباسى بـ بغداد بعد أن أستتب به الأمر بمصر (٢) . فقد تضمنت إشارة واضحة إلى مساعدة هاتين الجاليتين للصليبيين ضد المسلمين فى مصر والشام . والوسائل التى كانوا يلجأون إليها للإضرار بالإسلام . كما تكشف عن السياسة المزدوجة التى اتبعوها حيال مصر ، والتى لم تكن تستهدف سوى مصلحتهم الخاصة التى كانت أسمنى من أى شئ .

---

ينقل الصليبيين الغربيين هم ومؤنهم واعداداتهم عبر البحر إلى انطاكية . وبعد ذلك يبعثون أرسلت بيرة سفنها بناء على أوامر من البابا الرومانى للاستيلاء على بيت المقدس . ومنذ ذلك الحين فصاعداً انفتح شرق البحر الأبيض المتوسط للصليبيين الغربيين وعلى رأسهم الايطاليين . انظر :

Pirenne, Med. Cities, 64.

(١) أنظر، صبح الأعشى - ج ١٣ - ص ٨٨ .

(٢) أشرنا إلى هذه التذكرة عند التمرس للعلاقات بين صلاح الدين والبنادقة .

أشار صلاح الدين في تذكرته إلى المستضى<sup>١</sup> بالله إلى مضايقات الجنوئين  
بخاصة ؛ والفرنج والروم بعامه :

«ونحن نقاتل العدوين (١) : الباطن والظاهر ، ونصابر الضدين :  
المنافق والكافر ، حتى أتى الله بأمره ، وأيدنا بنصره ، وخابت  
المطامع من المصريين ومن الفرنج ومن ملك الروم ومن الجنوئين  
وأجناس الروم ، لأن أنفاهم تنافرت ، ونصاراهم تناصرت ،  
وأناجيل طواغيهم (٢) رفعت ، وصلب صلبوتهم أخرجت (٣)

وهذا النص على جانب كبير من الأهمية ، ويجمل بنا التوقف عنده  
لتحليله والتعرف على دلالاته ومغزاه . وهو يشير باختصار إلى الفترة التي  
أحاطت بانحلال السلطة التنفيذية الحاكمة في مصر منذ أوائل حكم العاضد  
آخر خلفاء الفاطميين ، في الوقت الذي ازدادت فيه أطماع وزير هذا الخليفة  
المسمى شاور في الاستيلاء على الحكم ، واتفاقه مع نور الدين محمود سلطان  
حلب والشام لتحقيق حلمه هذا . في تلك الفترة كان كل من نور الدين والفرنج  
بالشام واقفين لبعضهما بالمرصاد ، وقد أتجهت أطماع الفرنج للاستيلاء على  
مصر مستغلين ضعف الدولة الفاطمية . وكان كل منهما يعلم تمام العلم أن  
نجاحه على خصمه مرهون بنجاحه في أمر واحد هو الظفر بمصر . (٤) وانتهى

(١) المقصود العاضد آخر خلفاء الفاطميين بمصر (٥٥٦ - ٥٦٧ هـ) والفرنج بالشام .

(٢) طواغيث وطواغ جمع طاغوت ومعناه كل معتد متعد ، ومعناه أيضا الشيطان والصارف  
عن طريق الخير ، والمقصود هنا الفرنج الدخلاء .

(٣) صبح الأعشى - ج ١٣ - ص ٨٥ .

(٤) أنظر عن ذلك ابن شداد : سيرة صلاح الدين - ص ٢٩ - ٣٠ ، ابن الأثير : الكامل  
في التاريخ (مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية - المؤرخون الشرقيون) - ج ١ - ص ٥٣٥ و  
٥٤٧ ، أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية - ج ١ (القاهرة ١٢٨٧ هـ)  
ص ١٣١ . راجع أيضا :

Stevenson, W.B., The Crusaders in the East (Cambridge, 1907), 187;

Lane-Poole, St., The Story of Cairo (London, 1924), 164—7.

الأمر بعد وقائع ودسائس وحروب إلى تولى أسد الدين شيركوه عامل السلطان نور الدين وزارة مصر سنة ٥٦٤ هـ (١١٦٩ م) . ولكن شيركوه مات في جمادى الثانية من تلك السنة (مارس ١١٦٩ م) ، فخلفه في الوزارة ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب ولقب بالملك الناصر ، لأن العادة أن الوزير أصبح يسمى ملكاً قبل ذلك بسنوات عديدة ، في وقت ازدادت فيه سلطة الوزراء وأصبح الخلفاء القواطم ألعبوة في أيديهم . وإجابة لرغبة نور الدين قطع صلاح الدين الخطبة عن الخليفة الفاطمي العاضد بالله ، ونودى بها للخليفة العباسي . ولم يلبث أن مات العاضد في محرم ٥٦٧ هـ (سبتمبر ١١٧١ م) ، وانتهى بموته حكم الدولة الفاطمية بمصر ، وبدأت دولة جديدة في الحكم هي دولة الأيوبيين نسبة إلى مؤسسها صلاح الدين الأيوبي . (١)

ولكن الجو لم يخل تماماً لصلاح الدين ، إذ قامت مؤامرات داخلية في مصر من أجل إحياء الدولة الفاطمية والقضاء على الوزير الجديد . وكان من تدبير المتآمرين الاستنجد بالفرنجة في الشام لغزو مصر ، فإذا ماخرج صلاح الدين لصدهم ، هاجمه المتآمرون من مؤخرته ، وبذلك يسهل القضاء عليه . وكان من الطبيعي أن يرحب الفرنجة بهذه الدعوة التي وجدوا فيها فرصة طيبة لتحقيق أطماعهم التي أخفقوا فيها من قبل . وقد تمثل هذا في ثورة مؤتمن الخلافة (٢) سنة ٥٦٤ هـ (١١٦٩ م) حيث قدم الفرنجة لمساعدة الثائرين

---

(١) أنظر ابن الأثير : الكامل في التاريخ (مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية - المؤرخون الشرقيون) ج ١ - ص ٥٧٨ وما يليها .

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ (مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية) ج ١ - ص ٥٦٦ ، ابن العاد : شذرات الذهب في أخبار من ذهب - ج ٤ (القاهرة ١٣٥٠ هـ) ص ٢١٤ . أنظر أيضا .



فهاجموا دمياط في صفر ٥٦٥ هـ (أكتوبر - نوفمبر ١١٦٩ م) (١) وثورة عمارة البني (٢) سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٤ م) التي أعقبها هجوم الفرنج على الاسكندرية في ذى الحجة ٥٦٩ هـ (يوليو ١١٧٤ م) (٣) ولكن صلاح الدين تمكن من القضاء على المؤامرتين وصد غزوى الفرنج على كل من دمياط والاسكندرية ، والتي أسهم فيها الجنوية بنصيب ملموس .

نستنتج من العرض السابق للتاريخ السياسى لمنطقة الشرق الأدنى إبان تلك الحقبة من الزمن أن الصراع كان عنيفاً بين القوتين المتنازعتين : الفرنج بالشام ، والقوى الإسلامية الفتية الناهضة بمصر وأن ميزان القوى بدأ يتغير لصالح المسلمين . ونستنتج أيضاً أن العدوين اللذين أشار إليهما صلاح الدين في كتابه إلى خليفة العباسيين هما : افرنج الشام وبقايا الفاطميين بمصر . ويوضح الكتاب أن الجنوبيين والبيازنة قد ساعدوا الفرنج في غزوتهم على مصر ، ولكن صلاح الدين ألحق بهم الهزيمة ، ولم يمكنهم من بغيتهم (٤)

لقد وجدت جنوة أن مصلحتها وقتذاك في مساعدة الصليبيين بالشام ضد صلاح الدين بعد أن تذوقت طعم المكاسب التي جنتها من وراء اشتغالها بالتجارة مع مصر في عهد القواطم قبل قيام الحركة الصليبية وبعد أن أحست تغير نظام الحكم في مصر سوف يضر بمصالحها الاقتصادية .

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين - ص ٣٣ - ٣٤ ، السيوطى : حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة - ج ٢ (القاهرة ١٣٢٧ هـ) ص ١٨ - ١٩ ، أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر - ج ٣ (آستانة ١٢٨٦ هـ) ص ٥١ .

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ (مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية) ج ١ - ص ٥٩٩ ، ٦٠١ ، المقرئى : المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار - ج ١ (القاهرة ١٢٧٥ هـ) ص ٥٣ ، أبو الفداء : المختصر - ج ٣ - ص ٥٧ . راجع أيضا : Casanova, op. cit., 422, 432. (٣) ابن شداد : سيرة صلاح الدين - ص ٣٨ ، ابن الأثير : الكامل في التاريخ (مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية) ج ١ - ص ٦١١ - ٦١٤ .

(٤) أشار القلقشندى في تذكرته إلى موقف الجنوية والبيازنة أكثر من مرة . أنظر صبح الأعشى - ج ١٣ - ص ٨٥ و ٨٨ .

وامتدادا لتلك السياسة نجد أنها توافق في أواسط القرن السابع الهجرى (أواسط القرن الثالث عشر الميلادى ) على تأجير عدد من السفن إلى الملك الفرنسى لويس التاسع ليتسنى له نقل الجند والعتاد والمهمات عبر البحر إلى مصر حتى يضم من حملته الصليبية النجاح. وعقدت معه اتفاقية بهذا الشأن (١). ويكشف موقفها عن تدخل المصالح المادية فى الحركة الصليبية . ونجد مثلا حيا لذلك فى موقف البحارة الجنوية والبيازنة الذى أشركوا فى نقل جيش لويس التاسع إلى مصر ، وكان قد تركهم فى مدينة دمياط بعد استيلائه عليها لحراستها عندما توجه هو وفواته جنوبا صوب العاصمة المصرية بهدف غزوها . إذ يذكر جوافيل ، مؤرخ سيرة لويس التاسع ، أنه غلبت على أولئك البحارة الإيطاليين الصفة التجارية التى عرفوا بها . ورأوا ألا يعرضوا أنفسهم للخطر ولغضبة المصريين عليهم ، عندما علموا بوقوع ملك الفرنسيين ورجاله فى الأسر . ولذلك قرروا فيما بينهم ترك دمياط والنجاة بأنفسهم حتى لا يلحق بهم ما لحق بالملك الأسير : ولم يهتمهم فى شىء مصير الحملة وقائدها ورجالها . ويذكر جوافيل أن أولئك القوم لم يعدلوا عن رأيهم الأبعد أن أغرتهم الملكة مارجريت زوجة لويس التاسع بالمال وأدخلتهم تحت نفقة الملك الخاصة . (٢)

(١) Heyd, op. cit., I, 409 and n. 3. وقد استصدر الملك الفرنسى فى أكتوبر ١٢٤٩م مرسوما يتعلق باستئجار ست عشرة سفينة جنوية ما بين كبيرة وصغيرة من أجل الحملة على مصر . انظر :

S. Louis nolise seize navires génois pour sa première croisade, ed. Les Archives de l'Orient Latin, II (Paris 1884). 232--6.

Joinville J. de., Histoire de Saint Louis. ed. M. Natalis de Wailly (٢) (Paris 874), 218.

ومن حسن حظ المكتبة العربية أن قام الدكتور حسن حبشى بترجمة مؤلف جوافيل ترجمة دقيقة بعد أن زودها بالهوامش المفيدة ومهد لها بدراسة علمية قيمة . انظر جوافيل : القديس لويس «حياته وحملاته على مصر والشام» - ترجمة وتعليق الدكتور حسن حبشى (القاهرة ١٩٦٨) ص ١٨٢ - ١٨٣ .

لقد كانت حرفة الجاليات التجارية الإيطالية هي التجارة : وهما الأول والأخير هو الربح والكسب المادى . وكان هذا من بين الأسباب التى أدت إلى قيام الصراع بينهما فى المعازل اللاتينية فى الساحل الشامى . وكثيراً ما تطور هذا الصراع إلى حروب مكشوفة ذهب ضحيتها الكثيرون ونجد مثالا لذلك فى الحرب التى نشبت فى مارس سنة ١٢٤٩ م بين الجنوية والبيازنة فى شوارع مدينة عكا ، وكانت وقتها من معازل اللاتين ، وقد أستخدمت فيها مختلف آلات الحصار والقتال . وفيها رجحت كفة البيازنة على الجنوية الذين قتل أحد قناصلهم . وانتهى الأمر بعقد هدنة بين الفريقين لمدة ثلاث سنوات ، وتعتبر هذه الحرب طوراً من أطوار الصراع المستمر بين الجنوية والبيازنة فى عكا وغيرها من مدن الساحل الشامى الخاضعة للحكم الصليبي . وكانت تقوم فى الغالب لأسباب تتعلق بالمسائل التجارية ، كما كانت من العوامل التى أضعفت قوى الفرنج فى الجيوب المبعثرة المتبقية لهم على امتداد الساحل ، والتى كانوا يتحصنون بداخلها ضد هجمات المصريين ، إلى درجة أنه لم يكن بوسعهم الصمود فى وجه تلك الهجمات أو حتى مجرد الدفاع عن أنفسهم ومعاقلهم (١)

وفى تلك الأثناء كان ميزان القوى قد اعتدل نهائياً لصالح مصر والمسلمين فى الشرق الأدنى ، وأصبح مركز الثقل يميل بقوة إلى جانبهم بعد أن اتفقت كلمتهم وتوحدت جبهتهم . وأصبح الفرنج بالشام فى موقف الدفاع عن كياناتهم بوجه عام . وأخذوا يتلقون الضربات تباعاً من خلفاء صلاح الدين من الأيوبيين ، ومن بعدهم المماليك بمصر ، إلى أن تم طردهم نهائياً من الساحل الشامى سنة ٦٩٠ هـ (١٢٩١ م) ، فى عهد السلطان الأشرف خليل .

ومع ذلك لم يأمن المصريون جانب تلك الجاليات التجارية الإيطالية ،

و كانت تجارهم السابقة معها تؤكد شكرهم في مبادئ نوابها ومقاصدها .  
فهم يعلمون جيداً أن التجار الإيطاليين قوم جشعون محبوبون للمال الذي امتلأت  
به خزانهم عن طريق التجارة مع الموانئ المصرية الواقعة على البحر الأبيض .  
و كانوا يدركون أنهم سوف يعيدون الكرة إذا واتهم الفرصة ، حتى يتسنى  
لهم فتح تلك الأبواب التي أغلقت في وجوههم . و كان سقوط عكا قد  
وقع فوق رؤوس أهل الغرب وقع الصاعقة ، وأخذوا يعدون العدة  
لعدوان جديد .

كان الأشرف خليل سلطان مصر مصر يدرك ذلك تمام الإدراك حتى إنه  
بعد حوالي عام من استرداد مدينة عكا عقد هدنة مع صديقه صاحب أرغونة  
الفرنجي . (١) وجاء في أحد شروط الهدنة أن على صاحب أرغونة مصادقة  
أصدقاء الملك الأشرف خليل ومعاداة أعدائه . وطلب منه استخدام نفوذه في  
الغرب ليبعد عن مصر والشام الخطر الذي يهددها من قبل الفرنج بصفة عامة  
والجنوية بصفة خاصة . بمعنى أنه إذا حاول الجنوية أو غيرهم من الفرنج من  
من أعداء الإسلام إلحاق الضرر والأذى بمصر والشام ، فعلى صاحب أرغونة  
منعهم من ذلك ؛ ولو استلزم الأمر التوجه إليهم بسفنه ورجاله لقتالهم حتى  
يشغلهم عن تنفيذ هدفهم . (٢)

كانت الشكوك إذن تساور السلطات الحاكمة في مصر في أخريات القرن  
الثالث عشر من نوايا أولئك القوم . ولكن بعد أن أخذت الفكرة الصليبية في  
التقلص والزوال أخذت العلاقات بين جنوة ومصر في التحسن والإزدهار .

---

(١) تعرضنا لهذه الهدنة بشئ من التفصيل عند الحديث عن العلاقات بين مصر والبندقية في

عهد الأشرف خليل . انظر ما سبق ص ١٠ - ١١ من هذا البحث .

(٢) انظر صبح الأعشى - ج ١٤ - ص ٦٦ .

وقد حفظ لنا صاحب «صبح الأعشى» نسخة كتاب ورد إلى مصر في صفر ١٤١٤ هـ (١٤١١م) في عهد الملك الناصر فرج من القبطان الجنوى بميناء الماغوصة (١) بقبرص وكان لجنوة وقتها مقدم للشواني في تلك الجزيرة . (٢)

ولأهمية هذا الكتاب يحسن تناوله بشئ من التحليل والتعريف ، مع بيان الظروف التي لا يسته . يفتح الراسل مكاتبتة - حسب عادة الفــــرنج في مكاتبتهم - بذكر اسم السلطان المصرى وألقابه . ثم يبدأ بتقيل الأرض تعظيماً للسلطان المكتوب إليه ، فالدعاء له بطول البقاء . وقد راعى الكاتب في تعظيم المكتوب إليه أن عدل في خطابه عن ضمير خطاب المواجهة إلى معنى الغيبة . بمعنى إجراء المخاطبة في المكاتبة على معنى الغيبة ، ولا أن يكون الخطاب فيها خطاب المواجهة . وذلك باعتبار أن المرسل إليه أعظم شأنًا وأرفع قدرًا من المرسل . وأتى الكاتب بعد ذلك بالإيناء ، أى بمحتوى الخطاب ومضمونه والمقصود منه . ثم أختتم الكتاب بالدعاء بأقتضاء العدل والإنصاف من السلطان مع دوام البقاء .

يتحدث قبطان الماغوصة الجنوى والمستشارون بها في كتابهم الموجه إلى

(١) الماغوصة : ميناء بقبرص وقد وردت بهذا الاسم في المصادر العربية ، وتعرف في المراجع الأجنبية باسم فاجوستة . وقد كان لصاحب جنوة مقدم على الشواني في هذا الميناء ، وكان رسم المكاتبة اليه عن ديوان الانشاء بمصر هو «وردت مكاتبة المحترم ، الجليل ، المبجل ، الموقر الأسد ، الباسل ، فلان ، مجد الملة المسيحية ، كبير الطائفة الصليبية ، غرس الملوك والسلاطين» ويل ذلك الدعاء ، أما تعريفه فهو «مقدم الشواني الجنوية بقبرص» أنظر صبح الأعشى - ج ٨ - ص ٤٧ . ويلاحظ أن القلقشندي لم يحتفظ لنا ضمن وثائقه التى أثبتتها في «صبح الأعشى» بنسخة الكتاب الصادر من مصر إلى قبرص رداً على رسالة القبطان المذكور . كما لم نثر على وثائق في وثائق «صبح الأعشى» على أية مكاتبة صادرة من مصر إلى «مقدم الشواني الجنوية بقبرص» .

(٢) هى المكاتبة الوحيدة بين جنوة ومصر التى حفظها لنا القلقشندي . وقد قام بنقلها إلى العربية شمس الدين سنقر وسيف الدين سودون الترجمانان بديوان الانشاء بمصر وقتذاك . أنظر «صبح الأعشى» - ج ٨ - ص ١٢٤ .

الملك الناصر فرج عن علاقات المودة والسلم القائمة بين مصر وجنوة ، وأهتم  
جنوة بحماية مسلمى مصر والموانى الإسلامية من قراصنة البحر ، وينهون  
بالتماس رعاية التجار الجنوية ، والعمل على كف أسباب الضرر والأذى عنهم .  
وفىما إلى نص الكتاب :

«الملك المعظم ، ملك الملوك ، صاحب مصر المحروسة ، الملك  
الناصر ، عظم الله شأنه » .

يقبل الأرض بين أياديه الكبطان والمستشارون ، وينهون أنهم آتاء  
الليل ، داعون بطول بقائه ، مجتهدون فى استمرار الصلح والمودة  
التي لايشوبها كدر بين القومون (١) وبين مولانا السلطان ، وأن فى  
هذا الوقت ثم حرامية غراب (٢) يتحومون (٣) بأطراف هذه  
البلاد ، والمين (٤) ، الإسلامية ، ونحن لم نزل نشحطهم (٥)  
بالمراكب الأخرية (٦) ونمنعهم من ذلك جهدنا وقدرتنا ، حتى  
إن أحداً صار لايجسر على الدخول إلى ميناء الماغوصة جملة كافية  
مع أننا كنا خلصنا فى المدة الماضية من الحرامية المذكورين  
خمس وعشرين نفرأ من المسلمين ، وأكرمناهم وأطلقنا سيلهم  
(وعزمننا أن) (٧) نجهزهم إلى دمياط أو إلى ثغر الأسكندرية .

(١) القومون أو الكيون . انظر عن ذلك 127-30, 143-5 Pirenne, Med. Cities .

(٢) أى غرباء أو أجانب .

(٣) فى الأصل يتحرمون ولعلها يتحومون أى يدورون حول .

(٤) المين والموانى جمع الميناء . وهو كل مرمى للسفن .

(٥) أى نطاردهم .

(٦) الأخرية أو الغربان جمع غراب ، وهى من أندر أنواع السفن الحربية ، إذ كانت

معروفة عند قرطاجنة والرومان وغيرهم ، ولم تزل معروفة حتى أيام الدولة العثمانية . والغالب كما  
يتضح من تسميتها أنها كانت على شكل الغراب . انظر ابن ماقى : قوانين الدواوين - ص ٣٤٠ .

(٧) كذا أوردها المحقق فى المتن ، وأوضح فى الحاشية أنها فى الأصل «وعقبها تجهزهم» انظر  
صبح الأعشى - ج ٨ - ص ١٢٥ ح ١ .

وأما غير ذلك ، فقد بلغنا أن برطلما أوسق (١) للمواقف الشريفة الشريفة صابونا في مراكبه ، وكان قصده أن يهرب بذلك ، فللحال عمرنا مراكبا كبيرا ، وأخذنا برطلما المذكور بالمخارية ، وأحضرنا إلى الماغوصة ، وعهدنا بطروق المراكب إلى شخص يسمى أرمان سليوريون ، وهو رجل مشكور السيرة . وقلنا له أنه يتوجه إلى خازن الصابون المذكور ويستشير إيت كان يوسق شيئا من الأصناف لمولانا السلطان ، ويجهزه إلى أى مكان اختاره يسلمه ليد من تبرز له المراسيم الشريفة بتسليمه ، فليفعل ، وهذا القول كله يكون دليلا عند مولانا السلطان على صدق الولاء والتمسك بالصلح . والمستول من الصدقات الشريفة الإقبال على التجار الجنوية الذين عند مملكته ، وكف أسباب الضرر عنهم ، وينشر معدنثه عليهم ، والله تعالى يديم بقاءه بمنه وكرمه . (٢)

وكما كان لدوج البندقية رسم مكاتبة خاص به عن الأبواب السلطانية بمصر ، كذلك كان لحكام جنوة رسم مكاتبة يخصهم . وكان هذا الرسم حتى أواسط القرن الثامن الهجرى (أواسط القرن الرابع عشر الميلادى) كالآتى : « صدرت هذه المكاتبة إلى حضرة البود شطا (٣) والكبطان الجليلين المكرمين ، الموقرين ، المبجلين ، الخطيرين ، ، فلان وفلان ، والمشايخ الأكابر المحترمين ، أصحاب الرأى والمشورة ، الكينون بجنوة ، أمجاد الأمة المسيحية ، أكابر دين النصرانية ، أصدقاء الملوك والسلاطين ، ألهمهم الله تعالى رشدهم ، وقرن بالخير قصدهم ، وجعل النصيحة عندهم » .

(١) وسق الشئ أى جمعه وحمله .

(٢) انظر صبح الأعشى - ج ٨ - ص ١٢٤ - ١٢٥ .

(٣) يعرف فى المراجع الأجنبية باسم « بودستا » podestà أى حاكم المدينة .

La Monte, op. cit., 444.

وللمزيد من المعلومات عن هذه الوظيفة ، انظر

بعد ذلك تتضمن المكاتب إعلامهم بكيث وكيث ، وكان تعريفهم «الحكام بجنوة» . وأعتبارا من عام ٧٦٧ هـ (١٣٦٥ م) أبطلت المكاتب إلى «البودشطا» والكبطان بعد إبطالها وأستقرت مكانها المكاتب إلى «الدوج» بما نصه :

« صدرت هذه المكاتب إلى الدوج الجليل ، المكرم ، المبجل ، الموقر الخطير ، فلان ، والمشايع » .  
والباقي حسبما تقدم في رسم المكاتب أعلاه . (١)

ومن المصادقات الجديرة بالملاحظة أن المكاتب قد أستقرت إلى الدوج بجنوة في سنة ٧٦٧ هـ (١٣٦٥ م) ، وهى نفس السنة التى تعرضت فيها الإسكندرية لحملة صليبية كبيرة ، والتى تحولت فيها الإسكندرية من ولاية صغيرة إلى نهاية نيابة لها وزنها وقدرها . فقد إزداد أهتمام السلطات الحاكمة بمصر بأمر الإسكندرية باعتبارها ميناء على البحر يفرى الغربين بالهجوم عليه مثلما نحل صاحب قبرص اللاتينى فى حملته التى شاركه فيها كثير من الجنوة تحقيقاً لأطماعهم التى أصيبت بنكسة عقب طرد الصليبيين من الساحل الشاى فى أنخرياب القرن الثالث عشر الميلادى . (٢)

جاء النشاط التجارى للبندقية وجنوة وبيزة فى شرق البحر المتوسط والذى تمثل أصدق تمثيل فى العلاقات التى قامت بينها وبين مصر فى عصر التوسع الصليبي - جاء هذا النشاط معبراً فى واقع الأمر عن تلك الثورة الاقتصادية الكبرى التى كان التجار الإيطاليون طليعتها ، ، والتى بدأت

---

(١) صبح الأعشى - ج ٨ - ص ٤٦ . لم نجدنا القلقشندى عن رسم المكاتب إلى المسئولين فى بيزة ، ولعل السبب فى ذلك أن مرجعهم كان إلى بابا روما حسبما ذكر القلقشندى نفسه .  
(٢) أنظر عن ذلك .



متواضعة في أواخر القرن العاشر ووصلت ذروتها في نهاية القرن الثالث عشر. وقد كانت هذه الثورة بدورها نتيجة لعوامل عديدة من بينها احتكاك الغرب بالشرق أثناء الحروب الصليبية ، وزوال عصر الإقطاع في الغرب بخضارته الزراعية الريفية واقتصاده الطبيعي ، ونشأة المدينة بخضارتها المدنية واقتصادها النقدي ونشاطها التجاري والصناعي . وكانت الجمهوريات الإيطالية الثلاث بحكم موقعها الجغرافي الممتاز أسبق من غيرها من أمم الغرب في هذا المضمار مثلما كانت أسبق منها إلى عصر النهضة .

وكان التجار الإيطاليون (١) بعد زوال الفكرة الصليبية وانصراف الناس

(١) عندما يتحدث القلقشندي عن اللاتين الغربيين يطلق عليهم بصفة عامة «الفرنج» أو «طائفة الفرنج» ، كما يطلق على عناصرهم وأجناسهم المختلفة عبارة «أمم الفرنج» أو «ممالك الفرنج» ، وعلى حكامهم «ملوك الفرنج» . فالسليحيون في أسبانيا هم «أفرنج أسبانيا» ، وصاحب صقلية «فرنجي» ، و «الكيلان» أو «القتيلان» هم جنس من الفرنج ، وكذلك «التسقان» وأهل طليطلة وقشتالة وأرغونة ، فضلا عن البنادقة والجنوية والبيازنة ، الذين هم طوائف و فرق مشهورة من الفرنج . و «فرنسة» هي «أفرنجية» ، انظر صبح الأعشى - ج ٣ - ص ٤٣٧ و ج ٥ - ص ٢٧١ و ٢٧٢ و ٣٧٣ و ٣٧٤ و ٤٠٩ و ٤١١ و ٤١٢ و ٤٨٥ و ج ٨ - ص ٣٤ و ٣٦ - ٣٨ و ج ٩ (القاهرة ١٩١٦) ص ٢٥٠ و ج ١٤ - ص ٢٤ . وهذا يعني أن مفهوم كلمة «الفرنج» في وثائق «صبح الأعشى» ينسحب على جميع أهل الغرب اللاتيني ، بما في ذلك الجاليات التجارية الإيطالية . ولذلك عندما يتحدث القلقشندي عن التجار الغربيين الذين يتعاملون مع مصر ويفدون على ثغرى الاسكندرية ودمياط ، يشير إليهم في معظم الأحيان بقوله «تجار الفرنج» . انظر صبح الأعشى - ج ٣ - ص ٤٥٩ . ويلاحظ أيضا أن جميع المهادنات التي أثبتتها القلقشندي والتي عقدت بين كل من الباطر بيبرس والمنصور قلاوون والأشرف خليل من ناحية وبين أفرنج الشام من ناحية أخرى ، خلال النصف الثاني من القرن الثالث عشر ، قد تضمنت العديد من البنود التي تتعلق بتجار الفرنج دون إشارة محددة تنص على التجار الإيطاليين بالذات . انظر صبح الأعشى - ج ١٤ - ص ٣٧ و ٤١ و ٤٢ و ٤٥ و ٤٧ و ٥٠ و ٥١ و ٥٨ و ٥٩ و ٦١ و ٦٨ و ٦٩ . كذلك أشار إلى سفن الغربيين التي تنقل البضائع بين مصر والموانئ الغربية على أنها «مراكب الفرنج» . انظر صبح الأعشى - ج ٣ - ص ٤٥٩ . فالإشارة هنا أيضا عامة على الفرنج وسفنهم دون تحديد أو تخصيص. وغير خاف أن المقصود بتجار الفرنج التجار البنادقة والجنوية والبيازنة الذين كانوا

في الغرب عنها يقومون بعملية التصدير والاستيراد بين بلدان الشرق الأدنى بعامة ومصر بخاصة من ناحية وبين الغرب الأوروبي من ناحية أخرى . فتأتي سفنهم محملة بالسلع والبضائع من الغرب لتفريغها في نغرى الإسكندرية ودمياط وللقيام بعمليات البيع والشراء فيها ثم تقلع منها محملة بالبضائع التي كان الغرب في حاجة إليها . (١) ومن أهم الواردات التي كانت تأتي إلى مصر ، والتي أشار القلقشندي إليها : الممالك والحواري والأخشاب والمعادن ، كالفضة والذهب ، والحديد ، والنحاس . (٢) وقد اشتهر بصفة خاصة الحديد البزاني الذي ينسب إلى بيزة ، (٣) والجوخ البندقى نسبة إلى البندقية وهو يفوق كل أنواع الجوخ . (٤) وإن لم يرد نص صريح في وثائق « صبح الأعشى » عن استيراد مصر لكل من حديد بيزة وجوخ البندقية ، إلا أن إشارات القلقشندي

في واقع الأمر يحثرون التجارة مع مصر وحوض الليفانت . ويميز ذلك الإشارات الصريحة التي وردت في بعض وثائق « صبح الأعشى » بخصوص التجار الإيطاليين . أنظر : صبح الأعشى - ج ٨ ص ٢٢٣ - ١٣٥ . ولعلنا نخلص مما سبق أن إشارات القلقشندي العامة عن تجاوز الفرنج الذين كانوا يتعاملون مع مصر وتمتلك إنما تنفي في حقيقة الأمر تجاوز الجمهوريات البحرية الإيطالية . وهذا ما يمكن أن يقال بالنسبة لإشارات القلقشندي إلى مراكب الفرنج .

(١) صبح الأعشى - ج ٣ - ص ٤٥٩ و ٤٦٦ .

(٢) صبح الأعشى - ج ١٣ - ص ٩٦ و ١٤ - ص ٦٨ . ويذكر القلقشندي أن الفضة كانت تصل إلى مصر من بلاد الفرنج وغيرها ، وأن ورودها انقطع من سنة ٨٠٥ هـ (١٣٩٧/ ١٣٩٨ م) ، ففلت الفضة وبطل ضرب الدراهم بمصر إلا في القليل النادر . أنظر صبح الأعشى - ج ٣ - ص ٤٦٣ . كما أشار صاحب « صبح الأعشى » إلى تلة الوارد من النحاس إلى مصر في زمنه حتى أن العملة التي كان الناس يتعاملون بها أخذت في التناقص لصغرها ونقصت أوزانها . وجاء في إشارة أخرى أنه لم يعد يصل من معدن النحاس شيء حتى لقد صدرت الأوامر بإبطال دار الضرب بمصر نحو شهرين إلى أن يحضره الفرنج لاستعماله . أنظر : صبح الأعشى - ج ٣ - ص ٤٤٠ و ٤٤١ (القاهرة ١٩١٥) ص ٢١٣ . ويعكس هذا الوضع الحالة الاقتصادية في مصر زمن القلقشندي من حيث غلاء الأسعار ، وتدهور العملة المستعملة ، وعدم ثبات صرف الذهب . أنظر صبح الأعشى - ج ٣ - ص ٤٣٨ و ٤٤٠ و ٤٥٠ و ٤٦٣ - ٤٦٤ .

(٣) صبح الأعشى - ج ٥ - ص ٤١١ و ٣ - ص ٢٣٤ .

(٤) صبح الأعشى - ج ٥ - ص ٤٠٥ .

المتكررة إليها تدل على معرفة مصر بها في ذلك الحين ، مما يحملنا على الاعتقاد بأنها كانت تستوردها من هاتين الجهتين .

هذا عن واردات مصر التي كانت تصل إليها من الخارج ، أما أهم السلع التي كانت تصدر من موانئها فهي بعض المواد الأولية اللازمة لصناعة المنسوجات والأقمشة ، وبصفة خاصة قماش الإسكندرية « الفائق الذي ليس له نظير في الدنيا » (١) وكذلك المرجان الذي يحمل من الإسكندرية إلى سائر البلاد (٢) ، والسكر الذي كان يصدر أيضا إلى أكثر البلاد (٣) وبعض الأحجار النفيسة : كالزمرد ، والبلسان ، أو البلسم الذي كان ملوك مصر يهادون به ملوك الفرنج وغيرهم لعظم شأنه (٤) ، وغير ذلك من الأحجار والمعادن التي كانت تستخرج من مصر مثل النطرون والشب واللازورد (٥) وأما الملح فقد كان من أهم صادرات مصر إلى بلاد الفرنج (٦) بالإضافة إلى التوابل الواردة إلى مصر من الهند واليمن (٧) ، والتي يقوم التجار الإيطاليون بدورهم بنقلها على سفنهم من موانئ البحر الأبيض إلى الغرب ، وتمتع أولئك التجار في حلهم وترحالهم - بصفة عامة - برعاية الدولة وحمايتها . فقد كانت تحسن وفادتهم ، وتأمينهم على أنفسهم وحياتهم وأموالهم

(١) صبح الأمل - ج ٣ - ص ٤١٤ و ٥ - ص ٨٤ و ١٤٣ .

(٢) صبح الأمل - ج ٢ (القاهرة ١٩١٣) ص ١١٦ .

(٣) صبح الأمل - ج ٣ - ص ٣٠٩ .

(٤) صبح الأمل - ج ٣ - ص ٢٨٢ - ٢٨٣ .

(٥) صبح الأمل - ج ٣ - ص ٢٨٣ - ٢٨٤ و ٣٠٥ و ٣٠٧ و ٤٥٦ .

(٦) ذكر القلقشندي أن «بحيرة بوقير هي بحيرة ماء ملح يخرج من البحر الرومي بين الاسكندرية ودرشيد ، ولها خليج صغير مشق من خليج الاسكندرية .. وبحرانيها الملاحات الكبيرة التي يحمل منها الملح إلى بلاد الفرنج وغيرها . أنظر صبح الأمل -

ج ٣ - ص ٢٠٣ .

(٧) صبح الأمل - ج ٤ - ص ٢٢ و ح ١ .

وبضائعهم وتعمل على رفع الظلم عنهم ، ونشر العدل بينهم بما يعود على البلاد من خير وفائدة . ووثائق صبح الأعشى واضحة في ذلك تمام الوضوح إذ تلى نسخ التوقييع الخاصة بنظر ثغر الإسكندرية (١) ونظر الصادر الخاص بتجار الفرنج بها (٢) ، كذلك نسخ المكاتبات والمهادنات بين مصر والفرنج ضوءاً كافياً على ذلك .

ففي توقيع بنظر ثغر الإسكندرية كتب به للقاضى جمال الدين بن بصاصة حوالى ٦٧٨ هـ (١٢٩٠ م) (٣) ، جاء مايلي :

« . . . . . ويجتهد في تحصيل أمواله (٤) . . . . . وتنمية متاجره  
ومعاملة التجار الواردين إليه بالعدل الذى كانوا ألفوه منه والرفق  
الذى نقلوا أخباره السارة عنه ، فلهم هدايا البحور ، ودوابسة  
الثغور ، ومن ألسنتهم يطلع على ماتجنه الصدور ، وإذا لهم حب  
الإحسان نشروا له أجنحة مراكبهم كالطيور ، وليعتمد معهم ما

(١) متولها يسمى ناظر الاسكندرية أو ناظر المباشرة ، وهى من الوظائف الديوانية التى يكتب بها بثمر الاسكندرية ، وموضوعها التحدث عن الأموال السلطانية بالاسكندرية مما يتحصل من من المأخوذ من تجار الفرنج وسائر المتاجر الواصلة برا وبحرا بالقبض والصرف والحمل إلى الأبواب السلطانية» أنظر صبح الأعشى - ١١٦ (القاهرة ١٩١٧ ص ٤١٩ .

(٢) من الوظائف الدينية التى يكتب بها بثمر الاسكندرية ، «وموضوعها التحدث في قدر مقرر يؤخذ من تجار الفرنج الواردين إلى ثغر الاسكندرية ..» أنظر صبح الأعشى - ١١٦ - ص ٤١٩ .

(٣) لم يحدد الفلقشندى تاريخ التوقيع ، ولكنه أعقبه بنسخة توقيع ثانية باعادة النظر بثمر الاسكندرية لابن بصاصة في سنة ٦٧٨ هـ (١٢٨٠ م) ، مما يبين أن التوقيع الأول كان حوالى ذلك الوقت أو قبله بقليل . أنظر صبح الأعشى - ١١٦ - ص ٤٠ - ٤٢ .

(٤) المقصود ثغر الاسكندرية .

تضمنته المراسيم الشريفة المستمرة الحكم إلى آخر وقت ، ولا يسلك معهم حالة توجب لهم القلق والتظلم والمقت (١)

وفي نسخة توقيع بنظر الصادر الخاص بتجار الفرنج في ثغر الإسكندرية كان ينسج على متوالها ويستضاء بها فيما يكتب من هذا النوع ، جاء مايلي :  
« . . . . » (وليتلق) كذلك تجار الجهة الغربية الواردين إلى الثغر المحروس من أصناف المسلمين والفرنج : فليحسن لهم الوفاة وليعاملهم بالمعدلة المستفادة ، فإن مكاسب الثغر منهم ومن الله الحسنى وزيادة . . . . » (٢)

وفي تذكرة سلطانية كتب بها عن السلطان الملك الصالح على بن الملك المنصور قلاوون الصالحى ، لكافل السلطنة بالديار المصرية ، الأمير زين الدين كتبغا ، عند سفر الملك الصالح إلى الشام واستقرار كتبغا نائباً عنه في سنة ٦٩٩ هـ (١٢٧١ م) - نجد إشارة لها أهميتها عن التجارة والتجار تحت عنوان « فصل الثغور المحروسة » جاء فيها بعد بيان أهمية الثغور :

« . . . . » والتيقظ لمهمات الثغر ، واستجلاب قلوب التجار واسمالة خواطرهم ؛ ومعاملتهم بالرفق والعدل حتى تتواصل التجار وتعمر الثغور . . . . . » (٣).

ويدل هذا على مدى اهتمام مصر باجتذاب تجار الفرنج إلى موانئها نظراً للمكاسب الهائلة التي كانت تعود عليها من وراء ذلك .

وتتميز نسخ المهادنات المعقودة بين مصر والفرنج في عهد الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون والأشرف خليل ، فيما بين عامى ٦٦٥ و ٦٩٢ هـ (١٢٦٧ -

(١) صبح الأعشى - ١١ ج - ص ٤٢٠ - ٤٢١ .

(٢) صبح الأعشى - ١١ ج - ص ٣٢٠ .

(٣) صبح الأعشى - ١٣ ج - ص ٩٦ .

١٢٩٢ م) ، والتي أثبتتها القلقشندى فى كتابه — بأهميتها فيما نحن بصددده . فقد وردت بها إشارات عديدة تتعلق بتأمين التجار الفرنج بالشام وغيرهم من الوافدين من الغرب . ولم ترد هذه المهادنات إشارات صريحة تخص التجار الإيطاليين ، وإنما كانت الإشارة إلى تجار الفرنج بصفة عامة . وغير خاف أن المقصود تجار المدن البحرية الإيطالية الذين كانوا يقومون بعمليات التصدير والاستيراد بين مصر والشرق الأدنى الإسلامى من ناحية ، وبين الغرب اللاتينى من ناحية أخرى (١) والذين احتكروا تجارة شرق حوض البحر المتوسط مثلما احتكروا عملية نقل الصليبيين على سفنهم إلى الشرق زمن العدوان الصليبي .

فى هدنة عقدت بين الظاهر بيبرس (٢) وجماعة الفرسان الإسماعيلية بحصنى : الأكراد والمرقب بالشام ، تاريخها يوم الإثنين ٤ رمضان ٦٦٥ هـ (١٢٦٧ م) ، وردت إشارة تنص على ضرورة تأمين التجار والسفار على أنفسهم وأموالهم وكل ما يتعلق بهم ، وذلك فى البلاد التى وقعت الهدنة عليها (٣) وفيما يلى نص البند المشار إليه :

« . . . . على التجار والسفار والمترددين من جميع هذه الجهات المذكورة يكونون آمنين من الجهتين : الجهة الإسلامية ، والجهة الفرنجية والنصرانية فى البلاد التى وقعت هذه الهدنة عليها — على النفوس والأموال والدواب وما يتعلق بهم بحميمهم السلطان ونوابه . . . . وعلى أن يتردد التجار والمسافرون من جميع المترددين على أى

---

(١) أنظر سابق ، ص ٢٥ ح ٣ من هذا البحث .

(٢) تولى الظاهرة بيبرس الحكم ١٨ سنة من ٦٥٨ إلى ٦٧٦ هـ (١٢٦٠ - ١٢٧٧ م) ، ويقلب على الظن أن حكمه انتهى بقتله مسموما .

(٣) مدة الهدنة عشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات . أنظر النص الكامل للهدنة فى كتاب صبح الأعشى - ١٤ - ص ٣١ - ٣٩ .

طريق اختاروه من الطرق الداخلية في عقد هذه البلاد الداخلة في هذه الهدنة المباركة المختصة بالملك الظاهر ، وبلاد معاهديه ، وبلاد المناصقات ، وخاص بيت الأستار والمناصقات ، يكون الساكنون والمترددون في الجهتين آمنين مطمئنين على النفوس والأموال ، نحى كل جهة الجهة الأخرى (١) .

وفي هدنة ثانية عقدت بين بيبرس وبين ملكة بيروت الفرنجية بتاريخ الخميس ٦ رمضان ٦٦٧ هـ (١٢٦٩ م) ، إشارة تنص على عدم تحصيل رسوم من التجار الفرنج لم تجر العادة بها ، وأن يكون التجار آمنين مدة أربعين يوماً بعد انقضاء المدة المتفق عليها في الهدنة (٢) .

..... وعلى ألا يحدد على أحد من التجار المترددين رسم لم تجر به عادة ، بل يجرون على العوائد المستمرة والقواعد المستقرة من الجهتين .....

..... وعلى أنه إن تاجر فرنجي صدر من بيروت إلى بلاد السلطان يكون داخلاً في هذه الهدنة ، وإن عاد إلى غيرها لا يكون داخلاً في هذه الهدنة .....

..... وعند انقضاء الهدنة يكون التجار آمنين من الجهتين مسدة أربعين يوماً ، ولا يمنع أحد منهم من العودة إلى مستقره. . . (٣)

وفي هدنة ثالثة عقدت بين بيبرس وولده الملك السعيد (٢) وبين

(١) صبح الأعشى - ج ١٤ - ص ٣٧ .

(٢) لم يتضمن النص أى إشارة إلى مدة الهدنة . أنظر النص الكامل لها في صبح الأعشى - ج ١٤ - ص ٣٩ - ٤٢ .

(٣) صبح الأعشى - ج ١٤ - ص ٤١ - ٤٢ .

(٤) تولي الملك السعيد بن الظاهر بيبرس الحكم لمدة سنتين حتى ٦٧٨ هـ (١٢٧٩ م) وانتهى حكمه بحمله وكان عمره ٢٠ سنة وقتها .

جماعة الفرسان الأسبترارية على قلعة المرقب بالشام في مستهل رمضان ٦٦٩ هـ  
( ١٢٧١ م ) ( ١ ) ، إشارة واضحة إلى الاتفاق على تقسيم ما يتحصل من التجار  
الفرنج والمصريين مناصفة بين الجهتين الفرنجية والإسلامية :

« . . . . . وكل ما هو من الموانئ والمراسى البحرية المعروفة جميعها  
بمحضن المرقب : من ميناء بلدة إلى ميناء القنطرة المجاورة لحدود  
مرقبة - تكون هي وما يتحصل منها من الحقوق المستخرجة من  
الصادرين والواردين والتجار ، وما يتعقد عليه ارتفاعها ، وتشهد  
به الحسابات - جميعه مناصفة . وما يدخل في ذلك من أجناس  
البضائع على اختلافها يأخذ الحق منه مناصفة على العادة الجارية  
من غير تغيير لقاعدة من حين أخذ بيت الأسبتار المرقب إلى تاريخ  
هذه الهدنة المباركة مناصفة على العادة الجارية ، بل تجرى التجار  
في الحقوق على عادتهم في البضائع التي يحضرونها والمتجر كائناً  
من كان . . . ( ٢ ) » .

وفي أحد شروط الهدنة آتفة الذكر بند خاص بتأمين التجار المصريين  
والفرنج على أرواحهم وأموالهم من ناحية كل من الظاهر بيبرس والفرسان  
الأسبترارية ، وهو بند تضمنته جميع المهادنات التي سجلها القلقشندي في  
« صبح الأعشى » :

« . . . . . وعلى أن التجار السفارة والمتردين بالبضائع من بلاد  
المسلمين والنصارى متى ما خرجوا من الموانئ المحددة أعلاه يتوجهون

---

(١) مدة الهدنة عشر سنين وعشرة أشهر . أنظر نصها الكامل في صبح الأعشى - ج ١ -

ص ٤٢ - ٥١ .

(٢) صبح الأعشى - ج ١ - ص ٤٤ - ٤٥ .



بمخفارة (١) الجهتين من غير حق : لا يتناول من المخفارة شىء منسوب إلى نفوسهم إلى أن يخرجهم ويحضرهم إلى بر حدود المرقب آمنين مطمئنين تحت حفظ الجهتين . ومتى وصل التجار من مملكة السلطان إلى بلاد المرقب وموانئها ، فالترتيب على المخفارة من الجهتين ، مع تدرك الرؤساء الحفظ للطرق صادراً ووارداً بحيث إنهم يحضرون إلى بلاد المرقب : ، وإلى الموانئ بالمرقب المحدودة أعلاه ، طيبين آمنين على أرواحهم وأموالهم بالمخفارة من الجهتين ، على ما شرحناه . . . . » (٢) .

وورد في نفس الهدنة نص ثالث جاء به أنه في حالة فسخاؤها يؤمن التجار من الجهتين ، وقد تحددت المدة التي يؤمنون فيها على أنفسهم وأموالهم بأربعين يوماً . وفيما يلي النص :

« . . . . ومتى وقع - والعياذ بالله - فسخ بسبب من الأسباب ، كان التجار والسفار آمنين من الجهتين ، وتكون النهاية لهم أربعين يوماً . . . . » (٣) .

وفي هدنة رابعة عقدت بين الملك المنصور قلاوون الصالحى (٤) وولده الملك الصالح على وبين حكام الفرنج بعكا وما معها من بلاد سواحل الشام في يوم الخميس ٥ ربيع الأول ٦٨٢ هـ ( ١٢٨٣ م ) ، إشارات عديدة لها أهمية خاصة في هذا الشأن (٥) . إذ جاء في أحد بنودها شرط خاص بما يتبع حيال

(١) أى حراسة .

(٢) صبح الأعشى - ج ١٤ - ص ٤٧ .

(٣) صبح الأعشى - ج ١٤ - ص ٥٠ - ٥١ .

(٤) تولى المنصور سيف الدين قلاوون الصالحى الحكم ١٢ سنة ، من (٦٧٨ إلى ٦٨٩ هـ)

(٥) (١٢٧٩ - ١٢٩٠ م) ، ومات وهو في السبعين من عمره .

(٥) مدة الهدنة عشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات . أنظر النص الكامل لها

في صبح الأعشى - ج ١٤ - ص ٥١ - ٦٣ .

مراكب الطرفين التي تنكسر أو تفرق في البلاد التي انعقدت عليها الهدنة ،  
وكيفية معاملة من عليها من التجار :

« . . . . . وعلى أنه إذا انكسر مركب من مراكب تجار السلطان  
وولده التي انعقدت عليها الهدنة ، ورعيتهما من المسلمين وغيرهم  
على اختلاف أجناسهم وأديانهم ، في مينا عكا وسواحلها ، والبلاد  
الساحلية التي انعقدت عليها الهدنة ، كان كل من فيها آمناً على  
الأنفس والأتباع والمتاجر . فإن وجد أصحاب هذه المراكب  
التي تنكسر تسلم مراكبهم وأموالهم إليهم وإن عدموا بموت أو  
غيبه ، فيحتفظ بموجودهم ويسلم لنواب السلطان وولده . وكذلك  
المراكب المتوجهة من هذه البلاد الساحلية المنعقد عليها الهدنة  
للفرنج يجرى لها مثل ذلك في بلاد السلطان وولده . ويحتفظ  
بموجودها إن لم يكن صاحبها حاضراً إلى أن يسلم لكفيل المملكة  
بعكا أو المقدم . . . . . » (١) .

ونص بند آخر في نفس الهدنة على مايتبع عند وفاة أحد التجار من الجهتين  
من حيث المحافظة على أمواله إلى أن يتسلمها المختصون :

« ومضى توفي أحد من التجار الصادرين والواردين : على اختلاف  
أجناسهم وأديانهم من بلاد السلطان وولده في عكا وصيدا وعثليت  
والبلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة على اختلاف أجناسهم  
وأديانهم ( فيحتفظ على ماله حتى يسلم لنواب السلطان وولده )  
وإذا توفي أحد في البلاد الإسلامية الداخلة في هذه الهدنة ، يحتفظ  
على ماله إلى حين يسلم إلى كفيل المملكة بعكا والمقدمين » (٢) .

(١) صبح الأعشى - ج ١٤ - ص ٥٨ - ٥٩ .

(٢) صبح الأعشى - ج ١٤ - ص ٥٩ .

هذا ، بالإضافة إلى النص الذى يرد عادة فى مثل تلك المهادنات الخاص بتأمين التجار المسافرين وعدم تحصيل شىء منهم لم تجربه العادة :

« . . . . . وعلى ألا يجبد على التجار المسافرين : الصادرين والواردين من الجهتين حق لم تجربه عادة ، ويجروا على عوائدهم المستمرة إلى آخر وقت ، وتؤخذ منهم الحقوق على القادة المستمرة ، ولا يجدد عليهم رسم ولا حق لم تجربه عادة . وكل مكان عرف باستخراج الحق فيه يستخرج بذلك المكان من غير زيادة من الجهتين ، وفى حالتى سفرهم وإقامتهم ، ويكون التجار ، والسفار ، والمترددون آمنين مطمئنين مخمّرين من الجهتين فى حالتى سفرهم وإقامتهم ، وصدورهم وورودهم بما صحبتهم من الأصناف والبضائع التى هى غير ممنوعة » (١) .

وإذا نظرنا إلى الأمور نظرة أكثر عمقاً ، وربطنا بين تلك المهادنات التى أسلفنا الإشارة إليها وبين الأحوال السياسية السائدة فى الشرق الأدنى وقتذاك ، نجد أن إمارات اللاتين بالشام كانت وقتها أى فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر — قد فقدت الأمل بالفعل فى أية مساعدة يقدمها لها أهل الغرب الكاثوليكي تمكّنها من صد هجمات البحرية . لقد أخذ المماليك بمصر فى توجيه الضربات القاضية إلى حكم اللاتين بالساحل الشامى . فعزى الظاهر بيبرس يغير على ممتلكاتهم فيما بين سنتى ٦١٣ هـ (١٢٦٥ - ١٢٦٨ م) (والى يترجها انتصاره عليهم فى أنطاكية فى رمضان ٦٦٦ هـ (مايو ١٢٦٨ م) . وكان احتلال هذا الحصن المنيع نذيراً بأنهيأ حكم الصليبيين وتلاشى دولتهم فى

الشرق (١). ثم واصل المنصور سيف الدين قلاوون سياسة يبرس من حيث شنه انهجمات المتكررة على باقى ممتلكات اللاتين بالشام ، وأهمها استيلائه على طرابلس فى ربيع الآخر سنة ٦٨٨ هـ (ابريل ١٢٨٩ م) (٢) ويتزوج السلطان الأشرف خليل هذا الجهاد المتصل باستيلائه فى جمادى الأولى ٦٩٠ هـ (مايو ٢١٩١ م) على عكا آخر معاقل الصليبيين الهامة بالأرض المقدسة . ولم يبق لهم بعدئذ على الساحل الشامى سوى أمكنة فردية ضعيفة هى : صيدا وصور وحيفا طردهم المسلمون منها نفس السنة (٣). وفى ظل هذه الظروف التى تم فيها القضاء على البقية الباقية من سلطنة اللاتين الغربيين فى الأراضى المقدسة والتى اعتدل فيها ميزان القوى بشكل واضح وحاسم لصالح المسلمين ، تم إبرام المهادنات المشار إليها أعلاه بين المسلمين والفرنج بالشام ، تلك المهادنات التى تضمنت بنودا صريحة تكشف عن هذا التغير الكبير الذى طرأ على ميزان القوى بين الفريقين فى رقعة الشرق الأدنى . وتبين أن سلاطين المماليك كانوا يمتنون لإرادتهم على إفرنج الشام وهم فى مركز القوة .

وإذا كانت تلك المهادنات تكشف عن مدى اهتمام الجهات المسئولة بمصر بأمر التجارة لما كانت تدره عليها من أموال ساعدتها على تقوية نفسها وتعزيز

(١) راجع النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب - مخطوط مصور بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٤٩ معارف عامة - ج ٢٨ - لوحة ٩٤ - ٩٦ ، الكتبى : فوات الوفيات - ج ١ (القاهرة ١٢٩٩ هـ) ص ٨٧ و ٨٩ ، المقرئى : السلوك لمعرفة دول الملوك نشر وتحقيق الدكتور محمد مصطفى زيادة - ج ١ قسم ٢ (القاهرة ١٩٣٦) ص ٥٦٧ - ٥٦٨ .

(٢) المقرئى : السلوك - ج ١ قسم ٣ (القاهرة ١٩٣٩) ص ٧٤٧ - ٧٤٨ .

(٣) يبرس اللوادر المنصورى : زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة - مخطوط مصور بمكتبة جامعة القاهرة تحت رقم ٢٤٠٢٨ تاريخ - ج ١٠ - لوحة ٢٨٢ - ٢٨٩ . أنظر أيضا ص ٢٠ ح ٤ من هذا البحث .

جيشها وأسطولها في مواجهة الصليبيين الغزاة في فلسطين في وقت أخذ فيه المماليك بمصر زمام المبادأة بينما التزم أعداؤهم بسياسة الدفاع عن أنفسهم وعن كياناتهم المتداعى بوجه عام - فإن المكاتبات التي تبودلت سلاطين المماليك والفرنج بالشام إبان تلك الحقبة من الزمن لا تقل في أهميتها ودالاتها عما تقدم . من ذلك ؛ الكتاب الذي بعث به ميخائيل دوج البندقية سنة ١٤١١ م ( ٨١٤ هـ ) مع رسوله نيحولا البندقى إلى الملك الناصر فرج . وقد أشار فيه إلى تردد التجار البنادقة على الديار المصرية وهم آمنين مطمئنين يتمتعون بعدل السلطان ورعايته . وفي ختام الكتاب يوصى الدوج السلطان المملوكى خيرا بالقنصل البندقى فى الإسكندرية بالرعايا والتجار البنادقة حتى يطمئنون على أنفسهم ويترددوا على مملكته (١) .

وثمة كتاب آخر ورد من القبطان الجنوى بميناء الماغوصية بقبرص إلى الناصر فرج فى نفس السنة ، يلتبس فيه حسن معاملة التجار الجنوبية فى مصر ونشر العدل بينهم والتحقيق فى شكاياتهم مع كف أسباب الضرر عنهم . وقد أوضح القبطان فى رسالته أن المراكب الجنوبية لاتتوانى من ناحيتها عن حماية مسلمى مصر من التجار والمسافرين من مضايقات القراصنة الأجانب (٢) .

وإن دل هذا على شىء فعلى انتعاش حركة التجارة فى مصر خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر بعد موت الفكرة الصليبية ، وعلى تردد التجار الإيطاليين عليها وهم آمنين . وكان المسئولون بمصر يبذلون جهدهم

---

(١) صبح الأعشى - ج ٨ - ص ١٢٣ - ١٢٤ . هذا ، ولم نعث فى وثائق «صبح الأعشى» على رد السلطان المملوكى على رسالة دوج البنادقة ، كذلك لم نستدل من تلك الوثائق ما يبين أنه بعث برده عليها .

(٢) صبح الأعشى - ج ٨ - ص ١٢٤ - ١٢٥ . سبق الإشارة إلى هذين الكتابين فى شئ من التفصيل والتحليل عند التعرض للعلاقات بين كل من البندقية وجنوة من ناحية وبين مصر من ناحية أخرى .

لتهيئة سبل الراحة والإقامة لهم . والمبادرة بحل مشاكلهم ، والنظر في شكاياتهم . وإن كان هذا لا يمنع من القول بأن مصر كانت تبادر بوقفهم عند حدهم والتشدد في معاملتهم إذا تصرفوا تصرفاً يضر بالبلاد ومصالحها العليا . ونجد مثلاً لذلك في موقفها من تصرفات بعض التجار البنادقة والجنوية زمن الناصر فرج .

وثمة دلائل على أن السلطات الحاكمة بمصر قد وجهت اهتمامها لاجتذاب أكبر عدد من التجار الإيطاليين إليها . وأستلزم ذلك توجيه المزيد من الاهتمام إلى الثغور المصرية ، وبخاصة ثغرى الإسكندرية ودمياط ، وكان هذان - الثغران محط أولئك التجار ، ومركزاً لنشاطهم الاقتصادي . ووثائق «صبح الأعشى» غنية بالمادة في هذه الناحية .

لقد كانت الإسكندرية موضع اهتمام خاص باعتبارها أجل الثغور المصرية فهي تمتاز بموقعها التجاري الممتاز على البحر المتوسط ، ومينائها الصالح لرسو السفن . كما كانت توجد بها «الأسواق الممتدة وفيها ينسج القماش الفائق الذى ليس له نظير في الدنيا ، وإليها تهوى ركائب التجار في البر والبحر» (١) إذ تآق إليها سفن الفرنج محملة بالبضائع لبيعها للتجار المسلمين (٢) وكانت الإسكندرية قبل حملة بطرس الأول لوسنيان حاكم قبرص اللاتينى عليها سنة ٧٦٧ هـ (١٢٦٥ م) مجرد ولاية عادية . ولكنها استقرت بعد ذلك نيابة (٣) يكتب لنائبها تقليد من الأبواب الشريفة بمصر (٤) وكان استحداث هذه النيابة

(١) صبح الأعشى - ج ٢ - ص ٤٠٤ .

(٢) صبح الأعشى - ج ٢ - ص ٤٥٩ و ٤٦٦ .

(٣) صبح الأعشى - ج ١١ - ص ٤٠٥ .

(٤) صبح الأعشى - نفس الجزء والصفحة - أنظر نسخة التقليد الخاص بنيابة ثغر الاسكندرية الذى أثبتته القلقشندى في صبح الأعشى - ج ١١ - ص ٤٠٥ - ٤٠٧ . ويتضح منه مدى اهتمام المسئولين بمصر بأمر الثغور ، مما اقتضى العمل على رعاية التجار ونشر العدل =

في عهد الملك الأشرف شعبان بن حسين (١) ، مما يكشف عن الاهتمام الذي أخذ المسئولون يوجهونه إليها وقتذاك .

وإذا كانت الاسكندرية لموقعها الممتاز قد اجتذبت التجار الإيطاليين إليها ، فلم تكن دمياط تقل عنها أهمية . إذ امتازت بتفوقها الصناعي (٢) وموقعها القريب من الناحيتين الجغرافية والتجارية . والواقع أن مركزها الساحلي بين مصب فرع الدلتا الشرق وساحل البحر الأبيض جعل منها سوقا تجارية دولية تنقل إليها بضائع الشرق الأقصى عن طريق البحر الأحمر والنيل - تلك البضائع التي تحملها سفن الفرنج في البحر المتوسط إلى سواحل مصر والشام ، ومنها تنقل إلى الغرب الأوروبي . وكانت هذه التجارة تدر على

بينهم. وجدير بالذكر أن الوظائف التي كان يكتب بها بغير الاسكندرية كانت على نوعين . الوظائف الدينية وهي ثلاث : القضاء والحسبة ونظر الصادر ، والوظائف الديوانية وهي الأخرى ثلاث : ناظر المباشرة ويعرف أيضا بناظر الاسكندرية ، ونظر كتابة الدرج ، ونظر دار الطرز . أنظر صبح الأعشى - ج ١١ - ص ٤٠٨ - ٤٢٦ (١) صبح الأعشى - ج ٧ - ص ١٥٦ .

(٢) اشتهرت دمياط في العصر الوسيط ، وبخاصة في عهد الأيوبيين ، بأنها مدينة صناعية هامة تخصصت في صناعة النسيج واشتغلت بتصديره إلى الاسواق الخارجية . وتحدث عن ذلك الجغرافيون العرب وكتاب المسالك والممالك . أنظر اليمقوبي : كتاب البلدان - منشور في

Kamal, Y., Monumenta Cartographica Africae et Aegypti, t. III, fasc. I (1930), 540.

الاصطخرى : مسالك الممالك - منشور في

Kamal, op. cit., t. III, fasc. II (1932), 586.

ابن حوقل : المسالك والممالك والمفاوز والمهاك - منشور في

Kamal, op. cit., t. III, fasc. II, 652.

الفزويني : آثار البلاد وأخبار العباد - (طبع جوتنجن ١٨٤٨ م) ص ١٢٩ ، على مبارك : المخطط التوفيقية الجديدة - ج ١٠ (القاهرة ١٣٠٥ هـ) ص ٤٦ .

سلطان مصر أرباحا طائلة . (١) لذا كانت محاولات الغربيين احتلال دمياط والإسكندرية في عصر التوسع الصليبي من أشد وسائل مضايقة المصريين وعرقلة تجارتهم مع العالم الخارجى . (٢)

وهكذا كان تجار الجمهوريات الإيطالية يفدون على هذين الثغرين اللذين «أتى إليهما مراكب الفرنج بالبضائع فتبيع منها ما تحتاج إليه من البضائع» (٣) . كان هذا الاهتمام الزائد الذى وجهته مصر إلى التجارة والتجار الفرنج من جهة ، وإلى الموانئ والثغور المصرية المطلة على البحر الأبيض من جهة أخرى له ما يبرره ويدعو إليه . فقد كانت التجارة مصدر ثروة طائلة بالنسبة للبلاد أكسبتها القوة والمنعة فى الداخل والخارج . إذ ظلت دولة المماليك بمصر هى الدولة القوية التى لا منافس لها فى رقعة الشرق الأدنى حتى أواخر القرن الخامس عشر . ويكفى أنها تمكنت من إلحاق الهزيمة بالتتار فى بداية عهدها . كما أفلحت فى طرد الصليبيين من الساحل الشامى فى أواخر القرن الثالث عشر ، والوقوف فى وجه الحملات الصليبية المتأخرة فى القرن الرابع عشر ، ثم تأديب الغربيين بحملات إسلامية مضادة خلال القرن الخامس عشر (٤) .

(١) Jacques de Vitry, Historia Hierosolimitana, ed, Y. Kamal, Monumenta Cartographica, t. III, fasc. IV, 944; Guillaume de Tyr, Historia rerum in partibus transmarinis gestarum, ed. Kamal, op. cit., t. III, fasc. IV, 908; cf. also : Heyd, Hist. du com., I, 384.

(٢) نجد مثلاً واضحاً لذلك فى حملتى جان دى برين ولويس التاسع على دمياط فى النصف الأول من القرن الثالث عشر ، وكذلك حملة بطرس لوسنيان على الإسكندرية فى أواسط القرن الرابع عشر . ومن الواضح أن محاولات الغربيين الإستيلاء عليها معناه أن يصبح فى يد الفزاة مورداً مالياً له أثره فى توجيه السياسة العامة للدولة .

(٣) صبح الأعشى - ٣٦ - ص ٤٥٩ .

(٤) جوزيف نسم يوسف : الوحدة وحركات اليقظة العربية أبان العدوان الصليبي - ص ٣٠ - ٣١ و ٣٥ و ٣٧ وما بعدها والمواشى .



وكانت الأموال التي أمتلأت بها خزائن مصر تأتي عن طريق المكوس والضرائب التي يتم تحصيلها على بضائع التجار الوافدين على نغرى الاسكندرية ودمياط . (١) ولهذا السبب كان الاهتمام الزائد بتحصيل الأموال منهم ، وعدم التفريط في مستخرج حقوق المراكب الواصلة ، ولا يقلل متحصلها ، ولا ينقص حملها . (٢) وكان المقرر في الشرع هو أخذ العشر من بضائع التجار إذا شرط ذلك عليهم . وفي مذهب الشافعي أن للإمام أن يزيد في المأخوذ عن العشر وأن ينقص عنه إلى نصف العشر إذا دعت الحاجة إلى الازدياد من جلب البضاعة ومن الممكن أن يرفع ذلك عنهم إذا استوجبت المصلحة ذلك أيضا . وجدير بالذكر أنه كيفما كان تحصيل المكوس فلا يزيد على مرة واحدة من كل تاجر في كل سنة حتى لو رجع إلى بلاده ثم عاد بالتجارة في نفس السنة ، فلا يؤخذ منه شيء اكفاء بما أخذ منه في المرة الأولى

كانت هذه هي القاعدة المتبعة حيال التجار الوافدين بالبضائع على مصر بصفة عامة . ويخص القلقشندي تجار الفرنج بكلمة في هذه الناحية إذ يذكر أنه تقرر أن يؤخذ منهم الخمس أى ضعف العشر عن كل ما يصل لهم ، وربما زاد ما يؤخذ منهم على الخمس أيضاً (٣) وفي بعض المهادنات التي أبرمت

(١) صبح الأعشى - ج ٣ - ص ٤٦٦ .

(٢) صبح الأعشى - ج ١٣ - ص ٩٦ . أنظر تذكرة الملك الصالح على بن المنصور قلاوون لكافل السلطنة بمصر الأمير كيتفا سنة ٦٩٩ هـ (١٢٧١ م) في صبح الأعشى - ج ١٣ ص ٩١ - ٨ .

(٣) صبح الأعشى - ج ٣ - ص ٤٥٩ . وهذه المكوس المتحصلة على البضائع الواردة إلى مصر مع التجار منها ما يختص بالديوان السلطاني مثل البضائع التي قد تصل للتجار المسلمين إلى ساحل الاسكندرية ودمياط فيؤخذ منها المرتب السلطاني على ما توجبه الضرائب ، ومنها مالا اختصاص له بالديوان السلطاني والمقصود به المكوس المتفرقة بالبلاد . أنظر صبح الأعشى - ج ٣ - ص ٤٦٤ - ٤٦٧ .

بين سلاطين مصر من المماليك البحرية وبين إفرنج الشام خلال النصف الثاني من القرن الثالث عشر ، مثل هدية رمضان ٦٦٩ هـ (١٢٧١ م ) بين الظاهر بيبرس والفرسان الاستبارية ، كان يتم الاتفاق على مناصفه مايتحصل من التجار من الضرائب والمكوس في الثغور والموانئ التي تشملها الهدنة ، وفقا للعادة المتبعة (١) .

و كان يتم تقدير المقدرات بواسطة الموازين والمقاييس المتعارف عليها . ومن أهم آلات المعاملة بمصر وقتذاك الميزان والذراع . (٢) أما عن العملات التي كان يتم التعامل بها . فهناك الدنانير المصرية التي يتم التعامل بها وزنا كالذهب المصري . وهناك مايبقى إلى مصر من العملات المسكوكة في غيرها من الممالك الفرنجية ، ويتم التعامل بها عادة . وهى عبارة عن دنانير معلومة الأوزان يؤتى بها من بلاد الفرنج ، وعلى أحد وجهيها صورة الملك الذى تضرب في زمنه وعلى الوجه الآخر صورتا القديسين بطرس وبولس . وتعرف هذه العملات باسم «الدنانير الافرنجية» نسبة إلى «إفرنسة» أو «إفرنجة» . (٣) وهناك نوع آخر من الدنانير يعرف باسم «الدوكات» ، وهو لا يطلق إلا على الدنانير التي تضرب في البندقية نسبة إلى صاحبها «الدوك» أو «الدوج» . (٤) ويبدو من إشارات القلقشندي المتكررة إلى «دوكات» البندقية أنها كانت منتشرة بمصر في عصره وأنه كان يتم التعامل بها ، مما يكشف عن ثباتها واستقرارها . ، فضلا عن الخطوة التي كانت تتمتع بها البندقية من قبل مصر

---

(١) أنظر صبح الأعشى - ج ١٤ - ص ٤٥ .

(٢) صبح الأعشى - ج ٣ - ص ١٤٦ و ١٤٧ - ١٤٨ .

(٣) الافرنجية جمع افرنجى وأصلها افرنسى نسبة إلى افرنسة وهى مدينة من مدن الفرنج ، وربما قيل فيها افرنجة التي تنسب إليها طائفة الفرنج ، وهى مقر ملكهم الذى يعرف بالفرنسيس ، أى ملك الفرنسيين . أنظر صبح الأعشى - ج ٣ - ص ٤٣٧ .

(٤) صبح الأعشى - نفس الجزء والصفحة .

ولاشك أن تلك الخطوة تفوق تلك التي كانت تتمتع بها كل من جنوة وبيزة .

لقد أولى القلقشندى موضوع التجار الفرنج وعلى رأسهم التجار الإيطاليين الذين يفدون على مصر اهتماماً كبيراً في وثائقه . فزراه يتحدثنا بإسهاب وتفصيل عن ألقابهم التي اصطلاح عليها لمكاتبهم عن الأبواب الشريفة بمصر وتكشف هذه الألقاب عن المكانة التي كان يتمتع بها أولئك التجار من ناحية والصفات الواجب توافرها فيهم من ناحية أخرى . فهم الرسل والسفار بين الملوك والقادة والحكام ، وهم المصلحون بين القوم ، وهم المؤتمنون على الأسرار . أما الصفات الواجب توافرها فيهم فهي ، في المرتبة الأولى : الصدق والأمانة ، والإخلاص والإستقامة ، والثقة ، وحسن السمعة ، وكنيان السر ، وما إلى ذلك من الخصال الحميدة .

فن ألقابهم التي أشار إليها صاحب «صبح الأعشى» «السفيري» نسبة إلى السفير ، وذلك لسفارة التاجر منهم بين الملوك وتردده في الممالك لجلب الجوارى والماليك ونحو ذلك . (١) ويلقب الواحد منهم «الصدر» لتصدره في المجالس ، وهو أيضاً «الصدري» نسبة إلى الصدر للمبالغة (٢) . وهو «المقرب» لأنه مقرب عند الملوك ومن في معناهم و «المقرب» نسبة إليه للمبالغة . وهو كذلك «المنتخب» و «المختار» ، وهو «المؤتمن» لأنه يؤتمن على الممالك والجوارى في السفر وعلى أخبار الممالك وأحوالها فلا يفشى أسرارها ، (٣) وهو «الأمين» لاثمائه على ما يحمله من بضائع و «الأميني» نسبة إليه للمبالغة . ويلقب أيضاً بـ «أوحد الأكابر» ، و «أوحد الكبراء» و «تاج الأمناء» و «ثقة الدول» وقد خص

(١) صبح الأعشى - ٦٦ - ص ١٥٩ .

(٢) صبح الأعشى - ٦٦ - ص ١٨ .

(٣) صبح الأعشى - ٦٦ - ص ٣٠ و ٣١ .

التجار بهذا اللقب الأخير لترددهم في الدول والممالك. ويلقب به أيضا المترددون في الرسائل بين الملوك. ومن ألقاب التجار أيضا ألقاب مثل : «جمال الأكابر» و«زين الأكابر» ، و«شرف الأصفياء المقربين» واللقب الأخير من ألقاب كبار التجار ، وكذلك «شرف الرؤساء في العالمين» وفخر الأعيان» ، وفخر الرؤساء ، و«فخر الصدور» ، و«مجد الرؤساء» ، و«مجد الصدور» ؛ و«مقرب الحضرتين» إذا كان مترددا بين مملكتين ، ومقرب الدول وهذا اللقب الأخير أعم من سابقه وهو أيضا ناصح الملوك والسلاطين « (١) . ومن بين ألقابه «المحتشم» ويذكر صاحب «صبح الأعشى» أنه من الألقاب التي أصطلح عليها لتجار الفرنج بالذات ، والمقصود بذلك الرئيس الذي له خدم وحشم (٢) .

وإذ كانت وثائق «صبح الأعشى» قد أمدتنا بمادة وفيرة في هذه الناحية تعبر عن وجهه نظر كاتب مصرى عاش في أواخر العصر الوسيط ، فهناك من الجانب الآخر وثيقة باللاتينية ترجع إلى نفس الوقت تقريبا كتبها أحد التجار الإيطاليين عنوانها «التاجر» تعزز ما جاء في كتاب القلقشندي . وتعاصر الوثيقة المذكورة سقوط القسطنطينية في أيدي الأتراك العثمانيين وأنتهاء حرب المائة عام بين إنجلترا وفرنسا ، أي أنها تعاصر نهاية العصر الوسيط بنسلفته ومثله وتقاليده المعروفة ، وبداية عصر النهضة بمفاهيمه ومبادئه الجديدة المغيرة . إذ تغير وضع التجار كثيراً عما كان عليه من قبل ، وتحسن مركزهم تحسناً ملموساً

(١) أنظر صبح الأعشى - ج ٦ - ص ١٠ و ١٣ و ٣٨ و ٣٩ و ٤١ و ٤٢ و ٥٢ و ٥٥ و ٥٦ و ٦٢ و ٦٨ و ٦٩ و ٧١ و ٧٣ .

(٢) صبح الأعشى - ج ٦ - ص ٨٣ . وقد ذكر القلقشندي أن الألقاب السابقة تطلق على التجار بصفة عامة ومن بينهم تجار الفرنج بطبيعة الحال ، اللهم إلا إذا حدد التجار الفرنج . وعلى هذا فالألقاب المذكورة تنسحب على تجار الجمهوريات البحرية الإيطالية كالبندقية وجنوة وبيزة ، الذين كانوا يتعاملون مع مصر مثلاً تنطبق على غيرهم من التجار .

خلال الأربعمئة سنة الممتدة من القرن الحادى عشر إلى القرن الرابع عشر : أكثر مما طرأ على أحوالهم من تغيير فى القرون التالية . وغنى عن البيان أن من أهم مظاهر العصر الوسيط المتأخر هو قيام طبقة التجار التى كان التجار الإيطاليون طليعتها ، واحتلال هذه الطبقة الجديدة مكانة مرموقة فى المجتمع مما جعلها تسيطر على اللوردات الإقطاعيين فى الغرب ، وتشكل المجتمع هناك تشكيلا يختلف تماماً عما كان سائداً من قبل .

وتعرض هذه الوثيقة الهامة للتاجر ومهنته ، وهى تدعم ما جاء فى وثائق «صبح الأعشى» وتسد فى نفس الوقت الفجوات التى لم ترد بها . يذكر الكاتب الإيطالى أن التاجر يجب أن يكون مستعداً للتضحية بكل شئ فى سبيل الصالح العام ، مبيناً أن ما أصابته الجمهوريات الإيطالية من تقدم ورخاء إنما يرجع يرجع الفضل فيه إلى التجارة . ذلك أن التجارة تؤدى إلى تلبية الاحتياجات المتبادلة بين المدن والبلدان . ويقوم التجار بدور هام فى هذا الشأن . فهم الذين يجلبون معهم فى رحلاتهم وأسفارهم كميات وافرة من العملات والمجوهرات ومختلف أنواع المعادن كالذهب والفضة وهم الذين يهيئون سبل العيش والرزق للفقراء والمعوزين . كذلك يؤدى تصديرهم للبضائع واستيرادهم لها إلى ازدياد حصيلة الفوائد والرسوم الجمركية التى تقوم الجمهوريات المشغلة بالتجارة بجبايتها ، فتمتلئ خزائنها بالمال ، وتتعش أحوالها . وإذا كان للتجارة مزاياها فهناك صفات يجب توافرها فى التاجر ، من أهمها حسن التدبير ، والاقتصاد دون تقتير أو تبذير ، والثبات ، والاعتدال ، والاستقامة والإخلاص . فكل هذا يساعد على إنماء ثروتهم وتحسين أحوالهم . يضاف إلى ما تقدم أن التاجر يجب أن يتعاون بإخلاص مع من يتعامل معهم فى حياته الخاصة والعامة : فى المجال الخاص يجب أن يرتبط بأسرة شريفة فى حياة

مستمرة مثمرة . وفي المجال العام يجب أن يتعاون تعاوناً صادقاً مع غيره من أرباب المهن والحرف ، ومع سادة المجتمع من رجال الدنيا والدين . ويشترط في التاجر أن يكون مثقفاً صالحاً . فالتاجر المثقف الصالح يفد عليه الجميع من كل مكان لرؤيته والتعرف عليه والتحدث معه والاستماع إليه والإفادة منه ، طالما هم بحاجة إليه وإلى خبراته التي اكتسبها من أسفاره ومن ممارسته للتجارة . وفي ختام الوثيقة يشير إلى السمعة الطيبة والسيرة الحسنة والثقة الكبيرة التي يجب أن يتمتع بها التاجر ، عمله وفي علاقاته بالآخرين . ويقول إن إيصالاً عادياً لأحد التجار الموثوق بهم يعتبر إيصالاً قانونياً معترفاً به دون أي شهود أو إثباتات ، في حين تنعدم الثقة في أي شخص آخر مهما كانت رتبته ما لم يكن هناك ضمانات وتحولات كافية . وحتى يحافظ التاجر على هذا المركز الرفيع الذي يتمتع به يجب أن يخلص نفسه مما لا يليق بكرامته وشرف مهنته . فيكون جاداً في حديثه ، متزناً في خطواته ، محافظاً على شرفه معتدلاً في تصرفاته ، حسناً في سيرته . (١)

ولمتسائل أن يقول : هل كانت هذه المثل العليا في ميدان التجارة والتي أشار إليها كل من القلقشندي والكاتب الإيطالي تراعى على طول الخط ؟ الواقع أنها كثيراً ما كانت تنتهك ، مما يكشف عن الفجوة الواسعة بين النظرية والتطبيق في مجتمع العصور الوسطى . لقد سبق الكاتيبين المسلم والمسيحي ، واعظ من الرهبان الفرنسيسكان عاش في القرن الثالث عشر يدعى برتولد أوف ريجنسبورج Berthold of Regensburg وتحدث في إحدى

---

(١) أنظر الترجمة الانجليزية للوثيقة المذكورة في كتاب Downs, N. (ed.), Basic Documents in Medieval History (New York, 1959), 184—6; Lopez & Raymond (trans.), Medieval Trade in the Mediterranean World, 416—8.

عظاته عن أهمية الثقة والسمعة الطيبة في التجارة ، وضرورة تمسك التجار بالقيم والمثل العليا من حيث الأمانة وعدم الغش ومراعاة الذمة والضمير في عملهم . ثم يقول إن هذه المثل لم تكن تراعى تماماً . ويتحدث عن الوسائل العديدة التي كان التجار يلجأون إليها لخداع الشعب المسكين والحصول على السلع بأرخص الأثمان . ويعلق أحد المؤرخين الغربيين المحدثين ، وهو جورج جوردون كولتون G. G. Coulton على ذلك قائلاً إن ما أكدته ريجنسبورج في القرن الثالث عشر ، كان لا يزال هو الوضع القائم خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، اللذين انتهت بهما العصور الوسطى وبدأت تباشير عصر جديد (١) .

ولكن في أواخر القرن الخامس عشر يحدث تغيير هام كانت له آثاره الخطيرة في التاريخ والاقتصاد العالمى وقد ترك أثره في العلاقات بين ممالك مصر والجزائريات التجارية الإيطالية . ففي عام ١٤٨٩ م تمكن فاسكودى جاما Yasco da Gama البرتغالى من تطوير رأس الرجاء الصالح والالتفاف حول طرف أفريقيا الجنوبية في طريقه إلى الهند . ولقد أدى : اكتشاف البرتغاليين لهذا الطريق التجارى الجديد من ناحية إفريقية إلى نزاع الممالك الجراكسة (٢) في مصر وضياع الثروة الهائلة التى كانوا يجنونها من وراء التجارة مع العالم الخارجى بصفة عامة ومع الجمهوريات البحرية الإيطالية بخاصة . وقاموا ببعض المحاولات للدفاع عن كيانهم دون جدوى ، إذ كان الزمام قد أفلت من أيديهم ولم يعد من الممكن إرجاع عقارب الساعة إلى الوراء

---

(١) أنظر كولتون : عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة (الترجمة العربية) ط . ثانية

- ص ١٩٧ - ١٩٩ و ٢١٣ - ٢١٤ .

(٢) حكم الممالك الجراكسة من سنة ٧٨٤ إلى سنة ٩٢٣ هـ (١٣٨٢ - ١٥١٧ م) .

وقد ترقبت على ذلك نتائج بالغة الأهمية من حيث ضعف الممالك في مصر إلى أن انتهى الأمر بزوال حكمهم بعد انتقال التجارة من حوض البحر المتوسط والدول المحيطة بشواطئه إلى المحيط الغربي وأمه . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ؛ أوجدت الثروة الفرصة أمام التجار الإيطاليين والأغنياء لتشجيع العلوم والآداب والفنون ، مما عجل بزوال آخر آثار العصر الوسيط ومهد لظهور عصر النهضة في التاريخ الأوروبي الذي مهد بدوره للعصر الحديث ومدنيته الزاهرة (١)

---

La Monte, J., *The World of the Middle Ages* (New York, (١)  
1949), 732; Painter, S., *A History of the Middle Ages : 284—1500*  
(London, 1966), 477—8; Mackie, J. D., *The Earlier Tudors: 1485—1558*  
(Oxford, 1966), 4, 224; Bailly, A., *La Sérénissime République de Venise*  
(Paris, 1946), 167—70.





البحث الرابع  
نقطة التلاقى والصراع  
بين أوروبا العصور الوسطى والشرق  
(القرن ١٠ - ١٥ م)

تأليف

جوزيف فوزار

ياروسلاف سيزار

ترجمة

وتقديم وتعليق

جوزيف نسيم يوسف

نشرت هذه الدراسة في مجلة «عالم الفكر» - المجلد العاشر - العدد الأول  
(أبريل - مايو - يونيو ١٩٧٩) - الكويت ١٩٧٩ - ص ٢٣٣ - ٢٤٨



هذه ترجمة المقال التالى :

Cesar, Jaroslav & Vozař, Jozef,

Contact and Conflict between the Medieval Europe and the Orient  
( 10th - 15th Centuries), in XIV International Congress of Historical  
Sciences, Sanfrancisco, August, 22—29, 1975, pp. 1—16.

مع التقديم له والتعليق عليه .

## كلمة المترجم

عنوان هذه الدراسة الجادة القيمة هو :

«نقاط التلاقى والصراع بين أوروبا العصور الوسطى والشرق (القرن ١٠ - ١٥ م)». وقد أُلقيت باللغة الانجليزية فى المؤتمر الدولى الرابع عشر للعلوم التاريخية والذي عقد بمدينة سان فرانسيسكو فى الفترة الواقعة من ٢٢ إلى ٢٩ أغسطس ١٩٧٥ . وقام بأعدادها العالمان التشيكوسلوفاكيان ياروسلاف سيزار وجوزيف فوزار . أما الفترة الزمنية التى تتناولها فهى العصور الوسطى الحقيقية التى تشغل القرون العاشر والحادى عشر والثانى عشر الميلاديه . وأخريات العصور الوسطى التى تشغل القرون الثلاثة التالية لها .

والبحث يتناول ثلاثة عناصر رئيسية :

أولها مدى معرفة كل من أوروبا العصور الوسطى والشرق بالطرف الآخر خلال تلك الفترة من الزمن . ويمهد له الكاتبان بتعريف واضح لمفهوم «الشرق» « Orient » ومدلوله فى الحقبة الوسيطة من التاريخ من وجهة نظر الغرب الاوروبى ، ومن خلال مصادر العصور الوسطى الأوروبية ، فى وقت لم يكن قد تبلور فيه بعد هذا التمييز الدقيق بين كل من الشرق الأدنى والشرق الأوسط والشرق الأقصى . ويخلصان إلى أن «الشرق» بالنسبة للغرب اللاتينى آنذاك إنما يمثل البلاد الواقعة على السواحل الشرقية والجنوبية الشرقية للبحر المتوسط ، إلى جانب البلاد الموعلة فيما وراء ذلك شرقا . وكان البحر المتوسط هو همزة الوصل بين أوروبا والشرق ، وإن كانت معرفة كل منهما بالآخر قد تباينت وأختلفت الظروف والزمان والمكان . وقد هيأت الدولة البيزنطية والمدن البحرية الايطالية وبعض جزر البحر المتوسط ، المناخ الملائم لتعرف كل منهما بالآخر .

ويشير الكاتبان في العنصر الثاني إلى طرق المواصلات الرئيسية بين أوروبا والشرق آنذاك ، وفي مقدمتها البحر المتوسط والبحر الاسود ، بأعبارهما من الشرايين الحيوية للمواصلات والاتصالات بين شتى العالم في فترات السلم والحرب على السواء . هذا ، إلى جانب البحر الاحمر والمحيط الهندي وطرق التجارة البرية المعروفة داخل القارة الاوروبية وخارجها .

والعنصر الثالث والأخير من هذه الدراسة يعالج حدود الالتقاء والصراع بين أوروبا والشرق خلال تلك القرون الستة التي ينتهى بنهايتها العصر الوسيط بكل أفكاره ومثله وفلسفته ، ويبدأ عصر جديد في تاريخ البشرية بمفاهيم واوضاع جديدة مغايرة . ويصل الكاتبان إلى حقيقة تاريخية ، وهى أنه وجد نوع من توازن القوى بين العالمين الاسلامى والمسيحى ابان تلك الاعوام الستمائة الممتدة من القرن العاشر إلى القرن الخامس عشر للميلاد (من القرن الرابع إلى القرن التاسع للهجرة ) ، وأن هذا التوازن فى القوى لم يسمح لأى منها بتفوق مطلق على الطرف الآخر ، بحيث كان مركز الثقل يتأرجح بين كليهما وفقا لمقتضيات - الظروف والاحوال فى كلا العالمين من سياسة واجتماعية واقتصادية وثقافية وغيرها .

ولقد اقتضى الأمر نقل البحث إلى اللغة العربية إضافة عدد قليل جدا من العبارات الموجزة إلى المتن بقصد الايضاح أو التعريف . وتميزنا لها عن الأصل الانجليزى المترجم فقد وضعنا كل أضافة منها بين حاصرتين . كذلك ضمنا الترجمة فهرسا بعناصر البحث ومحتوياته ، وذيلناها ببعض التعليقات التى رأينا أن طبيعة الموضوع تستلزم تزويده بها .

• مدى معرفة كل من أوروبا العصور الوسطى والشرق بالطرف الآخر :

أن مفهوم الشرق « Orient » في حد ذاته ، مفهوم يفسر نفسه بنفسه إلى حد ما ويمكن تعريفه من وجهة نظر الفرد الأوروبي فقط . وبخاصة الأوروبي الغربي ، بأنه مايقع في اتجاه الشرق . ولم يكن مألوفا بعد في مصادر العصور الوسطى الأوروبية ذلك التمييز العميق الجذور الذي جاء فيما بعد بين كل من الشرق الأدنى والشرق الأوسط والشرق الأقصى . والمقصود بالشرق الأدنى حوض الليفانت : وهو الحوض الشرقي للبحر المتوسط والبلاد الأخرى الواقعة إلى الشرق منه . بينما يقصد بالشرق الأوسط الأراضي الممتدة من وادي نهري دجلة والفرات ، فضلا عن المنطقة الممتدة من الهند إلى بورما وسيلان . أما الشرق الأقصى فيقصد به كل شيء الصين واليابان ، كما يدخل في نطاقه شرق سيبيريا وجنوب شرق آسيا . ولايرجع ذلك ، اطلاقا ، إلى نقص في المعرفة الجغرافية . لقد كان الشرق بالنسبة لأوروبا العصور الوسطى يمثل تلك البلاد الواقعة على السواحل الشرقية والجنوبية الشرقية للبحر المتوسط ، كما يمثل كل البلاد المتغلغلة في اتجاه الشرق . ولم يقصد بهذا المصطلح ، في معظم الأحوال ، العالم الاسلامي . فلم تدخل في نطاقه ، عادة ، كل من أسبانيا الاسلامية وشمال أفريقية ، وذلك باستثناء مصر :

ولقد جرت الصلات المتبادلة بين أوروبا والشرق عبر البحر المتوسط في العصور الوسطى على تقليد قديم ظل باقيا لم يتغير البتة . إذ حدد اتساع نطاق التجارة وازدياد كثافتها من ناحية ، ونمو العلاقات الشخصية من ناحية أخرى ، في الحقيقة . درجة المعرفة بالشرق . تلك المعرفة التي كانت شديدة التباين والاختلاف في مختلف البلدان الأوروبية فيما بين القرنين العاشر والخامس عشر الميلاديين (من القرن الرابع حتى القرن التاسع الهجري) .

وكان لدى بيزنطة « Byzantium » ، إلى حد بعيد ، أفضل المعلومات في هذا الخصوص ذلك أن الدولة البيزنطية كانت قد انغمست لقرون عديدة في كفاح أو تعايش سلمى مع جيرانها العرب وغيرهم من المسلمين (١) .

كذلك كانت المدن الإيطالية ، وقليل غيرها من مدن البحر المتوسط ، قبل قيام الحركة الصليبية ، على معرفة تامة بأحوال الشرق الأدنى من الناحيتين الجغرافية والاقتصادية . وكان هذا امرا عاديا ومألوفا آنذاك . هذا ، بينما انتشرت الاساطير والروايات المخرفة عن الشرق في اماكن اخرى في غرب أوروبا ووسطها ، وبصمة خاصة ، مايتعلق بالثقافة والمسائل العقائدية . وقد ذاع في بقية البلاد الأوروبية ، أيضا ، قدر لا بأس به من المعرفة عن اقرب البلاد الاسلامية منها ، نتيجة الخبرات الشخصية التي اكتسبها عشرات الآلاف من الصليبيين من شرق البحر المتوسط .

هذا من جهة ، ومن جهة اخرى كانت معرفة البلاد الاسلامية بالشعوب والبلاد الأوروبية تتميز ببعض السمات المشابهة . ذلك أن احسن المعلومات كانت ميسورة من اقرب الجيران ، والمقصود بذلك الامبراطورية البيزنطية وجزر البحر المتوسط . وكان يطلق (في المصادر العربية القديمة ) على معظم أهل الغرب الأوروبي مصطلح «الفرنج» أو «الفرنجة» (٢) بوجه عام . ونجد

---

(١) حول العلاقات بين الدولة البيزنطية والعالم الاسلامي ، أنظر مقال أ. أ. فاز يلييف A. A. Vasiliev المعنون «بيزنطة والاسلام» Byzantium and Islam والمنشور في كتاب: Baynes, N.H. and Moss, H.St. L.B. (eds.), Byzantium:

An Introduction to East Roman Civilization, Oxford, 1953, 308 ff.

(٢) الفرنجة ، أصلا ، أحد الاجناس الجرمانية التي كانت تعيش في أواسط آسيا قبل انهيار الامبراطورية الرومانية . وعندما اشتد الضغط عليهم من الشرق ، عبروا نهر الراين =



ايضا (في تلك المنابع والاصول) بعض المعرفة بتاريخ أوروبا والاجناس التي عاشت فيها ، ونضرب مثلا لذلك بالبابوات (١) . وكان العرب فيما بين القرنين

= واستقروا في غالة ، ونجحوا في أواخر القرن الخامس في تأسيس ملكية ثابتة الدعائم استقروا في ظلها . وأخذوا في مد نفوذهم حتى أصبحت غالة بأكملها تحت سيطرتهم . ومن أهم ملوكهم كلوفيس Clovis (٤٨١ - ٥١١) الذي يعتبر في الواقع مؤسس دولتهم التي استمرت حتى سنة ٧٥١ م أيام آخر ملوكهم الضعاف وهو شيلديريك الثالث Childeric . وكان هذا بداية دولة جديدة عرفت باسم الدولة الكارولنجية نسبة إلى مؤسسها شارلمان أو شارل العظيم . أنظر عن ذلك :

LaMonte, J.L., The World of the Middle Ages, New York, 1949, 46 f. ;  
Painter, S., A History of the Middle Ages, London, 1966, 20 ff.

وجدير بالذكر أن المصادر العربية التي ترجع إلى الفترة الوسيطة من التاريخ، والشرقية منها على وجه الخصوص ، تطلق على اللاتين الغربيين بصفة عامة لفظ «الفرنج» أو «طائفة الفرنج» سواء كانوا من الفرنجة أو من غيرهم من العناصر المتبربرة . كسبا تطلق على عناصرهم واجناسهم المختلفة عبارة «أمم الفرنج» أو «مالك الفرنج» وعلى حكامهم «ملوك الفرنج» . أنظر على سبيل المثال : ابن القلائس : «ذيل تاريخ دمشق (بيروت ١٩٠٨) ص ١٣٦ و ١٦٤ و ١٦٥ الخ ، ابن شداد : سيرة صلاح الدين الايوبي (مصر ١٣١٧ هـ) ص ١٥١ و ١٥٣ و ١٥٩ الخ ؛ القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الانشا ج ٣ (القاهرة ١٩١٤) ص ٣٧ ، ج ٥ (القاهرة ١٩١٥) ص ٢٧١ و ٢٧٢ و ٢٧٣ و ٢٧٤ و ٤٠٩ و ٤١١ و ٤١٢ و ٤٨٥ و ٨٦٤ (القاهرة ١٩١٥) ص ٣٤ و ٣٦ و ٣٨ و ٩٠ (القاهرة ١٩١٤) ص ٢٥٠ و ٢٥١ (القاهرة ١٩١٨) ص ٢٤ . وهذا يعني أن مفهوم كلمة «الفرنج» في تلك المصادر ينسحب على جميع أهل الغرب اللاتيني ، وأن كان هذا لا يمنع أن تلك المصادر كانت في بعض الاحيان تحدد العنصر الذي تتحدث عنه . أنظر هذا الخصوص :

Joinville & Villehardouin, Chronicles of the Crusades, trans. with an introduction by M.R.B. Shaw, London, 1963, 360.

(١) تزودنا وثائق «صبح الاعشى» للقلقشندي بمعلومات طيبة عن روما في العصور الوسطى وموقفها واهلها ، والبابا الروماني وتسميته والقاب و رسم المكاتبه إليه عن الديار المصرية . فهو «البابا الجليل ، القديس ، الروماني ، الخاشع ، العامل ، بابا رومية ، عظيم الملة المسيحية ، قدوة الطائفة العيسوية ، ملك ملوك النصرانية الخ» صبح الاعشى =

التاسع والحادى عشر الميلاديين (فيما بين القرنين الثالث والخامس الهجريين) على معرفة اوسع بالجزء الشرقى من أوروبا ، حيث ميزوا بين كل من الروس والسلاف القاطنين فى وسط أوروبا وبين غيرهم من الشعوب . وكيفما كان الامر ، فقد كانت معلوماتهم عن شبه جزيرة البلقان اقل من ذلك ، باستثناء البلغار الذين شكلوا هم وبزنطة بالنسبة للعرب عدوا مشتركا . ومن المؤكد أنه بدا واضحا أن العالم الاسلامى اعتبر البيزنطيين ، دون سواهم ، شركاء يقفون معه على قدم المساواة فيما يتعلق بالمستوى الثقافى ، على أنهم برابرة . ولم يطرأ على هذا التقييم تغيير يذكر حتى بعد انتهاء الحروب الصليبية (فى أخريات القرن الثالث عشر الميلادى / أواخر القرن السابع الهجرى) (١).

ولكن الذى تغير فعلا هو حجم ومقدار المعرفة التى حصل عليها المسلمون

---

== ج ٨ ص ٤٢ . وهو «قائم فى النصارى مقام الخليفة ، بل به عندهم يناط التحليل والتحرير ، وإليه مرجعهم فى أمر دياناتهم» ج ٥ ص ٧٢ . راجع أيضا نفس الجزء ص ٤٠٦ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٤٠٩ و ج ٦ (القاهرة ١٩١٥) ص ١٣ ، ٧٢ ، ٧٩ و ج ١ ص ٦٦ ، ٦٧ .

(١) وذلك عندما استولى الاشراف خليل ابن السلطان المملوكى المنصور قلاوون على عكا آخر معاقل الصليبيين الهامة على الساحل الشامى . وجدير بالذكر أن الفكرة الصليبية عاشت فى أذهان أهل الغرب بعد ذلك التاريخ نحو قرن من الزمان ، ولم تفقد صفاتها الحقيقية إلا بعد القرن الرابع عشر الميلادى (القرن الثامن الهجرى) . وفى خلال هذه الفترة وضعت المشروعات الضخمة ، والمؤلفات العديدة لغزو الشرق وحصار مصر اقتصاديا . كما قامت عدة حملات صليبية كانت آخرها وأوسعها نطاقا هى حملة نيكوبوليس الشهيرة سنة ١٣٩٦ م التى قامت بها أوروبا بأسرها لإخراج العثمانيين من شبه جزيرة البلقان فحسب ، بل للوصول إلى بيت المقدس فى قلب امبراطورية الممالك أيضا . وانتهت الحملة بهزيمة الصليبيين امام قوات السلطان بايزيد الأول حتى انه لم تقم لهم من بعد ذلك قائمة . انظر .

Atiya, A.S., The Crusade of Nicopolis, London, 1934; Idem, The Crusade in the Later Middle Ages, London, 1938, 435 ff., 480.

المثقفون عن غرب أوروبا وشرقها اعتباراً من القرن الثالث عشر الميلادى (القرن السابع الهجرى) فصاعداً. وإن تضاول معلوماتهم عن شعوب شرق أوروبا عندما كانت تحت سيطرة المغول ، قابله من الجانب الآخر قدر لا بأس به من المعلومات الطبية من الأجزاء الأخرى من القارة الأوروبية ، لاسيما المدن البحرية الواقعة فى غرب وجنوب أوروبا ، بما يفوق فى أهميته معلوماتهم عن الشرق الأوروبى وفى بواكير القرن الرابع عشر الميلادى (بدايات القرن الثامن الهجرى) وضع المؤرخ الفارسى رشيد الدين (١) مؤلفاً ، ضمن مؤلفاته

---

(١) هو رشيد الدين فضل الله بن عماد الدولة أبى الخير بن موفق الدولة على المتطبب الهمدانى ، المعروف بالرشيد الطبيب . ولد حوالى سنة ١٢٤٧ ومات مقتولاً سنة ١٣١٨ وقد ناهز السبعين من عمره . وهو من أشهر مؤرخى الفرس . وعلى الرغم من معرفته الطبية الواسعة ، فقد اشتهر بكونه رجل دولة ممتاز . وقد تقلد أرفع المناصب فى العهد الإيلخانى المغولى فى أوائل القرن الثامن الهجرى (أوائل القرن الرابع عشر الميلادى) ، وأصبح مؤرخاً للبلاط فى عهد غازان خان (١٢٩٥-١٣٠٤) . ولرشيد الدين عدة مؤلفات أشهرها على الإطلاق كتابه «جامع التواريخ» . وهو أساساً عبارة عن تاريخ للمغول يبدأ فى تدوينه استجابة لطلب غازان محمود خان ، ولذا يعرف الكتاب أيضاً باسم «تاريخى غازانى» . وبعد موت غازان أمر خليفته أو لجائتو المعروف باسم محمد خدابنده باستكمالها ليصبح تاريخاً عاماً للعالم الإسلامى . ووفقاً للخطة الأصلية كان المفروض أن يتكون الكتاب من قسمين رئيسيين : الأول عن تاريخ المغول والثانى عن التاريخ العام بالإضافة إلى عدة ملاحق . ولكن عندما فرغ من كتابته عام ١٣١٠/١٣١١ م ، كان يشتمل على جزئين : الأول وقد تناول فيه تاريخ القبائل التركية والمنغولية مع الإشارة إلى الأساطير المتعلقة بهم . وكذلك عصر جنكيز خان مع الإشارة إلى أسلافه وخلفائه حتى غازان خان . أما الجزء الثانى فيحتوى على مقدمة منذ بداية الخليفة ، ثم ملوك القداى والأسرات الحاكمة فى فارس ، وتاريخ العالم الإسلامى حتى سنة ١٢٥٨ . كذلك تكلم عند الهند والصين وتناول تاريخ الفرنجة فى غرب أوروبا . للمزيد من المعلومات أنظر : دائرة المعارف الإسلامىة (الطبعة الإنجليزية فى أربعة أجزاء - طبع ليدن ولندن ١٩١٣ - ١٩٣٤) ج ٣ مادة : رشيد الدين - طبيب . وعن سيرته ومصنفاته ومنهجه التاريخى وأقوال المؤرخين فيه والنقد الموجه إليه ، أنظر عباس المزوى : التعريف بالمؤرخين - ج ١ : فى عهد المغول وأكثر كان - بغداد ١٩٥٧ - ص ١٣٨ - ١٥٧ .

الآخري ، عن تاريخ الفرنجة ، أو بالأحرى عن غرب أوروبا ، وذلك على  
غُرر «حولية العالم» التي كتبها مارتينوس بولونوس Martinus Polonus  
هذا من جهة ، ومن جهة أخرى كانت أوروبا في ذلك الوقت على معرفة  
بأعمال الأطباء والعلماء والفلاسفة العرب عن طريق الترجمات اللاتينية لها (١)  
ولكنها لم تكن تعرف إلا القليل عن تاريخ العرب أنفسهم . كذلك أطلع  
الاوروبيون على العديد من كتب التصوف والقصص الاسلامي . مثال ذلك  
الترجمات المتعلقة بالاسراء والمعراج في النسخة الايطالية المترجمة لرسالة

---

(١) أثر المدنية العربية على الحضارة الاوروبية واضح لا يمكن انكاره ، والمؤثرات التي  
تركها العرب في حضارة الغرب كثيرة متعددة متنوعة شملت الآداب والعلوم والفنون وثق نواحي  
العلم والمعرفة كالفلسفة والفلك والرياضيات والفيزياء والكيمياء والطب . ومن المراجع الحديثة  
التي عالجت هذه النواحي ما يلي : عباس محمود العقاد : أثر العرب في الحضارة الاوروبية - ط.  
رابعة - القاهرة ١٩٦٥ ؛ سيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) : المدنية الاسلامية وأثرها في الحضارة  
الاوروبية - القاهرة ١٩٦٣ ؛ قدرى حافظ طوقان : العلوم عند العرب - القاهرة ١٩٦٠ ؛  
يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الاوروبية في العصر الوسيط - القاهرة ١٩٥٧ . ومن المراجع  
الغربية : ميتز (آدم) : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري - جزءان - ترجمة محمد  
مهدي الهادي أبو ريده ؛ ارنولد (توماس) وجيوم (الغرد) : تراث الاسلام - ترجمة دكتور يعقوب  
أثر الشرق في الغرب خاصة في العصور الوسطى - ترجمة فؤاد حسين علي - القاهرة ١٩٤٦ ؛  
جرونيباوم (جوستاف) : حضارة الاسلام - ترجمة عبد العزيز جاويد - القاهرة ١٩٥٦ ؛ لوبون  
(جوستاف) : حضارة العرب - نقلة إلى العربية محمد عادل زعيتر - القاهرة ١٩٤٥ . ومن  
المراجع الاجنبية :

Ball, W.R., A Short Account of the History of Mathematics, London,  
1927; Browne, E.G. Arabian Medicine, Cambridge, (1921 Dampier, W.  
C., A Short History of Science, Cambridge, 1949; Delambre, M., Historie  
de l'Astronomie du Moyen Age, Paris, 1819; Draper, J.W., A History of  
the Intellectual Development of Europe, 2 vols., London, 1864; Taylor,  
H.O., The Mediæval Mind, 2 vols., London, 1930.

الغفران Libro della Scala (لأبي العلماء المعري) التي يعتقد أن دانتي الجبيري (١) Dante Alighieri قد تأثر بها . ولم يكن ثمة حد فاصل بين ثقافة أوروبا المسيحية والثقافة الإسلامية ، بالرغم من اوجه الخلاف الدينية والثقافية بينهما ، وبالرغم من وجهات النظر المشوشة من كلا الجانبين . وكانت الخلفية التي تقبلها الجانبان ، وعلى الأخص فيما يتعلق بعلم الجدل ، ذات أساس واحد مشترك بينهما ، هو الهيلينية (٢) والتوحيد بالله . ولقد نشأت بين الثقافتين علاقة

---

(١) دانتي الجبيري (١٢٦٥ - ١٣٢١) شاعر فلورنسي توفى ابواه وهو ما يزال صغيرا . ولما نعرف الكثير عن سنى حياته الاولى . وكل ما نعرفه ان وطأة الحرمان التي قاساها في الصغر تركت أثرها في مؤلفاته ومنها كتابه «الحياة الجديدة» الذي خلد فيه قصة حبه لبياتريس . وقد لازمه الحزن منذ وفاتها سنة ١٢٩٠ م ، فانكب على الدراسة والاطلاع ، وتشبع بفلسفة توما الاكوييني وتاريخ اوروسيووس وملاحم فرجيل وستاتيوس . وتعتبر «الكوميديا الالهية» هي أروع ما خلد دانتي ، تلك الملحمة التي وضعها شعرا باللغة الايطالية المعاصرة بدلا من اللاتينية ، والتي لخص فيها ما وصل اليه خيال العصر الوسيط ، كما بذر فيها أيضا بذور الفكر الحديث . لذا يعتبره البعض بداية لحركة النهضة العلمية التي كانت بشيرا بنهاية العصور الوسطى وبداية العصر الحديث . انظر عن ذلك :

Burckhardt, J., The Civilization of the Renaissance, trans. by S.G.C. Middlemore, London, 1944, 49f.; Coulton, G.G., Medieval Panorama, New York, 1955, 207 ff.; Hay, D., The Italian Renaissance in its Historical Background, Cambridge, 1961, 55 ff., 74 ff.

وحول التأثير الاسلامي في الكوميديا الالهية ، انظر :

Palacios, M.A., La escatología musulmana en la Divina Comedia, Madrid, 1919; English trans by Sunderland, London, 1926.

(٢) نسبة إلى العالم الهليني ، وهو اصطلاح يطلق على العالم اليوناني وحضارته منذ الغزو الدوري حتى الاسكندر الاكبر ، اى اعتبارا من القرن التاسع قبل الميلاد حتى سنة ٣٣٦ ق.م. اما ما بعد الاسكندر فيطلق عليه العالم الهليني الذي شمل بلاد اليونان والممالك الشرقية بعد فتح الاسكندر لها . انظر عن ذلك كتاب :

Toynbee, A., Hellenism; The History of Civilization, London, 1959.

وله ترجمة بالعربية تحت عنوان توينبي (أ.) : تاريخ الحضارة الهلينية - ترجمة رمزي عبده جرجس - مراجعة الدكتور محمد صفقر خفاجة - القاهرة ١٩٦٣ .

اوثق من تلك العلاقة التي كانت قائمة ، مثلاً ، بين الاسلام وبين كل مسن الثقافة الهندية والثقافة الصينية .

واستمدت اوروبا العصور الوسطى معرفتها بتلك الاقاليم والامبراطوريات الشاسعة الواقعة شرق العالم الاسلامي ، اى فيما وراء نهر السند ، منذ الأزمنة القديمة بصفة عامة . وعلى أية حال ، كانت اى معلومات محددة عن شبه القارة الهندية تستقى من روايات الكتاب الاغريق والرومان القدامى ، التي تناقلها المصنفون المتعاقبون زمن انهيار الامبراطورية الرومانية (اعتبار من القرن الثالث وحتى أواخر القرن الخامس الميلادى) ، واخذها عنهم كتاب العصور الوسطى وبامتزاج خبرات شهود العيان بالروايات التي يصعب تصديقها الموجودة في الكتابات القديمة ، كانت الحصيلة أن عناصر الخرافة والغموض ظلت سائدة أكثر من غيرها حتى زمن متأخر في القرن الثالث عشر الميلادى (القرن السابع الهجرى) . وقد تضمنت مؤلفات العرب عن الهند ، هي الأخرى كثيراً من القصص الخرافية والحكايات العجيبة . وكان الانجيل مصدراً آخر أستقت منه اوروبا العصور الوسطى معرفتها عن بلاد الهند ، وبصفة خاصة قصة المجوس الثلاثة ، فضلاً عن بعض الاساطير التي تعتمد على ماجاء في «العهد الجديد» ، والتي تروى تجارب واحد او أكثر من الرسل في الهند . وفي هذا المناخ انبثقت اسطورة تعتبر من أكثر اساطير العصور الوسطى غموضاً وابهاماً ، الا وهي اسطورة امبراطورية الكاهن يوحنا (١) Prester John

(١) ترتبط باسم الكاهن يوحنا والمملكة التي كان يحكمها كثير من اساطير القرون الوسطى التي جمعت الغرب اللاتينى يمتقد أن التتار كانوا يدينون بالمسيحية بينما كان الواقع خلاف ذلك . وقد أشار إلى شخصيته كثير من المؤرخين الغربيين القدامى الذين عاشوا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد ، من بينهم ولیم الصورى . Guillaume de Tyr ، والبريكوس Albericus وفسنان دى بوفيه Vincent de Beauvais ومارينو سناوتو Marino Sanuto وجان دى

المسيحية التي ذاعت طوال القرن الثاني عشر الميلادي (القرن السادس الهجري) واستمرت بعد ذلك فترة طويلة من الزمن . وكم كانت رغبة الملوك المسيحيين (في الغرب) في التودد إلى امبراطورية الكاهن يوحنا واكتسابها كمحليف لهم في صراعهم ضد العرب والأتراك .

واما عن شرق اوروبا ، وفي المقام الاول : الاراضي الروسية الشاسعة فقد اتخذ حيال الشرق موقفاً يختلف عن ذلك الذي اتخذته كل من الغرب الأوروبي والدولة البيزنطية . فعلى النقيض من نمو وتطور الصلات الحية المباشرة بين العالم العربي وبين كل من بيزنطة ودولة كييف في القرن العاشر وبواكير القرن الحادي عشر الميلادي (القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الهجري) ، حدث تغيير مفاجيء يعزى إلى اغارات عناصر متنوعة من الأتراك الرحل وإلى الغزو المغولي في القرن الثالث عشر الميلادي (القرن السابع الهجري)

---

=جوانفيل . Jean de Joinville. ومن الأخطاء الشائعة تلك التي تذهب بأن امبراطورية الكاهن يوحنا هي بعينها امبراطورية الحبشة في افريقية ، والحقيقة أن مملكته كانت في آسيا . وكيفما كان الامر ، ليس من السهل أن نحدد بصفة قاطعة حقيقة هذا الشخص والمقاطعات الاسيوية التي كان يحكمها والوقت الذي عاش فيه . انظر التفاصيل في : ارنولد (ت .) : الدعوة إلى الاسلام - ترجمة الدكتور حسن ابراهيم حسن وآخرين (القاهرة ١٩٤٧) ص ١٩٢ ؛ حسن ابراهيم حسن (دكتور) انتشار الاسلام بين المغول والتتار (القاهرة ١٩٣٣) ص ٢٨ ؛ لويس شيخو : النصرانية بين قدام الأتراك والمغول - انظر مجلة المشرق - السنة ١٦ العدد ١٠ (بيروت ١٩١٣) ص ٧٦٣ . راجع أيضا :

Joinville, J. de, Histoire de Saint Louis. Texte original de XIVe siècle, accompagné d'une traduction en Français, moderne par M. Natâlis de Wailly, Paris, 1874, 260, n. 474-1 ; idem Memoir of Louis IX king of France An English translation by Johnes of Hafod, London, 1848, 477—8, n. 3 ; Joinville & Villeharduin, Chroniques of the Crusades (trans. Shaw), 284 ff. ; Ross, E., Prester John and the Empire of Ethiopia, in "Travel and Travellers of the Middle Ages, ed. by A. Neyton, London, 1930, 174-194.

لذا بدأ الشرق بالنسبة للروس وغيرهم من شعوب شرق أوروبا ، قبل أى شئ آخر ، بمثابة خطر دائم يهدد مجتمعاتهم وثقافتهم ، بسبب القوة العسكرية المدمرة لأولئك الغزاة الرحل . وعندما هاجم المغول الاراضى الروسية لأول مرة فى عام ١٢٢٠ م ، لم يكن أحد تقريبا يعرف من هم ولا من اين اتوا ، وعلى اية حال ، لم يمض عشرون عاما حتى اصبحوا معروفين تماما فى روسيا وبولندا وهنغاريا وفى غيرها من البلاد الاوروبية وقتذاك . أما عن المغول فقد حاول قادة جيشهم التعرف على البلاد والشعوب التى كانت هدفا لحملاتهم وكانت «القبيلة الذهبية» (١) Golden Horde التى تكونت فى أواسط القرن الثالث عشر الميلادى (أواسط القرن السابع الهجرى) نتيجة الغزو المغولى التتارى (٢) ، عبارة عن تشكيل واهن مفكك أضطرت فيه العناصر المتنافرة غير المتجانسة ان تعيش سويا وان يؤثر كل عنصر منها على الآخر .

---

(١) القبيلة الذهبية فرع من المغول اتجه إلى روسيا وبلغاريا وأسس إمبراطورية استمرت حتى أوائل القرن العاشر الهجرى (بدايات القرن السادس عشر الميلادى) . انظر دائرة المعارف الاسلامية (الطبعة الانجليزية فى أربعة أجزاء - طبع ليدن ولندن ١٩١٣ - ١٩٣٤) مادة قججاك ومادة مغول .

(٢) اختلفت آراء المؤرخين فيما يتعلق بأصل كل من المغول والتتار ، والفرق بين اللغتين ، والتطورات التى داخلت كلا منها . ويكاد يجمع الباحثون على أن المغول قد تسلطوا على البلاد قبل التتار بفتوحات خائهم الاعظم المسمى جنكيز . ولكن عندما دخل التتار بكثرة جيوش هذا الخان وأصبحت لهم اليد الطولى فى الفتوحات التالية ، تسلطوا بدورهم على المغول واشتهروا دونهم . للمزيد من المعلومات انظر : اسماعيل سرهنك : حقائق الاخبار عن دول البحار - ج ١ - القاهرة ١٣١٢ هـ - ص ٢٤١ - ٢٤٢ ح ١ ؛ الرمزي : تلقين الاخبار وتلقيح الآثار فى وقائع قران وبلغار وملوك التتار - ج ١ - أورنبورغ ١٩٠٨ - ص ٣٥٢ راجع أيضا :



لقد كان الغزو المغولى (١) لشرق أوروبا ووسطها ، فى كثير من النواحي ، نقطة تحول فى العلاقات بين أوروبا العصور الوسطى والشرق الأقصى الآسيوى . ولم تستطع الاساطير والخرافات ان تقف على قدم المساواة امام الاصول الموثوق بها . ففيما بين عامى ١٢٤٥ و ١٢٥٠ أرسل البابا الرومانى (أنوسنت الرابع) والملك الفرنسى ( لويس التاسع ) (٢) إلى خان المغول وفودا دبلوماسية عديدة ، منها بعثة جيوفانى دى بيان كارينيو—Giovanni de Pain Carpino وبعثة وليم أوفروبروك—William of Rubruquis or Ruysbroek وكان واضحا ، مرة اخرى ، ان جمع المعلومات عن امبراطورية الكاهن يوحنا المسيحية المزعومة فى آسيا كان من بين دوافع قيامهم برحلاتهم تلك

(١) عرفوا فى المصادر الأوروبية التى ترجع إلى تلك الفترة من الزمن ، من لاتينية وفرنسية قديمة ، باسم "Tartarius". انظر عن ذلك :

Joinville, Histoire de Saint Louis (ed. de Wailly), 74, 258—270; Eracles, L'Estoire de Eracles Empereur et la Conqueste de la Terre d'Outremer, ed. R.H.C. - H. Occ., t. II, Paris, 1859, 441; Rothelin, Continuation de Guillaume de Tyr dite du manuscrit de Rothelin, ed. R.H.C. - H. Occ., t. II, 569 624; Nangis, G. de, Vita Sancti Ludovici regis franciae, ed. R. H.G.F., t. XX, 362; Beauvais, V. de, Selecta especulo Historiali Bellovacensis, ed. R.H.G.F., t. XX, 75.

(٢) جلس البابا انوسنت الرابع على الكرسي البابوى فيما بين عامى ١٢٤٣ و ١٢٥٤ م ، بينما تربع لويس التاسع على عرش فرنسا من سنة ١٢٢٦ إلى سنة ١٢٢٠ م . وقد تناولت فى بيئ من التفصيل والتحليل السفارات المتبادلة بينهما وبين المغول فى الشرق الأقصى فى أواسط القرن الثالث عشر الميلادى «أواسط القرن السابع الهجرى» والنتائج التى ترتبت عليها ، فى كتابي : العدوان الصليبي على مصر — الاسكندرية ١٩٦٩ — ص ٦٨ — ٧٢ ؛ العدوان الصليبي على بلاد الشام — الاسكندرية ١٩٨١ — ص ٢٥٣ — ٢٨٨ . ومن المؤرخين الغربيين الحديثين الذين تخصصوا فى الكتابة فى هذا الموضوع :

C. L. Deûignes, C.d'Ohsson, M. Dfl'eux, M. Vâlmont, p. Pelliôt, H. Howor'h.

وقد نجح آل بولو البنادقة ، وعلى رأسهم ماركو بولو (١) ، بعد ذلك بعشرات السنين في التوغل إلى مسافات أبعد داخل الصين ، كما عرفوا الهند وأندونيسيا وترك الرحالة المذكورون الذين قاموا برحلاتهم إلى الشرق الأقصى مذكرات مكتوبة سجلوا فيها التجارب التي مروا بها . وإلى جانب هؤلاء عاش أيضا العديد من التجار والمرسلين الأوروبيين في بلاد الصين عشرات السنوات بموافقة الخان .

وكانت بعض العروض السياسية التي تقدم بها المبعوثون الأوروبيون إلى الحاكم المغولي غير عملية وسطحية وكان ذلك نتيجة قصور معرفة أوروبا عن مدى حجم القارة الآسيوية وكيفية تكوينها ، فضلا عن أسباب أخرى عديدة . ومع ذلك فإن الروايات المدونة التي خلفها الرحالة الدبلوماسيون والتجار في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي (النصف الثاني من القرن السابع الهجري) رغم ما تضمنته من بعض المبالغات والاختطاء ، إلا أنها زودت أوروبا بنقص من المعلومات الهامة القيمة عن آسيا وقتذاك ، ولأن المعاصرين وقتها قد شكوا في صحتها . وكانت المسافة الشاسعة بين أوروبا وشرق آسيا في ظل وسائل النقل المعروفة آنذاك ، أمرا لا يمكن التغلب عليه تقريبا سواء عن طريق البر أو البحر ، حتى أن

---

(١) حول منامرات آل بولو في الشرق في اخريات القرن الثالث عشر الميلادي (أواخر القرن السابع الهجري) ، انظر كولتون (ج.ج) : عالم الصور الوسطى في النظم والخفارة - ترجمة الدكتور جوزيف نسيب يوسف - ط. ثانية - الاسكندرية ١٩٦٧ - ص ٢١٠ وما يليها راجع أيضا كتاب ايلين بور :

Power, E., Medieval People, London, 1954, 34—70.

هذا ، وقد ترجمت رحلات ماركو بولو إلى اللغات الأوروبية الحديثة ، ومن أفضل طبعاتها :

Yule, H. (ed. & tri), The Book of Ser Marco Polo, the Venetian. 3rd ed. revised by H. Cordier, London, 1903; Komroff, M. (ed.), The Travels of Marco Polo, New York, 1926.

حتى أن الاتصالات بينها ظلت لقرون عديدة تالية ، تم في أغلب الأحيان ،  
بشكل عفوى غير منتظم

طرق المواصلات الرئيسية بين أوروبا العصور الوسطى والشرق :

يعتبر الاستقرار الملحوظ في طرق التجارة الرئيسية الذى ساعد على تبادل  
السلع والبضائع مثلما ساعد على تحركات الرحالة والجنود ، من أبرز سمات  
الاتصال بين كل من أوروبا وآسيا وأفريقية قبل عصر الاستكشافات الهائلة  
(في أواخر القرن الخامس عشر الميلادى/أخريات القرن التاسع عشر الهجرى) (١)  
وكانت الطرق التقليدية البعيدة المسافات التى استخدمت في العصور  
الوسطى ترجع ، في معظم الأحيان ، إلى العصر القديم . ثم انها كانت تعبر عن  
تجارب وخبرات متراكمة لاجيال عديدة في سبيل التغلب على الجبال والصحارى  
والأنهار والبحار . واعتمد مدى استخدام طرق التجارة المختلفة على امنها ،  
بالإضافة إلى ظروف أخرى عديدة تتعلق بتحسين الأوضاع السياسية في الداخل  
والخارج . ومع ذلك ، لم يكن امرا عفويا ان ظلت الطرق الاساسية كما هي  
دون تغيير ، أو بعد ان طرأ عليها تغيير طفيف فحسب ، رغم العديد من  
العقبات والعراقيل التى لم تدم طويلا .

وكان البحر المتوسط وسواحله ، إلى حد بعيد ، اهم منطقة لمظاهر

---

(١) المقصود الاستكشافات الجغرافية ، ومن أبرزها اكتشاف كريستوفر كولومبس  
لامريكا سنة ١٤٩٢ ، ونجاح فاسكودى جاما البرتغالى سنة ١٤٩٨ في تطويق رأس الرجاء الصالح  
بالالتفاف حول طرف افريقية الجنوبي في الطريق إلى الهند وما ترتب على ذلك من آثار خطيرة على  
الاقتصاد العالمى - انظر عن ذلك :

الاتصال والصراع المتبادل (بين أوروبا والشرق) . فلتد ظل قرونا طويلة سوقا للعالم المعروف وقتذاك ، ومركز الاتصال الرئيسى بين كل من أوروبا وآسيا وأفريقية ، كذلك بدأ حوالى القرن العاشر الميلادى (حوالى القرن الرابع الهجرى) اخر عصر مزدهر للرخاء الاقتصادى والتجارى الهائل فى البحر المتوسط . وكانت هذه الفترة تتميز ، قبل اى شىء آخر ، بقيام الجمهوريات الايطالية فى البندقية وجنوة التى كان لها أعمق الأثر (على مجريات الامور والاحوال وقتها) . وكانت غداً ظهرت قبلها بيزا وأمالتى وكثير غيرهما . وبدأت البندقية تزدهر ، على وجه الخصوص ، تحت رعاية بيزنطية ، وحصلت تدريجيا على امتيازات هائلة اصطدمت اصطداما خطيرا بجوهر الاقتصاد البيزنطى . وكانت هناك بعض الموانئ أقل منها شأنًا فى أسبانيا وفى بروفانس (جنوب فرنسا) ، وفى وقت لاحق أيضا فى دبروفنيك Dubrovnik (راجوزا Ragusa) على البحر الادريائى والتى شاركت فى هذا المسد التجارى ؛ ولكن البنادقة احتلوا المركز الاول دون منافسة فى الفترة الواقعة بين القرنين الثانى عشر والرابع عشر الميلاديين ( فيما بين القرنين السادس والثامن للهجرة) فقد تركز فى ايديهم ابان تلك الفترة من الزمن ، الجزء الاكبر من تجارة أوروبا فى السلع والبضائع الشرقية . كما اصبحت البندقية وهى المدن الايطالية الاخرى ، الوسيط الرئيسى للتجارة البعيدة المسافات بالنسبة لجميع الدول الأوروبية وكانت هذه الوساطة تمثل ، بالنسبة لهم ، المصدر الاكبر لتكديس رأس المال الناتج عن الاشتغال بالتجارة .

وعلى الساحل المقابل للبحر المتوسط عمل التجار العرب فى بداية الامر كوسطاء للتجارة طويلة المسافات مع أوروبا . وامتدت بعض طرق التجارة الرئيسية عبر مصر وميناء الاسكندرية حيث تنهى بالوسائل التقليدية (للتنقل)

فى نهر النيل واستخدا م طريق القوافل من البحر الاحمر . والبعض الآخر من هذه الطرق يمر عبر موانئ الحوض الشرقى للبحر المتوسط ، المعروف بحوض الليفانت ، عندما كانت هذه الموانئ فى قبضة العرب وذلك حتى قيام الحروب الصليبية ( فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى / أخريات القرن الخامس الهجرى ) وكان حوض الليفانت لعدة قرون ملتنى هاما لطرق القوافل الآتية من الخليج الفارسى وشبه الجزيرة العربية والمناطق الواقعة عبر جبال القوقاز حيث تصب كلها هناك . وبعد ان سيطر الصليبيون سيطرة مؤقتة على الحوض الشرقى للبحر المتوسط ، انتعشت تجارة البندقية فى البضائع الشرقية انتعاشا هائلا . ويرجع ذلك ، فى بعض الاحيان ، إلى انخفاض تكاليف النقل لرحلات العودة للسفن التى كانت تحمل الصليبيين ومؤنهم من أوروبا ( إلى الشرق ) . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى تحول جزء من تجارة العرب عبر البحر الأحمر ومصر : وسيطر التجار العرب على قدر كبير من التجارة مع البلاد الواقعة إلى الشرق من العالم الاسلامى ، وبخاصة عبر المحيط الهندى . كما استغادوا عن طريق الوساطة فى بيع التوابل الهندية وغيرها من الكماليات إلى أوروبا .

اما البحر الاسود فقد كان طوال العصور الوسطى تقريبا يستخدم كشریان حيوى للمواصلات . كما كانت القسطنطينية الواقعة على مدخله مركزا تجاريا من الدرجة الاولى ومحطة لشحن مختلف البضائع الشرقية عبره وحتى عام ١٢٠٤ م عندما تسببت الحملة الصليبية الرابعة فى انهيار السلطة السياسية والوضع الاقتصادى للامبراطورية البيزنطية لم تكن الامتيازات الممنوحة للبنادقة قد غطت منطقة البحر الاسود . وكانت بيزنطة تحتفظ اصلا فى هذه المنطقة بصلات تجارية حية مع كل من حكومة كييف وبلاد الخزر على نهر الفولجا والشعوب الإسلامية . وعلى أية حال ، فنذ النصف الثانى من

القرن الثالث عشر الميلادى (النصف الثانى من القرن السابع الهجرى) فصاعدا سيطر الجنوبيون على تجارة البحر الاسود. وهم الذين انشأوا تحت السيادة الرسمية للقبيلة الذهبية مستعمرات تجارية ذات نفوذ على الساحل الشمالى للبحر الاسود. وقد احتلت المستعمرتان الجنوبيتان كافا Caffa وتانا Tana على وجه الخصوص : منذ نهاية القرن الرابع عشر وحتى منتصف القرن الخامس عشر الميلادى (من اواخر القرن الثامن حتى اواسط القرن التاسع الهجرى) مركزا حاسما فى تجارة البحر الاسود. وشاركنا مشاركة فعالة فى عملية تبادل سلع وعبيد الشرق مع خانات التتار (١) وسلاطين الاتراك ، وكذلك مع بلدان آسيا الاخرى. وبالمثل فان التجارة مع الساحل الجنوبى الغربى للبحر الاسود التى كانت قد تأثرت تأثرا بالغا بغزو الأتراك السلاجقة انتعشت مرة اخرى فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين (القرنان السابع والثامن الهجريان) بسبب احياء طريق التجارة عبر إيران واذربيجان :

واما بالنسبة للبلدان الاوروبية الواقعة إلى الشمال من جبال الالب ، لم يكن الطريق إلى الموانئ الإيطالية هو وسيلة الاتصال الوحيدة بالشرق والجنوب الشرقى فحسب. فبعد أن قطعت أغارات المجرىين والبجاناكية (٢) خلال

---

(١) ورد ذكر التتار فى المصادر الاسلامية الوسيطة تحت الاسماء التالية : «التتر» و «التار» و «التاتار». انظر المقرئى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ قم ٢ - القاهرة ١٩٣٦ - ص ٢٧٩ و ٣٨٣ ، المقرئى : المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار - ج ٢ - القاهرة ١٢٧٠ هـ - ص ٢٣٨ ، ابن الوردى : تنمة المختصر فى أخبار البشر - ج ٢ - القاهرة ١٨٦٨ - ص ١٣٧ ، ١٩٥ و ٢٠٢ و ٢٠٦ ؛ ابن خلدون : المعبر وديوان المبتدأ والخبر - ج ٥ - القاهرة ١٢٨٤ هـ - ص ٢٧٩ و ٣٨٠ ؛ ابو شامة : تراجم رجال القرنين السادس والسابع - القاهرة ١٩٤٧ - ص ١٢١ و ١٢٢ و ١٢٨ و ١٧٣ .

(٢) البجاناكية أو البشنيج من العناصر التركية التى عبرت الدانوب إلى جوف الامبراطورية البيزنطية. انظر

القرنين التاسع والعاشر الميلاديين (القرنان الثالث والرابع الهجريان) الطريق الرئيسي للتجارة البرية الذي يربط أوروبا بالعالم الاسلامي مارا بليون وفردان وماينز وريجنز بورج فاقليم الدانوب والبحر الاسود إلى ان يصل إلى اسواق بلاد الخزر - بعد ان قطعت اغارات الهنجرين والبجناكية هذا الطريق تغير اتجاهه خلال القرن العاشر الميلادى (القرن الرابع الهجرى) إلى شمال جبال الكربات Carpathians ، واتجه من ريجنز بورج مارا ببراغ فسيليزيا فكريكاو Cracow وجاليكيا Galicia ومنها إلى كييف . ومن هنالك واصل خط سيره إلى الشرق العربى . وكان التجار اليهود هم اول من استخدم هذا الطريق ، ولكنهم لم يستطيعوا الصمود امام منافسة الموانىء الإيطالية فى تجارة حوض البحر المتوسط . اما الطريق الكرياتي الفرعى إلى البحر الاسود المار بكركاو ، فقد احتفظ باهميته الفائقة فيما يتعلق بالتجارة النامية مع الشرق حتى بعد ان ساد مرة اخرى الطريق التجارى على امتداد نهر الدانوب ، وبعد ان فقد الطريق الممتد من ريجنز بورج إلى براغ اهميته السابقة . ولاشك أن طريق الدانوب كان أكثر اهمية بالرغم من الحقيقة المعروفة وهى ان الملاحة فيه سواء فى اتجاه المصب أو المنبع كانت تعترضها عوائق طبيعية علاوة على المكوس الجمركية والقلاقل السياسية فى حوض الدانوب الأدنى . ومتأخرا فى سنة ١٤١٨ م قام امبراطور وملك المجر المسمى Sigismund سيجسموند بمحاولة للتقليل من شأن الاعتماد على البندقية وحدها فيما يتعلق بتجارة وسط

---

=Setton, K.M. (ed.), A History of the Crusades, Vol. I: The First Hundred Years, ed. by M.W. Baldwin, Philadelphia, 1958, 181 n. 3; Ostrogorsky, G., History of the Byzantine State, trans. by J. Hussey, Oxford 1956, 227, 245, 259, 295, 303, 306.

أوروبا ، وذلك عندما اشار باستكشاف طريق الدانوب الممتد إلى المستعمرات الجنوبية على البحر الأسود من جديد . وعندما غزا الأتراك مدينة كيليا Kilia الواقعة على نهر الدانوب في عام ١٤٢٠ م ، توقف استخدام هذا الطريق مرة اخرى .

وكان ثمة طريق نشط للتجارة استخدم طوال القرنين الثالث عشر والرابع عشر للميلاد (القرنان السابع والثامن للهجرة) ، وهو يمتد من البحر الأسود وبحر زوف Azov إلى الشرق ماراً بسرأي Sarai عاصمة القبيلة الذهبية على نهر الفولجا . ومن هناك يعبر بحر قزوين إلى نهر اورال Ural ، ثم يتخذ الطريق البرى مرة أخرى إلى بحر آرال Aral ، ثم إلى جنوب بحيرة بلخاش Balkhash على امتداد جبال تيان شان Tian - Shan داخل بلاد الصين . وقد عمل حكام المغول على أن تكون التجارة آمنة تماماً عبر اراضي امبراطوريتهم الشاسعة ، حتى ان كلا من الهند والصين لم تعد مضطرة في اتصالاتها بالغرب إلى استخدام الطرق البحرية المارة بالخليج الفارسي او مصر ، تجنباً لتلذث ، الطرق التي لم تكن آمنة فيما مضى . وكان هذا الطريق الحيوى الذى تم احياؤه هو طريق الحرير العظيم الذى كان قد استخدم في الازمنة القديمة ، للتجارة بين الصين والامبراطورية الرومانية . وكان هذا الطريق الذى يمتد إلى شمال آسيا ، في الحقيقة ، بمثابة البديل الوحيد الموصل إلى الطريق البحرى على المحيط الهندى . ومع ذلك ، فقد كانت المسافات الشاسعة عبر قارة آسيا ، مرة أخرى هى العقبة الكأداء في سبيل الاتصالات التجارية . فلم تكن البضائع الثقيلة الوزن او الكبيرة الحجم تستحق تكاليف النقل الباهظة فوق ظهور الحيوانات عبر مثل هذه المسافات الطويلة الممتدة .

ولقد كانت طرق التجارة الرئيسية ذات اهمية بالغة فيما يتعلق باى لقاء



اوصراع بين اوروبا العصور الوسطى والشرق . فلم يكن من قبيل المصادفة ان نفذ الصليبيون إلى شرق البحر المتوسط متبعين في اغلب الاحيان نفس الطرق التي استخدمها التجار من قبل لفترة طويلة من الزمن . ولم يكن طريق الحرير العظيم ذا فائدة بالنسبة لغزوات جيوش المغول لشرق اوروبا فحسب ، بل افاد ايضا . في الاتجاه العكسي ، رحلات المبعوثين والتجار الاوروبيين إلى قلب امبراطورية المغول . وإذا كانت اصول الحرب الصليبية تتعلق بظروف عديدة خاصة بتطور البلاد الاوروبية داخليا وخارجيا في الفترة الواقعة فيما بين القرنين الحادى عشر والثالث عشر الميلاديين (فيما بين القرنين الخامس والسابع الهجريين) ، فلم تكن الجهود التي بذلتها اوروبا لاختراق الحاجز الاسلامى الذى سد الطريق أمامها للحصول على سلع وبضائع الشرق هي آخر هذه العوامل (١) وكانت هناك محاولة لاقامة تحالف سياسى بين غرب أوروبا وخان المغول (فى الشرق الأقصى) لتحقيق نفس الغرض : ولكن هذا التحالف كان وهما منذ البداية (٢) . ومن بين العوامل الاخرى (فى هذا الصدد) أن الاوروبيين

---

(١) حول العوامل المختلفة المعقدة المتشابكة التى أدت إلى احتكاك الغرب اللاتينى بالشرق الأدنى الاسلامى أثناء الحروب الصليبية ، انظر كتاب : العرب والروم واللاتين فى الغرب الصليبية الاول - ط. ثانية - الاسكندرية ١٩٦٧ - ص ٥١ - ١١٠ ، كذلك مقال : الدافع الشخصى فى قيام الحركة الصليبية - مقال بمجلة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية - العدد ١٦ - الاسكندرية ١٩٦٣ ص ١٨٣ - ٢٠٧ .

(٢) لقد اتجه الغرب اللاتينى بأنظاره إلى الشرق الأقصى آنذاك وهو موطن المغول . أملا لاكتساب هذا العنصر إلى المسيحية على المذهب الرومانى الكاثوليكى فتقوى به جبهته ، ثم العمل على إبعاد خطره عن الغرب ، واخيرا تكوين كتلة لاتينية مغولية مشتركة ضد الاسلام . وفى سبيل ذلك بعث الجهاز الكنسى البابوى أيام انوسنت الرابع وأعيد ملوك الغرب هو لويس التاسع فى لوماسط القرن الثالث عشر الميلادى (أواسط القرن السابع الهجرى) عدة سفارات لتحقيق هذه السياسة التى تعتبر الشرق الاسلامى فى فترة الحروب الصليبية . ولكن هذه الجهود التبشيرية والسياسية والديبلوماسية لم تسفر عن أية نتيجة إيجابية خاصة فى هذا المجال سوى إبعاد خطر المغول عن الغرب . انظر عن ذلك المصادر الغربية التالية :

كانوا قد استهانوا بقوة الاسلام التي نفذت إلى الجزء الغربي من اراضي المغول ولم تتحقق فكرة الاتصال البحري المباشر بين غرب أوروبا وشرق آسيا إلا تدريجيا بعد ان تهيأت الظروف التكنولوجية والاقتصادية ، التي كانت سابقة لوانها ، والتي سادت خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر للميلاد (القرنين التاسع والعاشر للهجرة) .

حدود الالتقاء والصراع بين أوروبا العصور الوسطى والشرق  
لقد تغير (ميزان القوى) فيما يتعلق بالسيادة الإقليمية لكل من أوروبا  
المسيحية والعالم الاسلامي مرارا فيما بين القرنين العاشر والخامس عشر للميلاد  
فيما بين القرنين الرابع والتاسع للهجرة (١) . ففي القرن الحادى عشر ،

Joinville, Histoire de Saint Louis (ed.) de Wailly 74, 258 ff.; Rothelin, =  
Continuation de Guillaume de Tyr, cf. R.H.C.-H.Occ., t.II, 569 ff. ;  
Matthew Paris, English History from the year 1235 to 1273. trans. from the  
Latin by I.A. Giles Vol. II, London, 1853, 319.

(١) حول موازين القوى في الصراع الصليبي الاسلامي في فترة الحروب الصليبية وما يرتبط  
بها من مفاهيم مثل الافعال وردود الافعال ومراكز الثقل والاسباب والمسببات والنتائج والحوادث  
انظر عزيز سوريال عطية (دكتور) : نقد مؤلفات جروسيه عن الحرب الصليبية وعن فلسفة  
التاريخ - المجلة التاريخية المصرية - المجلد الأول - القاهرة ١٩٤٨ - ص ٣١٦ - ٣٢٧ . وما  
يذكر أن المؤرخ الفرنسى رينيه جروسيه قسم الحروب الصليبية إلى ثلاثة أدوار رئيسية ، وهى  
التي جعلها أساسا لمؤلفه الكبير عن تلك الحروب . الدور الاول وهو الذى رجحت فيه كفة الصليبيين  
على العرب ، والدور الثانى وهو التوازن بين الفريقين المتحاربين أو ما يعرف بتعادل كفتى الميزان  
والدور الثالث والاخير وهو دور انتصار العرب على الصليبيين الذى انتهى باجلائهم عن الاراضى  
المقدسة باستخلاص عكا آخر معاقل الصليبيين الحصينة على الساحل الشامى سنة ٦٩٠ / ١٢٩١ م .  
واتبع المؤرخ الانجليزى سفين رانسيمان نفس هذا المنهج فى كتابه عن الحروب الصليبية انظر :

Runciman, S., A History of the Crusades, 3 vols., Cambridge, 1954—1955.

وقد تعرضت لهذه الفكرة فى مقال لى تحت عنوان :

Joseph N. Youssef, „Arab Awakening during the Crusades,” Buletin of  
the Faculty of Arts, Alexandria University, Vol. XXIII (1969), Alexandria  
1971, 11—26.

الميلادى ( القرن الخامس الهجرى ) غزا النورمان صقلية التى كانت خاضعة للنفوذ العربى ، ولكن الاتراك السلاجقة طردوا البيزنطيين من آسيا الصغرى (حوالى نفس الوقت) ، وفى القرن الثانى عشر الميلادى (القرن السادس الهجرى) أضطر العرب فى اسبانيا إلى التراجع تدريجيا إلى الجنوب ، فى حين ثبتت السلاجقة اقدامهم فى الاناضول . وكانت الحروب الصليبية بمثابة فاصل مسرحى قصير الامد للتفوق الاوروبى فى شرق البحر المتوسط ، هذا التفوق الذى يفوقه فى الاهمية العجز والضعف المستمرين للامبراطورية البيزنطية وظهور قوة عسكرية اقل تسامحا بين المسلمين . ذلك ان القبائل التركية التى اخترقت أواسط آسيا إلى الاقاليم العربية كانت ، من الجانب الاسلامى تتميز بقسوة عسكرية متقدمة . فكان ثمة سلاح للفرسان ، وفيما يعد سلاح منظم للمشاة خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين (القرنين الثامن والتاسع الهجريين) ، نتيجة النمو المضطرد لسلطة العثمانيين فى البلقان وآسيا الصغرى . هذا ، بينما كانت البقية الباقية من السيادة العربية فى شبه الجزيرة الايبيرية قد تم القضاء عليها حوالى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى (اواخر القرن التاسع الهجرى) . ويمكن القول ، من وجهة النظر العالمية ، انه وجد نوع من التوازن بين اوروبا العصور الوسطى والعالم الاسلامى منذ القرن العاشر حتى القرن الخامس عشر الميلادى ( من القرن الرابع إلى القرن التاسع الهجرى ) وعلى الرغم من المكاسب والخسائر الاقليمية لكل من الجانبين ، إلا ان كلا منهما لم يكن باستطاعته تجاوز حدوده مدة اطول من الطرف الاخر ولم تحدث بينهما اى قطيعة حقيقية إلا بعد انقضاء القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين (بعد القرنين التاسع والعاشر الهجريين) عندما تقدمت اوروبا على القارات الأخرى .

ولم يكن أى صراع عسكرى خلال الفترة المذكورة عن القوة بحيث يقضى على استقرار التجارة بين أوروبا ومختلف الاقاليم الآسيوية . فلم يؤد نجاح الجيوش الصليبية أو فشلها ، كما لم يؤد نجاح الامارات التى اقاموها فى الشرق أو فشلها ، إلى أحداث أى تغيير جوهرى فى طابع تلك الاتصالات وماهيتها . وحتى خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين (القرنان السادس والسابع الهجريان) : لم يتم أهم تبادل للسلع والبضائع وأوفره ربما بين الشرق والغرب عن طريق الموانئ الصليبية (على الساحل الشامى) ، بل كان عن طريق المدن البيزنطية فى الشمال ودلتا النيل فى الجنوب . ولقد قدر للتجارة الأوروبية مع كل من مصر وسورية وأواسط آسيا الاستمرار بعد سقوط آخر معقل للصليبيين فى شرق البحر المتوسط عام ١٢٩١ م (٦٩٠ هـ) دون ان تواجه هزة عميقة الأثر ، لكان ذلك دليلا آخر على أن الحروب الصليبية لم تؤثر تأثيرا بالغاً على التطور الاقتصادى لحوض شرق البحر المتوسط أو على التجارة الناتية . إذ كانت معظم السلع مثل الخبز والتوابل والمواد الصباغة وغيرها من الكماليات التى قام التجار الأوروبيون بشحنها على ظهور السفن فى حوض اللبانت ، تأتى أصلاً من الشرق الإسلامى . أى من بلاد الرافدين وسورية ، كما كانت تأتى من ايران وأواسط آسيا . ولم تتوقف معظم وسائل الاتصال التجارى التقليدية ، أن لم يكن كلها ، إلا بعد أن بسط الاتراك العثمانيون سيطرتهم حول البحر الاسود وفى جنوب البحر المتوسط (فى أواسط القرن الخامس عشر الميلادى) / أواسط القرن التاسع الهجرى .

ومع ذلك ، فإن حدود التبادل التجارى بين أوروبا العصور الوسطى والشرق كانت فى الأصل ، ذات طابع اقتصادى . وكان يستحيل على التجار الأوروبيين ، وبخاصة التجار الايطاليين ، استيراد بضائع شرقية من المناطق

العربية أكثر مما كان باستطاعتهم بيعه في الاسواق الأوروبية . وبالمثل لم يطلب العرب من البضائع الأوروبية أكثر مما تحتاج إليه بلادهم . واصبحت المدن الإيطالية همزة الوصل في هذه التجارة (١) ، بصرف النظر عن العلاقة المباشرة بين وسط وشرق أوروبا من جانب وبين منطقة البحر الأسود من جانب آخر ، وهي التي ساد فيها أيضا النفوذ الإيطالي فيما بعد . واما عن الاتصالات بين ابدان وسط أوروبا والشرق ، فيا يختص بامداد البضائع واسعارها وحجم التبادل التجارى ثم القيم الثقافية في نهاية الامر ، فقد بدأت تعتمد على منطقة البحر المتوسط ، و في المقام الاول على الإيطاليين الذين كيفوا هذه الاتصالات وفقا لمصالحهم الخاصة . وتأكدت هذه الحقيقة ، على سبيل المثال ، في عمليات استغلال المعادن الثمينة وبصفة خاصة الفضة ، التي كان معظمها يستخرج من ممالك وسط أوروبا ، وخصوصا من المجر وبوهيميا ومارك الميسين . وقد حقق الأوروبيون بتصدير الفضة التي كان الطلب عليها شديدا في العالم العربي منذ بواكير القرن الثالث عشر الميلادى (بدايات القرن السابع الهجرى) فصاعدا ، تعادلا في كفتي الميزان فيما يتعلق بتجارته مع الشرق ، هذا التعادل الذي لم يكن في صالحهم ولفترة طويلة من الزمن تمتد إلى وقت متأخر حتى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى (نهاية القرن التاسع الهجرى) . وقد تم تصدير الفضة ليس فقط غير المسكوكة (أي بحالتها الخام) وليس فقط على شكل عملات أوروبية عادية ، وانما ايضا في هيئة عملات مسكوكة في إيطاليا او جنوب فرنسا تحمل نقوشا وكتابات عربية معدة .

---

(١) انظر عن ذلك جوزيف نعيم يوسف (دكتور) : «علاقات مصر بالممالك التجارية الإيطالية في ضوء وثائق صبح الاعشى» - مقال في مجلد عن أبي العباس القلقشندي وكتابه «صبح الاعشى» تأليف نخبة من الاساتذة - تقديم الدكتور أحمد عزت عبد الكريم - القاهرة ١٩٧٣ - ص ١٤٥ - ٢٠٠ .

للتصدير مباشرة . وقد اسهمت بيوت المال والتجارة في البندقية وجنوة وفلورنسا وسينا بكميات ضخمة من المال استثمرتها في استخراج وشراء الفضة من وسط اوروبا وبصفة خاصة من الاقليم الذى يطلق عليه الآن أسم سلوفاكيا

وفيا بين القرنين العاشر والثالث عشر للميلاد (فيا بين القرنين الرابع والسابع للهجرة) عانى غرب ووسط اوروبا من ركود في المجالات الاقتصادية والتكنولوجية والعملية والثقافية ، الامر الذى جعلهما دون ادنى شك ، اقل تقدما من العالم الاسلامى او بعض مناطق من الشرق كالصين مثلا . ومع ذلك فقد كان المجتمع الاوروبى بنينا اجتماعيا اكثر حركة وديناميكية . وقد طرأت عليه تغيرات جوهرية في المجالين الاقتصادى والاجتماعى ، تمثلت قبل كل شئ في قيام المدن وعقد الاسواق المحلية وتنظيم الاقتصاد النقدى ، وفي النهاية تكوين العلاقات الرأسمالية المبكرة ولايجب فصل هذا الغليان الداخلى للمجتمع الاوروبى في (أخريات) العصور الوسطى عن نظام الاقطاع الارضى الذى كان ، من حيث المبدأ ، يختلف عما كان سائدا في الشرق (١) .

وبسبب اختلاف الانظمة الاجتماعية ظلت اجزاء كبيرة من اوروبا ، كانت في الاصل اشد تخلفا ، متخلفة في تطورها عن الشرق الاسلامى المليء بالثروة ، والذى كان يعتبر تقريبا في الفترة الوسيطة من التاريخ بمثابة حلقة

---

(١) حول الاقتصاد الطبعى الذى ساد الغرب الاوروبى في ظل الاقطاع في العصر الوسيط ، ووجه الخلاف بينه وبين الاقتصاد النقدى الذى حل محله بعد انهيار الاقطاع في الغرب وظهور المدينة بسكانها الأحرار وحركتها النشطة في التجارة والصناعة وحضارتها المدنية ، انظر هارتمان (ل.م.) وباراكلاف (ج.) : الدولة والإمبراطورية في العصور الوسطى - ترجمة وتقديم الدكتور جوزيف نسيم يوسف - ط. ثانية لاسكندرية ١٩٧٠ - ص ٢ وما يليها و ٩١ وما يليها و ١٠٧ وما يليها . ومن المؤرخين الاوربيين الحديثين الذين وجهوا اهتماما خاصا إلى هذه الناحية في كتبهم وتأليفهم : R.S. Lopez, I.W. Raymond, A. Dopsch, I. Thompson, H. Pirenne, M. Bloch, M. Postman.

الوصل التي بوسعها القيام بعملية الامداد المباشر للسلع والبضائع من اوروبا وافريقية ووسط آسيا والهند والشرق اذ قصى .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن الغزو المغولى فى القرن الثالث عشر الميلادى (القرن السابع الهجرى) ، فضلا عن توسع الاتراك العثمانيين فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين (القرنان الثامن والتاسع الهجريان) ، قد أدبا إلى بسط نفوذ كل من المغول والاتراك على اقاليم شاسعة فى شرق اوروبا . هذا ، فى نفس الوقت الذى جنت فيه الاقطار الاوروبية الاخرى (اى دول الغرب) نتائج طيبة فيما يتعلق بالتغير الجوهري الذى حدث فى المجالس الاقتصادية والاجتماعى . بينما كان على دول وشعوب شرق وجنوب شرق اوروبا ان تستنفد معظم قواها فى كفاح ضد الطغاة . وبعبارة أخرى ، كان على هذه الدول والشعوب ان تدفع ثمنا باهظا لأنها اوقفت تقدم المغول والاتراك قبل ان يصلوا إلى وسط أوروبا . ويعتمد ذلك على الحقيقة الواقعة ، ومفادها ان الاتصال المفروض عليها بالطبقات الحاكمة المغولية والتركية لم يؤد إلى نتائج ملموسة إيجابية يمكن ان تحدث أى تغير جوهري ، حتى إذا صح القول بأن المغول عملوا على قمع القلاقل والاضطرابات فى أراضيهم ، أو أن الاتراك وضعوا دعائم ادارة منظمة فى البلاد المفتوحة .

البحث الخامس  
 أحد مصنفى الموسوعات السكندريين  
 فى القرن الرابع عشر الميلادى (القرن الثامن الهجرى)  
 دراسة نذرية تحليلية  
 لكتاب «الإمام» للنويرى الاسكندرانى

تأليف  
 عزيز سورىال عطية

ترجمة وتقديم  
 جوزيف نسيم يوسف  
 هذا البحث تحت الطبع بمجلة «عالم الفكر» فى الكويت





هذه ترجمة المقال التالي :

Atiya, A.S., «A Fourteenth Century Encyclopedist from Alexandria : A Critical and Analytical Study of Al-NUWAIRY AL-ISKANDARANI'S KITAB AL-ILMAM, «Research Monograph No. 7, Middle East Center, University of Utah, Salt Lake City, Utah, 1977, pp. 1—39.

مع التقديم لها :

## المحتويات

### كلمة المترجم

مقدمة : الاصل الإنجليزى بقلم الاستاذ خسرو مصطفى مدير  
مركز الشرق الاوسط بجامعة يوتا .

الفصل الأول تمهيد .

الفصل الثانى المؤلف وكتابه .

الفصل الثالث النويرى كمؤرخ .

الفصل الرابع حملة الاسكندرية الصليبية عام ١٣٦٥ م (٧٦٧ هـ) :

الفصل الخامس خاتمة : تقييم التراث الذى خلفه النويرى .

### كلمة المترجم

في عام ١٩٧٦ ، وبعد عمل مضمّن جاد ومتواصل امتدّ قرابة نصف قرن أتم الدكتور عزيز سوريال عطية نشر وتحقيق كتاب «الإمام بالأعلام فيما جرت به الأحكام والأمر المتّضية في وقعة الاسكندرية» للنويرى الاسكندرانى ، وهو يقع في سبعة أجزاء ، تتضمن الأجزاء الستة الأولى النص بلغته العربية ، بينما يشتمل الجزء السابع والآخر على الفهارس . وفي عام ١٩٧٧ ظهر مقال الدكتور عطية باللغة الانجليزية المعنون «أحد مصنفى الموسوعات السكندريين في القرن الرابع عشر الميلادى (القرن الثامن الهجرى) : دراسة نقدية تحليلية لكتاب الإمام للنويرى الاسكندرانى » ، وذلك ضمن سلسلة بحوث مركز الشرق الاوسط بجامعة يوتا بالولايات المتحدة الأمريكية . وينشر كتاب الإمام وظهور المقال ، يمكن القول اننا اصبحنا اليوم نلم ألاما تاما صحيحا ليس فقط بالموسوعة ومحتوياتها على تنوع وتعدد وتشعب موضوعاتها ، وانما أيضا بمؤلفها ومكانه بين مؤرخى القرن الرابع عشر الميلادى .

والدكتور عطية ، المحقق والمؤلف ، ليس بحاجة إلى ان نقدمه إلى عالم العلم والمعرفة . فسيادته يشغل الآن وظيفة « كبير اساتذة التاريخ » بمركز الشرق الاوسط بجامعة يوتا الأمريكية . كان قد حصل على أولى دبلوماته العالية من مصر وهو دبلوم المعلمين العليا عام ١٩٢٧ . ثم اوفد في بعثة دراسية إلى الخارج حيث تخصص في حقل تاريخ العصور الوسطى . ومن جامعة ليفربول بانجلترا حصل على درجة البكالوريوس في الآداب عام ١٩٣١ . وعلى درجة الماجستير في الآداب عام ١٩٣٣ ، وعلى درجة الدكتوراه في الآداب عام ١٩٣٨ . وقد تدرّج في وظائف التدريس بالجامعات المصرية ،

فعين عام ١٩٣٩ استاذا مساعدا فى تاريخ العصور الوسطى بكلية الآداب بجامعة القاهرة . وفى عام ١٩٤٢ عين فى وظيفة استاذ تاريخ العصور الوسطى بكلية الآداب بجامعة الاسكندرية . وقد شغل هذه الوظيفة حتى اواخر عام ١٩٥٣ حينما سافر إلى الولايات المتحدة الامريكية ليواصل جهاده العلمى فى العديد من جامعاتها ، نذكر من بينها جامعات متشيجان وكولومبيا وبرنستون وانديانا ، إلى ان استقر به المطاف بجامعة يوتا بسولت ليك سيتى . والدكتور عطية هو مؤسس مركز دراسات الشرق الاوسط بالجامعة المذكورة ومديره الاسبق . وهو ، فى نفس الوقت ، مؤسس مكتبته الضخمة الشهيرة التى تحمل اسمه .

وليس من السهل ان نحصر فى هذه العجالة المؤتمرات والمهام العلمية التى شارك فيها سيادته ، او ان نعدد أعماله التى اثرى بها مكتبة الدراسات الانسانية بصفة عامة ، والدراسات العربية والتاريخية على وجه الخصوص ، من كتب وبحوث ومقالات بمختلف اللغات . ولكن ما يهمنى منها فيما نحن بصددده ، هى مؤلفاته بالانجليزية فى تاريخ الحركة الصليبية أو أحد فصولها . ومنها « حملة نيقوبوليس الصليبية » الذى طبع فى لندن عام ١٩٣١ ، و « الحروب الصليبية فى أخريات العصور الوسطى » وقد صدرت طبعته الاولى فى لندن عام ١٩٣٨ وطبعته الثانية فى نيويورك عام ١٩٦٣ ، و « مصر وارغونة » وقد طبع فى ليزريج عام ١٩٣٨ ، و « الحروب الصليبية والتجارة والثقافة » وقد طبع فى بلومنجتون عام ١٩٦٢ . فضلا عن مؤلفه المعنسون « الحروب الصليبية : تاريخها ومراجعتها طبع فى بلومنجتون عام ١٩٦٢ . وقد ترجمت بعض هذه الكتب إلى اللغات الاوروبية الاخرى الحديثة كالالمانية والفرنسية ، بينما نقل البعض الآخر إلى اللغة العربية . هذا ، بالإضافة إلى العديد من البحوث والدراسات التى ظهرت لسيادته فى مختلف الدوريات العلمية العالمية .

إذن ، نحن أمام عالم وهب فكره وحياته لتاريخ العلاقات بين الشرق و الغرب فى العصور الوسطى بعامة ، وتاريخ الحركة الصليبية على وجه الخصوص وله فيها آراء ونظريات هامة معترف بها فى عالم البحث . ولهذا ، ليس مستغربا أن يمضى السنوات الطوال فى نشر وتحقيق كتاب الإمام للنويرى الاسكندرانى الذى يدور اساسا حول حملة بطرس الاول لوزجان ملك قبرص اللاتينى على مدينة الاسكندرية سنة ١٣٦٥ م / ٧٦٧ هـ . وليس ، مستغربا أن ينتقل سيادته بين مصر والمانيا والهند جريا وراء نسخته الخطية الباقية . وكان طبيعيا بعد نشر الكتاب كاملا ، ان يتوج هذا العمل الكبير بمقال بالانجليزية عن الكتاب ومؤلفه . وهو ، فى الحقيقة ، عبارة عمل دام السنوات الطوال ، سجل فيه بحيدة ودقة وامانة وموضوعية ، وكما قال - الاستاذ خسرو مصطفى المدير الحالى لمركز الشرق الاوسط بجامعة يوتا ، ماتضمنته هذه الموسوعة الهائلة من معلومات وفيرة واصيلة فى العديد من الموضوعات الهامة المتنوعة .

وهذا المقال الذى نقله الى قراء العربية للمرة الاولى ، يشتمل على مقدمة بقلم الاستاذ خسرو مصطفى وفصول خمسة ، اولها تمهيدى وآخرها ختامى . وفيما بينها ثلاثة فصول خصصها المؤلف للنويرى وكتابه ، والنويرى كؤرخ وحملة القبارصة على الاسكندرية ، على التوالى :

وقد أشار الدكتور عطية فى الفصل الاول التمهيدى الى اسباب اهتمامه بكتاب الإمام للنويرى الذى تضمن ضمن ماتضمنه حملة القبارصة على الاسكندرية . كذلك اشار الى النسختين الخطيتين للإمام المعروفتين وقتها وهما نسخة كل من برلين والقاهرة ، ومراحل العمل فيها الى ان تبين وجود نسخة ثالثة كاملة فى بانكى بور بالهند ، ومااستتبع ذلك من قيامه بنشر وتحقيق

الموسوعة كاملة بلغتها الاصلية العربية ، فى ضوء هذه النسخ الخطية الثلاث .  
وقد ظهرت فى سبعة أجزاء فى السلسلة الجديدة من مطبوعات دائرة المعارف  
العثمانية بحيدر آباد بالهند (١) .

وفى الفصل الثانى وعنوانه «المؤلف وكتابه» عرفنا الاستاذ عطية بالنورى  
الاسكندراني وسبب تسميته بالاسكندراني التى ترجع إلى اقامته الطويلة  
بالاسكندرية التى عشقها . كما حلل شخصيته ، وأشار إلى من تسموا بنفس  
الاسم من معاصريه من المؤرخين ، كما حتمق نسبة كتاب الإمام إليه واكدها  
وأوضح الفترة الزمنية التى شغلها فى جمع مادتا الكتاب واعداده ، كما أشار  
إلى مهنة النورى كمناسخ للمخطوطات ، واهميتها فى اتساع دائرة معارفه  
ومعلوماته من ناحية ، وفى تلك المادتا الغزيرة الاصلية التى اختزنها وافاد منها  
فى الوقت المناسب من ناحية اخرى . وذكر كيف تبلور كل هذا فى كتاب  
الإمام . فعلى الرغم من أنه وضعه اساسا بهدف تسجيل كارثة هجوم القبارصة  
على الاسكندرية ، إلا انه تضمن بين ثنايا سرده لأحداث الحملة الصليبية  
معلومات ومعارف متنوعة متعددة متشعبة تطرق فيها تقريبا إلى كل المجالات  
والميادين ، وقد أضفى هذا على الكتاب اهمية مضاعفة ، وان جعل التعامل  
معه فى نفس الوقت أمرا صعبا للغاية ، بسبب عدم ترتيب المؤلف لهذا القدر  
الهائل من المادة البالغة الاهمية . وقد عالج الدكتور عطية هذه الناحية فى الجزء  
السابع الاخير من الكتاب والمعنون «فهارس كتاب الإمام» ، والذي تضمن  
اربعة عشر فهرسا مصنفة تصنيفا موضوعيا ، ومرتبة ترتيبا ابجديا . فهناك ،

---

(١) النورى الاسكندراني : كتاب الإمام بالاعلام فيما جرت به الاحكام والامور المقضية  
فى وقعة الاسكندرية - نشر وتحقيق الدكتور عزيز سوريال عطية - ٧ ج - الهند (مطبعة مجلس  
دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن) ١٩٦٨ - ١٩٧٦ م / ١٣٨٨ - ١٣٩٦ هـ .

مثلا ، فهرس للاعلام ، وآخر خاص بالاماكن والبقاع ، وثالث للأمم والقبائل والاجناس ، ورابع خاص بالاسكندرية ومبانيها وشوارعها ، وخامس يتعلق بالسفن ، وسادس بالمصطلحات الحربية . إلى جانب فهرس تتعلق بالنواحى الادبية ، والجغرافية ، والفلكية ، وعلمى الحيوان والنبات . ولاشك أن هذا الفهارس سوف تيج للباحثين المتخصصين الافادة الكاملة من كتاب الإمام ، وأستخراج الدرر التى يشتمل عليها بسهولة ودون عناء .

لقد أضاف الاستاذ عطية الجديد إلى ما كنا نعرفه من قبل عن النويرى وكتابه ، كما عدل وصحح بعض الآراء والافكار التى كانت سائدة من قبل والتى وردت فى كتب المؤرخين الحديثين المعنيين مثل كارل بروكلمان C. Brockelmann ، والوراد Ahlwardt وشارل ريو Ch. Rieu . ونخص بالذكر جهوده اسم النويرى ، وشخصيته ، وتاريخ وفاته ، وتقدير اهمية كتابه ، والمآخذ عليه ، واسلوبه ، وهذه وغيرها من القضايا إما تضيف جديدا أو تغير رأيا كان سائدا .

وفى الفصل الثالث وعنوانه «النويرى كمؤرخ» ، حدد الاستاذ عطية دور النويرى الاسكندرانى فى الاسهام التاريخى ومكانته بين كل من معاصريه من ناحية والسابقين عليه واللاحقين له من ناحية اخرى . وطرح عدة تساؤلات . هامة لها دلالتها . هل يعتبر النويرى مؤرخا بالمعنى الدقيق من هذا الاصطلاح ؟ وإذا كان الامر كذلك ، هل مؤرخ محترف ؟ وإذا لم يكن ، هل يجوز ان نعتبره مؤرخا ؟ هل يمكن ان نضعه فى مصاف معاصريه مثل العمرى وسميه النويرى الكندى ؟ او حتى المتأخرين عنه زمنيا امثال الذهبى ، والصفدى ، وابن الفرات ، وابن خلدون ، ومن جاء بعدهم ؟ ثم ماهى مصادر معلوماته الوفيرة التى ضمنها كتابه ؟ وإلى اى حد يمكن الوثوق بها ؟ وبكلمة مختصرة ،



ماوزن النويرى كمؤرخ ، وماهى مكانته بين غيره من مؤرخى العصر الاسلامى  
الوسيط ، فى ضوء التراث الذى خلفه لنا ؟

تساؤلات عديدة طرحها الاستاذ عطية على بساط البحث، واجاب عنها  
اجابات صريحة محددة واضحة ، وقد خلص من ذلك انه ثمة عدة ركائز  
اساسية تحدد مكانة النويرى فى مجال الدراسات التاريخية ، وتكشف عن قيمة  
كتاب الإلام . فهو ، أولاً ، اديب وشاعر مرهف الحس يمتاز بروحه المرحّة  
ثم انه ، ثانياً ، عاش فى الاسكندرية معظم سنى عمره ، وعشقها ، واصبح  
حبه لها يجرى فى دمايته . وهو ، ثالثاً ، بحكم مهنته كناسخ للمخطوطات التى  
تناولت شتى افرع العلم والمعرفة ، قد قام بنسخ الآلاف منها وأستوعب ما فيها  
من معلومات غزيرة فى كمها فريدة فى نوعيتها . واخيراً ، فإن النويرى كان  
شاهد عيان لفاجعة الهجوم القبرصى على الاسكندرية ، وشاهد بعينه آثار  
الدمار الذى حل بالمدينة فور نزول الصليبيين إلى الشاطئ . ثم تركها مذعوراً  
إلى قريته النويرة ، وعاد ثانية إليها بعد رحيل القبارصة عنها ليرى آثار المحسن  
التي نزلت بها ، وأعمال السلب والنهب التي أصابها . وقد اثارت فيه الفاجعة  
كوا من النفس، وحركت بداخله حبه الطويل القديم للاسكندرية ، وأمزجت  
بهذا وذلك تلك المعلومات الغنية التي أختزنها كناسخ للمخطوطات ،  
والتي تتميز بالتنوع والتشعب والتداخل ، وتتناول العديد من الموضوعات .  
وقد تبلور كل هذا فى كتاب الإلام ، تلك الموسوعة العالمية الهائلة الفريدة  
فى نوعها وبابها . وكان خطها الاساسى هو حملة القبارصة الصليبية على  
الاسكندرية ، وقد نسج حوله كل ما اختزنه واكتسبه من معارف ومعلومات  
لأول لها ولا آخر . وعلى هذا فمحور الكتاب هو الحملة . وحول هذا  
الموضوع الرئيسى وبين ثناياه امدنا بمعلومات وتفاصيل هامة عن امبراطوريات

الفرس واليونان والرومان والبيزنطيين والعرب قبل الاسلام . ووجه اهتمامنا خاصاً إلى الفتوحات الاسلامية ، وإلى الدول الاسلامية في العصر الوسيط . فتحدث عن الخلفاء الراشدين ، والامويين ، والعباسيين ، والطولونيين ، والاحشيديين ، والمغاربة ، والفاطميين . كما أشار بالتفصيل إلى شخصيات عصره من الممالك في مصر . وزودنا ، أحياناً ، بمعلومات جديدة غير معروفة في المصادر التاريخية التقليدية . وبحكم تنوع مادته وتداخلها في بعضها ، تطرق إلى الحديث في العديد من الموضوعات مثل الحروب الاسلامية في العصر الوسيط وفن الحرب والقتال عند المسلمين ، وطبوغرافية الاسكندرية وجغرافيتها ومبانيها ومنشآتها وكل مايتعلق بها ، إلى جانب النواحي الادبية والجغرافية والاقتصادية والاجتماعية والدينية . ولذلك جاءت موسوعته حاوية لنقاط عديدة شتى تجعلها اشبه بدائرة معارف يمكن أن يفيد منها الباحثون المتخصصون في شتى أفرع المعرفة . ولكن يجب ألا ننسى ، بعد هذا كله ، ان النويري السكندري يعتبر حجة فيما يتعلق بحملة القبارصة على الاسكندرية .

اما الفصل الرابع وعنوانه «الحملة الصليبية على الاسكندرية عام ١٣٦٥م/ ٧٦٧ هـ» ، فقد خصصه الدكتور عطيه لتاريخ تلك الحملة من واقع كتاب الإمام للنويري . وسيادته يغتبر حجة رائدة في هذا الميدان الذي كرس له وقته وجهده ، وكانت الثمرة إثراء مكتبة تاريخ الحروب الصليبية بالعديد من بحوثه ومؤلفاته التي لها وزنها وشهرتها العالمية .

وقد سبق أن تناول تاريخ حملة القبارصة على الاسكندرية في كتابه الضخم «الحروب الصليبية في أخريات العصور الوسطى» (١) ، والذي توصل

Cf. Atiya, A.S., The Crusade in the Later Middle Ages, London (١)  
(Me:huen & Co.), 1938, pp. 345—378.

فيه إلى نظرية جديدة أصبح معترف بها في مجال الدراسات التاريخية ،  
ومفادها ان الحروب الصليبية التي تعرض لها العالم لاسلامى ، في مشرقه  
ومغرب ، لم تنته حسبما هو معروف في أواخر القرن الثالث عشر الميلادى  
(أواخر القرن السابع الهجرى) عندما تمكن السلطان المملوكى الاشرف خليل  
من اجلاء الصليبيين عن عكا آخر معاقلهم الحصينة بالساحل الشامى سنة ١٢٩١م /  
٦٩٠ هـ ، وانما استمرت خلال القرن الرابع عشر الميلادى (القرن الثامن  
الهجرى ) فيما يعرف باسم «الحروب الصليبية المتأخرة» ، حينما تعرض العالم  
الاسلامى لحملة صليبية كبيرة لاتقل ضراوة عن الحملات المبكرة ، وتتفق  
معها في مفهومها وخصائصها وطبيعتها وهدفها . نذكر منها ، على سبيل المثال  
حملة القبارصة على الاسكندرية موضوع هذا الفصل : وحملة لويس الثانى  
دوق بوربون على المهديّة سنة ١٣٩٠ م / ٧٩٢ هـ ، وحملة نيقوبوليس الشهيرة  
سنة ١٣٩٦ م / ٧٩٨ هـ التى قامت بها أوروبا بأسرها للإخراج العثمانيين من  
شبه جزيرة البلقان فحسب ، بل للوصول إلى بيت المقدس في قلب امبراطورية  
المماليك أيضا (١) .

وهنا لابعيد الاستاذ عطية ماسبق أن ذكره عن الهجوم القبرصى على  
الاسكندرية ، في كتابه سالف الذكر ، وانما يحلل تحليلا دقيقا رائعا روايات  
النويرى عن تلك الفاجعة ، وقيمتها التاريخية فيما يتعلق بالجديد الذى اضافته  
إلى معلوماتنا عنها ، والتفاصيل التى زودتنا بها ولم ترد في المصادر الغريسة

---

(١) الدكتور عزيز سوريال عطية مؤلف عن تلك الحملة هو :

المعاصرة له مثل كتاب كل من جويوم دى ماشو Cuillaume de Machaut وليونتيس ماخايراس Leonties Makhairas (١) .

والجديد فى هذا الفصل ، ايضا ، ان الاستاذ عطية قام بتنسيق روايات النويرى الخاصة بتلك الحملة والمبعثرة والمشتتة على امتداد الكتاب بين غيرها من المعلومات التى لا تربطها بها اى رابطة ، مع ترتيبها ترتيبا زمنيا مسلسلا بحيث تبدو وحدة واحدة متكاملة تسجل تاريخ الهجوم من بدايته إلى نهايته لحظة بلحظة .

وإذا استعرضنا مشاهد الحملة ، باختصار ، نجد انها تبدأ بتحذيرات وجهها بعض المسلمين الاتقياء فى العالم الاسلامى إلى أولى الأمر فى مصر من الممالك بما سوف يحل بمدينة الاسكندرية ، وكان ذلك قبل الحملة ببضع سنوات . وهنا تتداخل الحقائق والاساطير حينما يروى النويرى بعض المنامات التى تراءت لعدد من الناس بهذا الخصوص . وبعد ذلك يحلل صاحب الإمام تحليلا دقيقا الاسباب التى ادت إلى الكارثة ، ويحددها بسبعة مابين مباشرة وغير مباشرة ، ورئيسية وثانوية ، وداخلية وخارجية ، مبينا كيف أنها مجتمعة متكاثفة هيأت الجو لها . ثم يتحدث عن استعدادات الجانبين المصرى والقبرصى ويشير إلى نظام التجسس والاستطلاع لدى كل منهما وأثره . وهنا يحلل الموقف تحليلا دقيقا ، مع ذكر امكانيات النجاح أو الفشل فيما يتعلق بقدرة الممالك فى مصر على صد هذا الهجوم المرتقب .

وابتداء من هذه النقطة يزودنا النويرى بصورة حية نابضة عن الهجوم

---

Cf. Makhairas, L., Recital concerning the Sweet Land of Cyprus (١) entitled Chronicle, 2Vols., Greek text with English trans. and notes by R.M. Dawkins, Oxford, 1932.

كشاهد عيان له ، منذ نزول الفرنج إلى الشاطئ ، وتسلقهم للاسوار ، وفرار الجماهير المذعورة ، وحالة اليأس التي استولت على الجميع . ثم فراره هو مع الفارين ، وعودته ثانية إلى المدينة بعد انسحاب الفرنج منها ليسرد ، مرة أخرى ، مارآه من الخراب والدمار اللذين حلا بها . اما فيما يتعلق بالفترة الواقعة بين تركة المدينة وعودت إليها ، فقد جمع معلوماته عنها من شهود عيان آخرين بقوا داخل أسوارها وقصوا عليها ما حدث بكل دقائقه وتفصيله .

و كانت الحصيلة ان النويرى — بعد جمع الدكتور عطية لهذا الشتات من المعلومات وتنسيقه وترتيبه — امدنا بصورة متكاملة نابضة بالحركة والحياة عن تاريخ هذه الحملة . والكوارث التي حلت بالثغر السكندرى على ايدي الغزاه ، وهى صورة تزود الباحث المتخصص باتم واوفى وادق تسجيل لهذا الهجوم الوحشى المدمر الذى دام ثمانية ايام منذ لحظة نزول الفرنج إلى الشاطئ وحتى مغادرتهم المدينة وهى فى حالة يرثى لها . وهنا نجد أنفسنا أمام مشاهد وأمثلة متباينة مثيرة للدهشة والعجب . امثلة نادرة للشجاعة الفردية اليايسة المستميتة لبعض أهالى المدينة ، إلى جانب نماذج من الغدر والخيانة والجبن التي اتسم بها بعض المسئولين من الممالك ، إلى جانب اعمال القسوة والوحشية التي فوق حد الوصف والتي مارسها الغزاة ضد الاهالى دون شفقة او رحمة او هوادة ودون تفرقة او تمييز للسن او الجنس بل دون تفرقة او تمييز بين الاهالى من مسلمين ومسيحيين ويهود . هذا ، إلى جانب اعمال السلب والنهب التي ارتكبها الفرنج ، والاسلاب التي وضعوا ايديهم عليها وحملوها والحرائق التي اشعلوها فى منشآت المدينة ومبانيها حتى اصبحت خرابا . ويزودنا النويرى ، ايضا ، بصور عديدة تكشف عن تداخل المصالح الاقتصادية فى المسائل السياسية ، وذلك فيما يتعلق بموقف الجاليات الايطالية التجارية ،

وبخاصة البنادقة ، الذين رأوا في هذا الهجوم اضرار بهم وبمصلحتهم ، فوقفوا منه موقف المعارضة والعداء لإرضاء السلطات المملوكية من ناحية ، وحفاظا على امتيازاتهم ومكاسبهم في مصر من ناحية أخرى .

صور ومشاهد عديدة تترى وتتابع ، سجلها النويرى بإسهاب وتفصيل كبيرين . ومنها نعرف ان مدينة الاسكندرية اصبحت بعد مغادرة الفرنج لها قبرا مفتوحا ، بينما جثت الضحايا تملأ شوارعها وأزقتها ولا تجد من يقوم بدفنها . وقد ترك هذا جراحا عميقة في مصر لم تندمل ، رغم محاولات السلطات القبرصية إعادة السلام بين البلدين وتناسى الماضي المزعج . وكان طبيعيا ان تتدهور العلاقات بين مصر وقبرص بقية حكم بطرس الاول لوزجنان قائد الحملة المشنومة ، وفي عهد خليفته بطرس الثاني وجانوس الثاني . وأثناء حكم الأخير ، انتقلت مصر تماما لما حل بعاصمتها الثانية ، عندما وجهت ثلاث حملات كبيرة ضد قبرص خلال أعوام ١٤٢٤ و ١٤٢٥ و ١٤٢٦ على التوالي وفي الحملة الثالثة الحقت بتلك الجزيرة ضربة قاضية ، وانزلت بها هزيمة ساحقة ، واخذت معها إلى القاهرة ملكها جانوس وكبار رجال حاشيته اسرى مكبلين بالاعلال .

وهكذا كان الثمن الذي دفعته قبرص غاليا ، وكانت الضربة التي الحقها سلطنة المماليك في مصر بالجزيرة قاضية ، تكشف بما لا يدع مجالا للشك ان كفة الميزان في الصراع الطويل المريع بين الصليبيين والمسلمين كانت قد رجحت وبشكل نهائي وحاسم لمصلحتها ، واصبح مركز الثقل يميل بقوة إلى جانبها . وكل هذا يتصل بموازين القوى ومراكز الثقل في الصراع بين شتى العالم وقتها ، ويرتبط أيضا بالافعال وردود الافعال ، وبالاسباب والمسببات التي ادت إلى ذلك الصراع والنتائج والخواتيم التي ترتبت عليه (١) .

---

(١) اشرت إلى ذلك بالتفصيل في مقال بالانجليزية :

وخلاصة ماسبق انه إذا اردنا ان نؤرخ لحملة القبارصة على الاسكندرية  
لا يمكن بحال أن نتجاهل أو أن نتعاضى عما سجله النويرى السكندرى عنها  
فى كتابه الإمام . وان هذا التجاهل او التغاضى يجعل دراستنا عن تلك الحملة  
قصة مبتورة غير مستوفاة .

وفى الفصل الخامس الختامى والأخير ، قدم الدكتور عطية تقيبا دقيقا  
لهذا التراث الهائل المتنوع الذى خلفه لنا النويرى ، والذى اثرى به الدراسات  
الانسانية فى مختلف الميادين والمجالات ، وفى شتى نواحي العلم والمعرفة .  
ولارب ان فهارس الدكتور عطيه الموضوعية المصنفة التى يشتمل عليها  
الجزء السابع والاخير من كتاب الإمام ، سوف تلقى الضوء على هذا التراث  
وتعين الباحث المتخصص على الاغتراف منه .

وبعد ، فقد أقتضى نقل مقال الدكتور عزيز سوريال عطية إلى اللغة  
العربية ، الرجوع إلى كتاب الإمام بأجزائه السبعة لتحقيق أسماء الاعلام ،  
والاماكن والمصطلحات كما ذكرها النويرى . كذلك اقتضى ترجمة النص  
ترجمة دقيقة تتمشى مع روح اللغة العربية . أضافة القليل جدا من العبارات  
الموجزة إلى المتن بقصد الايضاح او التعريف بالنسبة للقارئ العربى . وتميزا  
لها عن الاصل الانجليزى ، فقد وضعنا كل اضافة منها بين حاصرتين كذلك  
زودنا الترجمة العربية ببعض التعليقات فى الهوامش السفلية رأينا ان طبيعة  
الموضوع تستلزم تزويده بها . وقد أضفنا كلمة « المترجم » بعد كل حاشية  
منها تميزا لها عن حواشى المؤلف ، وتحقيقا للفائدة المرجوة من تعريب هذا  
البحث القيم العظيم .

جوزيف نسيم يوسف

## مقدمة الاصل الانجليزى

بقلم

خسرو مصطفى

تولى عزيز سوربال عطية ، مؤسس مركز الشرق الاوسط ومكتبته الرائعة بجامعة يوتا ، نشر مخطوطة «كتاب الإمام» فى سبعة أجزاء ، والتى وضعها أحد مصنفى الموسوعات المصرين من الاسكندرية فى القرن الرابع عشر الميلادى «القرن الثامن الهجرى» ، وهو محمد بن قاسم بن محمد النويرى المالكى الاسكندرانى . ويتضمن هذا العمل قدرا غير عادى من المعلومات فى موضوعات شتى متنوعة . وقد خصص جانبا كبيرا منه لروايات أصيلة تتعلق بنهب القبارصة لمدينة الاسكندرية عام ١٣٦٥ م «٧٦٧ هـ» .

ووفقا لقول الناشر فإن النويرى «قد أتخم النص بالمعلومات والتفاصيل منتقلا من موضوع إلى آخر دون تمييز» . ورغمنا عن افتقار النص إلى التنسيق فإن يصعب تقدير قيمة المخطوطة فمصدر للمعلومات «التي تلقى ضوءا» على فصل من فصول التاريخ الطويل للحركة الصليبية . ويعتبر الدكتور عطية عالما حجة فى هذا الميدان ، إذ كتب فيه بغزارة . وأصبح النص الكامل لكتاب النويرى ، بفضل الجهود التى كرسها فى هذا السبيل ، فى متناول طلاب العلم بعد طبعه ونشره فى ستة مجلدات . اما المجلد السابع الذى اعده الدكتور عطية فسوف يسهل إلى اقصى حد عملية البحث بالنسبة لأى دارس ، إذ يزوده بعدد كبير من الفهارس التى تتضمن مختلف الموضوعات ، كأسماء الاماكن والاعلام ، والقبائل ، وادوات الحرب ، والحيوانات ، والسفن ، والفلك ، والقوافى ، وما إلى ذلك . وسوف تنير هذه الفهارس الطريق امام الباحث فى خضم «المعلومات المشوشة التى يعوزها التنسيق والترتيب» والتى زدونا بها



النويرى حسب قول «عزيز سوريال عطية». وربما كان هذا هو اعظم ما قدمه فيما يتعلق بعملية نشر الكتاب .

ويرجع اهتمام الدكتور عطية بـ «كتاب الإمام» للنويرى إلى ما يزيد عن اربعين عاما مضت ، عندما عمل مع المغفور له الاستاذ أتين كومب Etienne Combe ، الذى كان فى ذلك الوقت ينشر نصا يعتمد على مخطوطتى برلين والقاهرة . وبعد وفاة كومب عام ١٩٦٢ ، تابع الدكتور عطية المشروع بمفرده ، مضيفا إلى مصادره مخطوطة بانكى بور ، وهى اوفى من المخطوطتين الاخرين. وكانت الخطة الاصلية تهدف نشر طبعة مختصرة «للكتاب». ولحسن الحظ ، قرر الدكتور عطية بعد تفكير طويل خلاف ذلك . وكانت النتيجة صدور النص الكامل مطبوعا بلغته الاصلية وهى العربية . ولاشك انه ستظهر له ترجمة باللغة الانجليزية فى الوقت المناسب .

ولقد تحمل الدكتور عطية تضحية شخصية هائلة فى سبيل نشر الكتاب . وإذا راعينا العناية الفائقة التى بذلها فى العمل فى المشروع قرابة نصف قرن ، إلى جانب الوقت الذى اضطر لقضائه فى حيدر آباد «الدكن» للإشراف على نشر كل جزء من أجزائه ، لنذكرنا تعليق أحد الباحثين كان يعمل مساعدا للمغفور له أدوارد/ج. براون Edward G. Browne بجامعة كامبريدج لقد شكنا من أن براون كان قد اوفده ذات مرة فى اربع رحلات مختلفة إلى باريس للتأكد من صحة تهجئة كلمة واحدة فى اربع نسخ خطية ، كانت قد استرعت انتباه براون الواحدة تلو الاخرى . ولسوء الحظ فإن هذا النوع من العلم فى طريقه إلى الزوال . لاننا نعيش اليوم فى عصر السرعة والدراسة المتعجلة ، وفى عصر يهمل التفاصيل التى هى بمثابة العلامات الدامغة للصناعات الدقيقة .

وسوف يتيح هذا المقال للقارئ الذى يتكلم الانجليزية الفرصة للتعرف على مادة «كتاب الإمام» للنويرى ، وبخاصة وصفه الدقيق المفصل للاحداث المفجعة التى صاحبت حملة عام ١٣٦٥ م الصليبية. وان مركز الشرق الأوسط ليفخر بان يضم إلى سلسلة بحوثه ومقالاته ، ملخص الدكتور عطية الوافى لهذه الموسوعة .

خسرو مصطفى

مدير مركز الشرق الأوسط

بجامعة يوتا



## الفصل الاول

### تمهيد

ترجع معرفتي بـ «كتاب الإلام» للنويرى الاسكندرانى إلى عام ١٩٣٦ م وكان ذلك اثناء اعدادى لدراسة مستفيضة لتاريخ «الحروب الصليبية فى أخريات العصور الوسطى» (١) وباستعراض الحملات الصليبية فى شرق البحر المتوسط ، اصبح لزاما تخصيص مساحة كبيرة وتوجيه اهتمام بالغ إلى كارثة نهب القبارصة وحلفائهم من غرب أوروبا لمدينة الاسكندرية عام ١٣٦٥م. فقد حظيت تلك المغامرة الصليبية بقدر كبير من الدراسة والتحقيق من جانب طلاب العلم الاوروبيين غير المستشرقين ، من واقع المصادر والاصول الغربية ، وبخاصة قصيدة جويوم دى ماشو Guillaume de Machaut الشهيرة تحت عنوان «غزو الاسكندرية» La Prise d'Alexandrie (٢) . وكان دى ماشو بالفعل احد المشتركين فى هذا الحادث المؤسف . وعلى هذا فقد كتب كشاهد عيان ، ولو ان روايته كانت بطبيعة الحال من الزواية المسيحية «الغربية» . ولهذا السبب بدا لى «رأى دى ماشو» رأيا من وجهة نظر واحدة يشوبه بالضرورة الخطأ ، مالم نعثر على رأى الآخر من الجانب الاسلامى ولما كان دى ماشو قد كتب من الخارج ، فإنه من المستحسن من الوجهة التاريخية البحث عن مواطن كتب من الداخل حتى يتسنى تقديم قصة حياة

---

(١) ظهرت الطبعة الأولى فى لندن، طبع (Methuen & Co.) عام ١٩٣٨ ، وصدرت الطبعة الثانية فى نيويورك وتولت نشرها (Kraus Reprints) عام ١٩٦٣ .  
(٢) العنوان الكامل للكتاب هو :

La Prise d'Alexandrie ou chronique du roi Pierre Ier de Lusignan, ed. Mas-Latrie (Geneva : Société de l'Orient Latin, 1877).

\* أى من خارج مصر (المترجم) .

نابضة للصدام بين الشرق والغرب «بعامة» وبين قبرص ومصر على وجه الخصوص . وقد عثرنا على بغيتنا في الكتاب المائل الذي ألفه النويرى الاسكندراني ، وقد حفزه على تأليفه رد الفعل الذي تملكه من مسالك الغزاة في مدينته الزاهرة الاسكندرية .

وعندما رحلت من لندن إلى جامعة بون بالمانيا خلال عام ١٩٣٦ ، تمكنت من الانتفاع بمخطوطة برلين لـ «كتاب الإمام» لتقييم احداث عام ١٣٦٥ م تقريبا متوازنا . وقد تبلورت حصيلة بحوثي المستفيضة في العديد من المصادر الشرقية والغربية على السواء ، في سردى تاريخ الحروب الصليبية المتأخرة الذى رأى النور «في شكل كتاب مطبوع» عام ١٩٣٨ . وقادنى هذا على الفور إلى اتصال مباشر بباحث آخر كان يعمل في «كتاب الإمام» لهدف آخر ألا وهو دراسة الآثار الاسلامية في الاسكندرية في العصور الوسطى . وكان هذا الباحث هو المغفور له أتين كومب Étienne Combe ، وهو مستشرق سويسرى كان يقيم في الاسكندرية . وكان قد قدم اصلا إلى مصر ليعمل مثقفا لفاروق الصغير الذى كان آنذاك اميرا متوجا على عرش مصر . وعندما أعتزل كومب تلك الوظيفة ، عين مديرا للمكتبة العامة لمدينة الاسكندرية . وعندما التقيت به الفيته وقد ركز «جهوده» لبضع سنوات على الطابع الأسلامى لتاريخ وآثار تلك المدينة ذات العمر المديد . وقد دفعه هذا بالضرورة إلى الخوض في المصادر الاسلامية التى ترجع إلى تلك الفترة من الزمن ، ومن ابرزها كتاب النويرى . ومن الواضح أن طابع ذلك النص الزاخر بالمعلومات المتشابهة المتشعبة في العديد من المجالات ، قد حصر جهود كومب في اعداد

اقتباسات مناسبة «من الكتاب» فحسب مصحوبة بترجمة فرنسية لها في مجلد واحد .

ثم مالبث ان توقف الامر عند هذا الحد عندما اصبح كومب بعد ذلك مديرا للمعهد السويسرى للأثار بالقاهرة . فقررنا حينئذ تنسيق جهودنا على امل نشر تلك المادة فى مشروع مشترك يحمل اسمنا . وبالفعل انهيى مشروع الخاص بى من هذا الكتاب ، وسلمت النص لشريكى لمراجعة الترجمة الفرنسية غير المصقولة قبل النشر . ثم استدعيتى جامعة متشيجان بأن آر بور عام ١٩٥٥ لشغل وظيفة استاذ زائر للدراسات الاسلامية بأكاديمية العضور الوسطى التى انشئت حديثا ، وذلك لمدة عام جامعى . ومالبث ان تبعت هذه الدعوة دعوات اخرى من جامعات كولومبيا وبرنستون وانديانا ومعهد الدراسات المتطورة . وشغلنى عملى هذا لبضع سنوات فى مجال الدراسات العليا الامريكية . وفى تلك الاثناء توفى الاستاذ كومب فى ٩ يوليو عام ١٩٦٢ عن ٨٢ عاما ، تاركا كل مادة مشروعنا المشترك فى المعهد السويسرى . فلجأت على الفور إلى السفارة السويسرية فى القاهرة لاستعادة تلك المادة من مخلفات كومب . وقد امكننا الحصول على كل المخطوطات والصور الفوتوغرافية والمتعلقات الاخرى الخاصة بالكتاب ، وذلك بفضل وحسن تدبير الادرات التابعة للملحق الثقافى السويسرى وقتها ، المغفور له الدكتور روبرت ران Dr. Robert Rahn كما وافقت السيدة زوجة كومب على الفور على انقاذ هذه المادة .

وتضمنت المادة أيضا ، بالإضافة إلى النسخة المكتوبة على الآلة الكاتبة للمقتطفات المذيلة بالشروح والتعليقات ومسودة الترجمة الفرنسية التى اعدّها كومب بقلمه البارح ، صورا فوتوغرافية لنص برلين (١) . ، والنسخة الناقصة

---

(١) تتألف مخطوطة برلين من قسمين فى مجلد واحد تحت رقم ٣٥٩ Wetzstein =

مخطوطة القاهرة (١). وتعتبر المخطوطتان مكملتان لبعضهما . ويبدو أنها فعلا عن نفس النسخة الاصلية المصورة المفقودة . ثم نما إلى علمنا في تاريخ لاحق وجود النسخة الوحيدة الكاملة للنص في الهند (٢) . وقد نسبت هذه المخطوطة عن طريق الخطأ إلى ابن عبد الله محمد بن عمر زين الدين الواقدى . كما توجد مخطوطة رابعة في المتحف البريطانى (٣) ، ولكنها ليست سوى نبذة مقتضبة مبتورة مبنية بكل تأكيد على الاصل الهندى ، وتحمل اسم النويزى . اما فيما يتعلق بعملية النشر والتحرير والمقابلة «بين مختلف النسخ» ، فإن تلك التى يمكن الاستفادة منها هى مخطوطات برلين والقاهرة وبانكى بور . ومع ذلك ، فإن كل هذه المخطوطات توجد بها فجوات واجزاء مختصرة ، امكن ملؤها وتقويمها عن طريق المقارنة بين مختلف النصوص . وفى رأينا انه من المناسب اتخاذ مخطوطتى القاهرة وبرلين اساسا لنصنا النهائى ، طالما انها نسختان عن النسخة الاصلية للمؤلف . كما ساعدت النسخة الهندية غير المنشورة على ايضاح بعض الاجزاء الغامضة وسد العديد من الثغرات الموجودة فى المخطوطات الاخرى .

= (ص ١-١٣٩) ورقم ٣٦٠ (ص ١٤٠ - ٢٧٠) . انظر :

Ahlwardt, Verzeichniss der Arabischen Hand-schriften der Koniglichen Bibliothek zu Berlin, 10 vols, (Berlin, 1887—99), IX, 304—6.

هذا ، ولا تتضمن صفحة العنوان الأولى للمخطوطة اسم المؤلف . ولذلك ينسبها الوارد إلى مجهول ويأخذ بهذا الرأى بروكلمان فى مؤلفه :

C. Brockelmann, Geschichte der Arabischen Literature, 2 Vols. (Berlin, 1898—1902), II, 35—36.

ولو أنه صحيح ذلك فيما بعد فى الملحق الثانى ، ص ٣٤ .

(١) دار الكتب المصرية بالقاهرة تحت رقم ١٤ - ٤٩ تاريخ .

(٢) بانكى بور ، الجزء ١٥ ، ١٠٦٦ .

Ch. Rieu, Supplement to the Catalogue of the Arabic (٣)

Manuscripts in the British Museum (London, 1894), No. 606, Fol. 50-70.

وإثناء انغماسي في مراجعة مشروع كومب — عطية توطئة لنشره ، تلقيت دعوة رسمية من المغفور له الدكتور محمد عبد المعيد خان مدير دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد ، للقيام بنشر النص بأكمله لحساب مؤسسته ، كجزء من سلسلتها الشهيرة عن التراث العربي . وفي الحقيقة ، نظرا لاهمية الكتاب ووجود نسخته الوحيدة الكاملة في بانكي بور ، فقد نجح المسئولون في الدائرة اقناع الحكومة الهندية لتمويل المشروع والتكفل بنشره في «السلسلة الجديدة من مطبوعات» دائرة المعارف العثمانية . وكان اعداد النص قائما على قدم وساق في الدائرة عام ١٩٣٨ (١) ، ومبينا على المخطوطة الهندية التي انتضح انها ناقصة وغير وافية بالغرض (٢) .

وبدا واضحا أن المقصود من دعوة الدكتور عبد المعيد خان هو نشر النص كاملا دون حذف او الاكتفاء بانتقاء أجزاء منه . ولذلك بدأ مشروع كومب — عطية الاصلى ياخذ اتجاهها مغايرا . ولأسباب عديدة رحبنا في نفس الوقت باقتراح نشر الكتاب كله دون اختصار . أولا ، لان مبدأ نشر التراث القديم غير منقوص قد أصبح لفترة طويلة مقبولا كنموذج مثالي لما يجب ان تكون عليه عملية النشر ، وبصفة خاصة عندما يطبع المخطوط لأول مرة. وثانيا ، أن وضع الترجمة الفرنسية على الرف والتركيز على النص العربي ، أطلق يدي المحرر تلقائيا من القيد الذي كان يحصر جهوده في جزء خاص او أكثر من الكتاب . لذلك فان مشروع كومب — عطية القديم الخاص باستبعاد جميع

---

(١) كانت مسألة اعداد نص بانكي بور ، في الواقع ، موضع اعتبار في حيدر آباد في عام ١٣٥٤ هـ / ١٩٣٥ م ، كما ذكر برو كلان في الملحق الثاني ، ص ٣٤ .

(٢) يتضح هذا من النسخة طبق الاصل التي بعث بها إلى الدائرة عن طريق الدكتور عبد المعيد خان .



الاجزاء التى لاعلاقة لها بالاسكندرية وتاريخها وآثارها ، كان لامن مراجعته مراجعة تامة مع اثبات جميع الاجزاء المحذوفة . ولم يكن هذا عملا سهلا ، وان كان باعثا على الرضاء التام . وهكذا ظهر النص باكملة فى الاجزاء الستة الاولى . ونظرا للطابع الذى يتميز به هذا الكتاب المتنوع المعلومات ، والذى يعوزه التخطيط الواضح المفصل ، فقد اصبح لزاما تخصيص مجلد سابع واخير للفهارس العديدة التى قد تساعد القارئ على تحديد مكان معلومة ماورد ذكرها وسط خضم النقاط المختلفة أو بين ثنايا حشو النص المسهب .

وبينا كان الجزء الوحيد الذى اغرانا بالحذف «من الكتاب» هو البذاءات التى تمس الانبياء (١) فى مواضع منه ، أو تلك التى تدخل فى مناقشة صريحة حول الجنس فى مواضع اخرى . ومع ذلك ، فقد تقرر فى النهاية ، بعد تقديم الاعتذار ، تضمين الكتاب حتى هذه الاجزاء دون المساس بها ، وذلك ، لاسباب عدة . أولا ، لانها تمثل مظهرا من مظاهر ادب العصر الذى لم يرفضه أو يتعنف عنه العقل العربى فى القرن الرابع عشر الميلادى «القرن الثامن الهجرى» باعتباره امرا مشينا . وبعبارة أخرى ، يجب ان ينظر إلى كل ماورده النويرى فى هذا المجال كتعبير عادى لاختلاقيات العصر . ثم ان التفاصيل التى كشف النقاب صراحة فى هذا الخصوص ، انما تصلح اساسا من اساس دراسة فسيولوجية الجنس . وفى الحقيقة ، تارجحت شخصية النويرى التى تميزت بروحه المرحية بين الزهد الزائد عن الحد وبين الفجور المبتذل . وفيما بين هذين الطرفين «المتناقضين» كتب تقريبا بحرية فى كل موضوع يمكن تصوره ومألوف

---

(١) محمد بن قاسم النويرى الاسكندراني : كتاب الإلام - نشر عزيز سوريال عطية فى سبعة أجزاء (حيدر آباد : دائرة المعارف المئانية ١٩٦٨ - ١٩٧٦) . وسوف يرد ذكره فيما بعد تحت اسم «الإلام» . انظر بصفة خاصة ج ٦ ص ٢٧٩ وما يليها و ص ٢٩٠ وما يليها .

لمعاصريه مما جعل كتابه موسوعة عالمية للعصر «الذى عاش فيه» . وبالرغم من الخلط والارتباك الناتجين عن خروجه عن جوهر الموضوع ، الا ان المادة التى جمعها تضم كثيرا من الدرر الغالية الكامنة فى ثنايا نصه المسهب ورواياته غير المرتبطة . ونأمل ان تقدم الصفحات التالية للقراء تحليلا منسقا لهذا النص العظيم ، وتبهيء السبل اللازمة لتحديد مكان اى موضوع هام ومحدد عمن طريق الفهارس «التي اعددنا ها لهذا الغرض» .



## الفصل الثانى المؤلف وكتابه

الاسم الكامل لمؤلف «كتاب الإمام» هو محمد بن قاسم بن محمد النويرى (١) المالكى الاسكندراني . والاسم غير مدون على صفحة العنوان فى كل من مخطوطة برلين ومخطوطة القاهرة ، الامر الذى ضلل الوارد Ahlwardt حتى انه نسب مخطوطة برلين لشخص مجهول . وتبعه فى ذلك بروكلمان Brockelmann فى النسخة الاصلية لكتابه المعنون « تاريخ الادب العربى » ، ولوانه صحح الخطأ بعد ذلك فى ملاحقه (٢) . هذا من جهة ، ومن جهة اخرى نجد ان مخطوطة بانكى بور تذكر المؤلف تحت اسم ابو عبد الله محمد بن عمر زين الدين بن الواقدى . وهذا بالطبع غير صحيح ، وغير معروف مصدر هذا الخطأ الذى يظهر مرة اخرى فى مخطوطة المتحف البريطانى الموجزة . ومع ذلك ، يظهر اسم المؤلف ونسبة الكتاب إليه فى شعره فى عدة مناسبات بين ثنايا النص ذاته (٣) ، وبذا لا يترك لنا مجالاً للشك فى شخصيته . وعلينا ، فى ذات الوقت ان نتذكر ان «كتاب الإمام» لم يكن مجهولاً لدى عدد كبير من المؤرخين القدامى ، ومن بينهم ابن حجر العسقلانى (٤) (ت ٨٥٢ هـ / ١٤٤٩ م) والسخاوى (٥) (ت ٩٠٢ / ١٤٩٦ م) . وللاخير بعض الكلمات التى ينتقد فيها عملية تأليف الكتاب واسلوبه . وتتضمن مصنفات السير والتراجم المتأخرة

---

(١) التهجئة الواردة هنا هى التى حددتها دائرة المعارف العثمانية .

(٢) انظر الفصل الأول ، حاشية رقم ٣ .

(٣) الإمام ، ج ٢ ، ص ٢١٩ ، ج ٣ ص ٨٠ ، ج ٤ ص ٤٤ و ٤٥ ، ج ٥ ص ٢٩٧ . ويشير النويرى فى الجزء الثانى ص ٥٢ إلى قرينه الاصلية النورية التى عاد إليها بعد هروبه من الاسكندرية سنة ١٣٦٥

(٤) الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة (القاهرة ١٩٦٦) ، ج ١٤ ، ص ١٤٢ .

(٥) الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ (القاهرة ١٣٤٩ هـ) ، ص ١٢٢ .

«زمنيا عن عصر النويرى» مثل «معجم» حاجى خليفه (١) وكتاب عمر رضا كحالة (٢) ، اسم «كتاب الامام» بين قوائمها كاملا مع اسم مؤلفه .

وان وصف النويرى لنفسه كسكندرى (الاسكندراني) يعزى إلى إقامته الطويلة فى تلك المدينة . وهذا يساعد على تمييزه عن الآخرين الذين يحملون نفس اللقب . ومن اشهرهم احمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م) وهو المؤلف الذائع الصيت لكتاب «نهاية الارب» (٣) ، ووجيه الدين عبد الرحمن (٤) الذى توفى عام ٧١٦ هـ / ١٣١٩ م . وهو يقاتل فى صفوف الجيوش الايوبية ضد الفرنجة ، وربما كان ذلك فى دمياط . ومن الواضح ان الثلاثة قدموا اصلا من قرية النويرة من اعمال مديرية البوصرية — محافظة بنى سويف الآن — فى مصر الوسطى .

ووفقا لروايات محمد بن قاسم نعرف انه قدم إلى الاسكندرية فى شهر ذى الحجة ٧٣٧ هـ / يوليو ١٣٣٧ م (٥) بهدف زيارة المزارات الاسلامية المقدسة واضرحة مشايخها الابرار . وعندما احس بما تتمتع به المدينة من جمال

(١) كشف الظنون (اسطنبول ١٩٤١ - ١٩٤٥) ، ج ١ ، ص ٢٨٢ .

(٢) معجم المؤلفين (دمشق ١٩٥٩ - ١٩٦١) ، ج ١١ ، ص ١٤٧ .

(٣) نهاية الأرب فى فنون الأدب ، وهو موسوعة أدبية ضخمة صنفها شهاب الدين بن عبد الوهاب البكرى الكندى الشافى المعروف بالنويرى . والموسوعة فى عشرين مجلدا (طبع القاهرة ١٩٢٩ - ١٩٧٥) .

(٤) الإمام ، ج ٥ ، ص ٩٠ - ٩٢ . هذا ، وقد اورد المؤلف اسطورة مفادها انه بعد وفاة وحيه الدين استجاب لنداء مهيمن من قبل احد الفرنجة فى ساحة القتال ، ومن ثم فان الفرنجى الذى اعترته الدهشة صبر جثمان الشيخ وحمله معه إلى عكا حيث يرقد الفرنجى فى مدفن الشيخ بعد اعتناقه للإسلام .

\* التاريخ فى الاصل الانجليزى ١٢١٩ م ، ولعله خطأ مطبعى ، وصحته ١٣١٩ م (المترجم) .

(٥) نفس المراجع ، ج ٢ ، ص ٢١٩ .

ووجد ان المعيشة فيها مستساغة إلى حد بعيد ، قرر الإقامة فيها . ثم تزوج فيما بعد من اهلها الذين اعجب بهم ، وبذلك كون عائلة داخل اسوارها إلى ان تركها مع سيل المهاجرين عن طريق البوابة البرية هرباً من الغزاة الفرنجة اثناء الايام العشرة الاخيرة من شهر محرم ٧٦٧ هـ / أكتوبر ١٣٦٥ م ، وكان النويرى قد اتم في هذا التاريخ قرابة ثلاثين عاما امضاها في هذه المدينة التي عاد إليها بعد ذلك .

وعند عودته إلى الاسكندرية ، بعد انسحاب القبارصة المشين منها ، ومشاهدته الكوارث التي حلت بها اثناء احتلالهم القصير لها ، والتي أثارت الرعب والهلوع في نفسه ، قرر ان يؤلف كتابا عن تلك الاحداث الحقيرة . وبدأ بالفعل في جمع نصه في جمادى الثاني ٧٦٧ هـ / ١٣٦٦ م ، وأتمه في ذى الحجة ٧٧٥ هـ / مايو ١٣٧٤ م (١) . ويمكن القول ، بناء على ذلك أنه أمضى نحو ثمانى سنوات للفراغ من اعداد كتابه .

ومن الصعب تحديد تاريخ وفاة النويرى تحديدا دقيقا . ولكن طالما انه عاش حتى اتم كتابه في السنة سالفة الذكر ، فلا بد اذن انه قد توفي بعد عام ١٣٧٤ م . ويحتمل انه كان على قيد الحياة في عام ١٣٧٥ أو ١٣٧٦ م . فهو يروى في ثناياه كتابه حادثة ضياع جزيرة صقلية من ايدي المسلمين ووقوعها في قبضة النورمان الذين وصفهم بالفرنجة عام ٧٧٧ هـ (يونيو ١٣٧٥ - مايو ١٣٧٦ م) (٢) .

ويتحدث النويرى عن مهنته كناسخ للمخطوطات لتجار الاسكندرية

---

(١) على صفحة عنوان الجزء الاول تبدو السنة ١٣٧٢ ، وهو خطأ مطبعي وقع سهوا في الاجزاء الاخرى . وعلى أية حال ، فان هذا لا يغير من تاريخ وفاة النويرى الذي وقع بعد كلا العامين (٢) الإلام ، ج ٣ ، ص ١٠٢ .

المسلمين الاثرياء ، وذلك اثناء اقامته الطويلة في تلك المدينة التي ناهزت اربعة عقود . ومن المؤكد انه نسخ عددا هائلا من المخطوطات طوال تلك السنين . وبحصر الكتب التي كان على معرفة بها ، والتي جمعنا عناوينها في فهرس خاص (١) ، يتضح أن مكتبته قد زخرت بمجموعة لا بأس بها من المؤلفات الهامة لقدامى الاساتذة في مجالات عديدة في الدراسات الاسلامية . وبذا يمكن ان نستنتج انه استطاع كناسخ أن ينقذ او يستظهر اجزاء عديدة هامة من المادة التي قام بنسخها ، واستخدمها في تأليف كتابه الخاص الذي قدر أن يكون « كتاب الإمام » . ويدل عنوان الكتاب على تلك الحقيقة ، فكلمة « الإمام » تعني نتف وشذرات « من مختلف مصادر المعرفة » ، وهي واضحة من بناء الكتاب . ويفسر هذا ، ايضا ، احدى سمات الكتاب المثيرة للغيرة . إذ يبدو انه كان يهدف إلى حشد تلك الشذرات المتراكمة فوق بعضها في النص دون خطة واضحة ، مما جعل اسلوبه غير مترابط إلى حد ما في بعض الاحيان . وليس من المستغرب لناسخ امضى حياته في نسخ امهات الكتب المعنية بالدراسات الاسلامية ان يجمع قدرا هائلا من المادة التي يتميز باهميتها البالغة من اصول معروفة او مفقودة ومجهولة بالنسبة لنا . فعلينا ، اذن ، ان نعتبر كتاب النويرى بمثابة خزانة ، وربما كانت خزانة غير مرتبة لكنز ثمين متراكم حول واقعة رئيسية ، ألا وهي واقعة نهب الاسكندرية سنة ١٣٦٥ م .

وفي الحقيقة ، لا يعتبر افتقاد النويرى لمسألة تنسيق وترتيب مادته هو العيب الوحيد في كتابه . فيكاد يكون من المستحيل بالنسبة لرجل حصل على مثل هذا العلم الغزير والاطلاع الواسعة ، ان نجد تفسير الخواص ولمسات معينة في اسلوبه . اذ يحونه الجهل ببعض القواعد التي تعتبر من ابسط قواعد

النحو العربى . هذا من جهة ، ومن جهة اخرى ليس من الانصاف ان ننسب هئات الكتاب اليه كأمر محقق ، طالما انه لا توجد تحت ايدينا نسخة المؤلف الاصلية . وعلى هذا ، فمن المحتمل ان يكون الذين نقلوا عن نسخته الخطية الاصلية هم المخطئون . ولكن ، لماذا تظهر فى جميع المخطوطات التى تحت ايدينا نفس التراكيب النحوية المخالفة لابطسط القواعد ؟ واما بالنسبة للاخطاء النحوية واللغوية الفاضحة والتعابير العامية لاحداث الحياة اليومية فى مصر «الواردة فى كتابه» ، فاننا نرى من المناسب إجراء حد ادنى من التصحيح والتهديب للذين لابد منها فى اسلوب الكاتب مما يجعل النص صالحا للنشر فى سلسلة من سلاسل التراث العظيم . ومن الصعوبة بمكان ان يوفق الفرد بين مثل هذه المتناقضات فى انجازات النويرى الشعرية . فقد كان شاعرا قديرا . وان قصائده المتناثرة فى الاجزاء الاخيرة «من الكتاب» لدليل كاف على سيطرته على علم العروض العربى ، وعلى مهارته الادبية فى تناول موضوعاته ويمكن اعتبار قصائده بمثابة وثائق تاريخية ، طالما انها تعالج الاحداث الخاصة بالقرن الرابع عشر الميلادى «القرن الثامن الهجرى» والشخصيات المرموقة المعاصرة له .

وترجع قيمة «كتاب الإمام» كمصدر ثقة إلى مصادره «التي اعتمد عليها» من جهة ، وإلى ملاحظات النويرى نفسه كشاهد عيان «لاحداث ذلك الزمان» من جهة اخرى . فى المقام الاول . جمع مادة وفيرة استقاها من مؤلفات اصلية واقدم زمينا من كتابه . ومع ذلك ، بوسعنا ان نعتبر طريقة عرضه طريقة لابأس بها . فهو بكل بساطة حشا مادته فى صلب النص ، متنقلا من موضوع إلى آخر دون تفرقة او تمييز . ومع ذلك فمن الخطأ الجسم ان نلفظ كتابه على هذا الاساس ، لانه وسط متاهات رواياته غير المترابطة لحد ما



والمكتوبة بأسلوب سجعى متكلف ، يستطيع الفرد ان يعثر على تفاصيل غير عادية تتميز باهميتها القصوى مبعثرة بطريقة عشوائية هنا وهناك «في ثنايا النص» وقد حاولنا علاج فوضى المؤلف وشططه الذى لا مبرر له ، بجمع مادة هذا النص الضخم للموضوع فى اربعة عشر فهرسا تضمنها الجزء السابع والاخير «من الكتاب» . وفى رأينا ان هذه الفهارس قد تعين القارئ على تحديد مكان المعلومة التى يبحث عنها دون الخوض فى «متهاتات» النص المربك بأكمله .

وفى المقام الثانى ، شب التويرى ليكون مواطنا صميما من مواطنى الاسكندرية . وأصبح على دراية تامة بمنشأتها وازقتها وحواريها واسوارها وابراجها وفنادقها «اى نزلها» وبواباتها وشواطئها والشخصيات المعروفة من اهلها . كما كان شاهد عيان للاحداث التى كانت المدينة مسرحا لها . اما ما لم يشاهده ، فقد سجله عن روايات بلغته بطريق مباشر ، أو عن مصادر اصلية . وانعكست هذه الامور فى التفاصيل الدقيقة التى زودنا بها والتى تتميز بطابعها الفريد فيما يتعلق بطبوغرافية الاسكندرية وآثارها فى العصور الوسطى . ورأينا انه من المناسب جمع كافة الاشارات الخاصة بالمدينة فى فهرس خاص على شكل جدول (١) يبين انه مصدر ثقتنا عن الاسكندرية فى القرن الرابع عشر الميلادى «القرن الثامن الهجرى» .

ثالثا ، خصص المؤلف الجانب الاكبر من كتابه لأوفى معلومات معروفة «لدينا» باللغة العربية عن حملة القبارصة «على الاسكندرية» عام ١٣٦٥م . وهو فى ذلك يعتبر شاهد عيان من جهة ، ومن جهة اخرى مراسل انباء خرج لجمع كل المعلومات من شهود عيان آخرين ، وهى التى تتناول التفاصيل الخاصة بالاحداث التى

لم يشترك فيها شخصيا . ثم هو يقدم لنا اسماء مسئولة لاشخاص جمع منهم قصصه ورواياته ليؤكد صدق أقواله .

رابعا ، لقد ظل النويرى . باعتباره مواطنا يعيش فى ميناء من أهم موانى حوض البحر المتوسط ، لعشرات السنين يشاهد باستمرار مختلف السفن التى ارتادت مياهه . وهنا نجد سجله المنفصل عن السفن ، وادرافها الخاصة ، واستخداماتها ، وبنائها ، وحمولها . ومسمياتها الفنية ، سجلا مذهلا حقا ليس له مثيل فى مصادر العصور الوسطى العربية . وقد أفردنا فهرسا خاصا (١) لهذا الجانب من الكتاب الذى سيثبت عند القاء نظره خاطفة عليه ضخامة الجهد الذى بذله «النويرى» فى مجال نادر يتعلق بعلم الملاحة العربى والسفن العابرة فى كل من البحر المتوسط والبحر الاحمر والمحيط الهندى ، واحواض انهار العالم القديم العظيمة . ويعتبر كتابه مصدرا هاما فى هذه الناحية ، حتى ان القاموس الوحيد للملاحة العربية الذى جمعه كندرمان Kindermann (٢) يكاد يركز كلية على المعلومات الواردة فى «كتاب الإمام» .

خامسا ، يزخر الكتاب بمسائل محددة واضحة تتعلق بالعلوم الجغرافية كما افرد المؤلف قسما شيقا يتعلق بالمعلومات الفلكية . هذا ، فضلا عن ان جانبها كبيرا من محتوياته خاص بالعديد من المدن والانهار والجزر والبلدان فى عالم العصور الوسطى . وتتميز بعض روايات المؤلف بقيمتها النادرة بالنسبة لكل من العالم الجغرافى والعالم الفلكى . فالنويرى على سبيل المثال ، كان على دراية بكونية الارض قبل كوبرنيكوس Copernicus وجاليليو Galileo

(١) نفس المرجع ، ج ٧ ، الفهرس السابع .

(٢) H. Kindermann, «Schiff» in Arabischen, Untersuchung uber Vorkommen und Bedeutung der Termini (Zivickau 1 Sa. 1934).

بوقت طويل ، حينما كان العالم الغربي يعتقد من وجهة نظر الكنيسة « اللاتينية » أن الارض مسطحة يحيط بها محيط من الظلمات عامر بالرعب والاضطراب والثنانين الضخمة . ومما يثير الاهتمام ان نقرأ احيانا بين ثنايا المعلومات التي يحتوى عليها النص ، اقتباسات تتناول خصائص بعض المدن والبلدان الكبيرة في اوروبا في العصور الوسطى ، مثل الكاتدرائيات والمنشآت الاسطورية في بعض العواصم والتي لاتزال بحاجة إلى شرح الشراح وتفسير المفسرين الحديثين (١) . وأن المرء لتعثره الدهشة عند قراءة الفصول المتعلقة بمجموعات النباتات والحيوانات ومع أنها قد تبدو مقتضية ، الا ان رواياته في هذا الصدد يمكن أن تكون ذات فائدة لطلبة كل من علم النبات وعلم الحيوان . كما انها تفيد مؤرخي التجارة المتعلقة باحتياجات الشرق وحاصلاته . فبالاضافة إلى تجارة القفل والتوابل الواردة من الهند ، يعدد النويرى النباتات الجبلية والحاصلات وأشجار الفاكهة والاششاب الثمينة وغيرها من المواد التي لها أهميتها في عمليات تبادل الصادرات والواردات وعقد الصفقات التجارية في العصور الوسطى (٢) .

سادسا ، يلاحظ أثناء سرد النويرى للمعارك والعمليات الحربية التي تتعلق بالفتح العربي والورادة في الحوليات المبكرة ، وكذلك مايرتبط بالحروب التالية المتقطعة التي نشبت بين المسلمين في الشرق الاوسط وبين المسيحيين في الغرب - ان المؤلف امد القارىء بقدر هائل من الحقائق والمعلومات الخاصة بفن الحرب والقتال لدى المسلمين في تلك العصور . ونجد بين محتويات الكتاب معلومات عن معدات الحرب العربية ، والخطط التكتيكية للقتال ، والاستراتيجية

---

(١) الإلام ، ج ٧ ، الفهرسان الثانى والحادى عشر .

(٢) نفس المرجع ، ج ٧ ، الفهرسان التاسع والعاشر .

وعمليات الحصار وآلاتها ، والاساطيل ، والمعارك البحرية . وحاجة المؤرخين «المعنيين بفن الحرب والقتال» ماسة لهذه المعلومات النادرة إلى حد ما ، للاسهام في توضيح الجوانب الغامضة التي اكتنفت فن الحرب عند العرب في العصور الوسطى . وهنا نجد ان لدينا فيضا من المعلومات الجديدة نسبيا التي تثرى معرفتنا الضئيلة في هذا الموضوع بالذات ، وقد قمنا بمحاولة لتحديد وتفسير المصطلحات التي استخدمها النويرى في هذا المجال ، ولم يخالفنا التوفيق في عدد منها . وعلى ذلك فائنا نسجل المصطلحات كما وجدت في المخطوطات الاصلية ، تاركين عملية تفسير المسائل التي لاتزال بدون حل للمؤرخين العسكريين مستقبلا (١) .

ثامنا ، علينا ان نتذكر ان النويرى يعتبر انسانيا بحكم مهنته اذ تبدو نواحي اهتماماته بجلاء في استخدامه المتواصل للشعر وفي دراساته الادبية (٢) وكان النويرى نفسه ، حسبما ذكرنا من قبل ، شاعرا من نوع معين . وان استخدامه للشعر الاصيل القديم الذي يرجع إلى العصر الذهبي للادب العربى ، قد وصل بينه وبين سرد شعره عصره المتشور الدنيوى . وبناء على ذلك : يمكن القول ان هذا القدر الهائل من المقتطفات الشعرية المتنوعة في «كتاب الإلمام» قد استمد ابتداء بالمعلقات — وهى ملاحم الشعر الجاهلى الخالدة — ومن مشاهير الفترة الاسلامية المبكرة امثال ابى نواس والفرزدق ، وحتى تلك الاسماء المحهولة نسبيا امثال التكريتى وابن ابى حجلة وابن الفضل قاسم القصار وابن العباس المرسى ، وحتى النويرى نفسه الذى كان من بين شعراء

(١) نفس المرجع ، ج ٧ ، الفهرس رقم ٨ .

(٢) يصعب أن نجد فصلا في مختلف أجزاء الكتاب لا يتضمن اقتباسات شعرية ترجع إلى الفترة المبكرة . انظر الفهرس رقم ١٤ في الجزء السابع عن الشعر والشعراء .

أواخر العصور الوسطى . وكان المؤلف فى بعض الحالات يقتبس دواوين  
بأكملها او مجموعات من القصائد والاشعار. وآية ذلك ربما يكون شعر مجنون  
لىلى (١) ، حيث جمع النويرى قصائد كافية للاسهام فى اعادة نظم ديوانه  
بإضافة اشعار اخرى إليه لم يحالفنا التوفيق فى تحديد مكانها فى الطبقات الاقدم  
التي لاتزال موجودة للشاعر الغنائى الشهير . وتمشيا مع الروح الدينية التي  
يتميز بها النويرى نجده يقتبس فى نفس الوقت اقتباسا مكثفا من الشعر الدينى  
مثل القصيدة العظيمة الثائية « للشاعر ابن الفارض (٢) . فقد جمع فعلا  
كل المراثى التي نظمها شعراء عصره يتباكون فيها على سقوط ونهب مدينة  
الاسكندرية الغنية الباهرة ، وبخاصة القصيدة التي نظمها ابن ابى حجلة والتي  
ستوجه إليها عناية خاصة فى الفصل التالى . ومع انه اقتبس بعض الرجز (٣) إلى  
جانب الالغاز والاحاجى الشعرية لمجرد التسلية ، إلا انه ادى ذلك بطريقة  
سطحية عابرة دون إمعان او تدقيق ، وهي لاتتطلب معالجة فاحصة . أما  
شعره الشخصى فهو ، اساسا خاص بمدح الشخصيات التاريخية او التباكى  
على المصير الرهيب لمدينته العظيمة (٤) .

تاسعا ، يحتل النويرى مكانته كروائى أو قصاص . ويمكن تصنيف قصصه  
إلى نوعين :

---

(١) يدعى قيس بن معاذ . انظر الإلام ، ج ٦ ، ص ٣٣٩ . ووردت أشعار له فى ج ١ ص  
١٩٠ و ١٩٢ و ١٩٦ و ١٩٧ و ١٩٩ و ٢٠٠ ، ج ٦ ، ص ٢٣٢ و ٣٣٩ وما يليها و ٣٦١  
وما يليها .

(٢) نفس المرجع ، ج ١ ، ص ٦٣ و ٨٢ و ٨٨ و ١٤٥ و ١٩٨ و ٢٢٣ و ج ٢ ، ص  
١٨٩ وما يليها و ١٩٥ وما يليها و ج ٣ ، ص ١٤٠ - ١٤١ و ١٧٢ و ٢٣٢ و ج ٤ ، ص  
٢٢٩ و ٢٣٨ وما يليها و ج ٥ ص ٣٥٩ - ٣٦٠ و ج ٦ ، ص ٣٦٦ وما يليها .

(٣) شعر شعبى مفعول الوزن . نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٣٢٨ و ٣٢٩ .

(٤) نفس المرجع ، ج ٧ ، الفهرس رقم ١٤ .

احدهما يشتمل على قائمة طويلة من الحكايات القصيرة ، وهى عبارة عن احداث كان يسردها أهالى الاسكندرية الذين بقوا داخل أسوارها . تتضمن ماقاسوه على ايدى الفرنجة الغزاة (١) . هذا ، وتوجد فى الحقيقة حكايات او روايات تاريخية عن احداث ووقائع معينة اثناء غزو الاسكندرية . ويعتبر الفصل التالى الخاص بتاريخ الحملة الصليبية هو المكان المناسب لتحليل تلك الوقائع والاحداث . «هذا عن النوع الاول من قصصه» ، أما النوع الثانى فهو يتضمن قصصا اطول هى من وحى خيال النويرى . وهى تتناول قصصا خيالية تتعلق بملوك وممالك وجن وشياطين (٢) ومعارك باسلة مع الاسود المفترسة والارواح الخفية والظواهر الخارقة للطبيعة ، وكل مايتعلق بالسحر والمعجزات . ويمكن هنا ان نلمس مدى تأثير قصص «ألف ليلة وليلة» التى كان «النويرى» على معرفة بأصولها . ولو ان هذا لا يظهر فى قائمة كتبه لسبب جلى هو ان هذا العصر هو العصر الذى بدأ فيه فن القصص الخيالى الخالد يأخذ شكله النهائى . ومن الصعوبة بمكان حقا تتبع مصادره فى هذا المجال بالذات ، تاركين الامر لمجرد الحدس والتخمين . فمن اعجب قصصه قصة سردها بلاسهاب فى مطلع «كتاب الإمام» ، وهى افضل مما جاء فى نهاية الكتاب الذى خصصه للقصص الخيالى البحت . وهذه القصة تدور حول فيلسوف معين يدعى سكندس Secoundus (٣) هو ووالدته . وهى القصة الوحيدة التى ترجع إلى اصل اغريقى ، وهى تتفق إلى حد بعيد مع المسأاة ، الاغريقية الشهيرة «الملك أوديب» Oedipus Rex . وعلى العموم ، يبدو

• أى لم يفادروها اثناء حملة القبارصة عليها (المترجم) .

(١) نفس المرجع ، ج ٤ ، ص ١٧٩ وما يليها .

(٢) نفس المرجع ، ج ٦ ، ص ٣١٨ وما يليها .

(٣) نفس المرجع ، ج ٥ ، ص ٥٨ وما يليها .

ان النويرى كقصصى هدفه الكتابة من أجل المتعة والتسلية ، قد قام بهذه المهمة بفصاحة وبلاغة (١) .

وقد يكون من غير المناسب ان نختتم هذا العرض دون أن نسجل إحدى صفحات النويرى البارزة على امتداد كتابه بأكمله . فهو مسلم شديد التقوى والتدين ، ويجعله إيمانه الشديد اقرب الى التزمّت . فاقبাসاته من القرآن الكريم وأستخدامه للاحاديث النبوية ظاهر في كل فصل من فصول كتابه . حقيقة انه اخذ ايضا عن الكتب المقدسة الاخرى ، وتزخر كتاباته باسماء الانبياء خارج دولة الاسلام ، ولكنه كان يسترشد في كل احكامه ورواياته بآيات من القرآن الكريم وما جاء في الحديث الشريف . ولوانه من الصعب قبول صحة كل ماسجله من أقوال عن الرسول (ص) . ومع ذلك ، فإنه من الاهمية بمكان ، في ذات الوقت ، دراسة كل مانسب زورا وبهتاناً إلى الرسول ، ومعرفة مصدر نسبتها إليه . فقد اصبحت هذه مع اقتباساته القرآنية واحالاته إلى الكتب الاخرى المنزلة ، جديرة بفهرس خاص (٢) .

ومع ذلك ، علينا ان نتذكر ان النويرى بدأ كتابه كسجل للكوارث والبلايا التي دمرت تقريبا المدينة العظيمة التي كان قد ولع بها . ولذا لانستطيع التغاضي ، بداءة ، عن علو قدره كمؤرخ لتلك الاحداث بالذات . وسنكرس الفصول التالية لدراسة تحليلية لـ « كتاب الإمام » كمصدر عام لموضوعاته المختارة في التاريخ الاسلامي ، ثم بعد ذلك كسجل لتلك الاحداث الخاصة بمدينة الاسكندرية مع التركيز على حملة عام ١٣٦٥ م المشتومة ، وذلك من وجهة النظر المصرية .

---

(١) نفس المرجع ، ج ٧ ، الفهرس رقم ٧ (فهرس الموضوعات) .

(٢) نفس المرجع ، ج ٧ ، الفهرس رقم ٥ .

## الفصل الثالث

### النوبرى كمؤرخ

من الخطأ تعريف النوبرى بالمؤرخ المحترف أو باعتباره واحدا من كتاب الحوليات ، او محلى الاحداث فى عصره فى القرن الرابع عشر الميلادى «القرن الثامن الهجرى» . ومن الخطأ الجسيم ، فى ذات الوقت ، تجاهله كلية فى مجال التاريخ . فقد اسهم بالفعل اسهاما عظيما فى تحليل عدد من أحداث عصره ، وبصفة خاصة موضوع سلب القبارصة للاسكندرية ، حيث أمدنا بتفاصيل فريدة «فى نوعها» . وعلى اية حال ، إذا خرجنا عن هذه الدائرة ، يتضح انه كتب فى تمجيد الاسلام والامبراطورية الاسلامية عبر العصور . وجدير بالملاحظة انه سمح لنفسه اثناء جولاته واستطاداته بالخوض فى الحديث عن العديد من الامبراطوريات الاخرى التى ترجع إلى العصرين القديم والوسيط . وعلى العموم ، فإن أسلوبه فى عرض الحقائق هو أسلوب من يكتب لتسليية قرائه . إذ تناول الاحداث بأسلوب اشبه بأسلوب الرواة الذى يركز على الناحية الدرامية والاسطورية اكثر من التركيز على الناحية الواقعية . ومن انصعب تتبع اصول المصادر التى استقى منها معلوماته بحرية مطلقة . ولكن من المؤكد انه اعتمد إلى حد بعيد على الكتابات الادبية العربية المتقدمة والتى كانت لاتزال موجودة «فى عصره» ، ثم اصبحت الآن فى حكم المفقودة .

اما عن كتاب الموسوعات الآخرين فى عصره ، ويحتمل أن يكون «صاحب الإلمام» «على معرفة بمؤلفاتهم ، فمن بينهم من يحمل نفس الاسم (١)

---

(١) شهاب الدين أحمد (بن عبد الوهاب بن محمد) صاحب كتاب «نهاية الارب» وقد توفى سنة ١٣٣٢ / ٨٧٣٢ م . انظر الفصل الثانى ، حاشية رقم ٨ .



وهناك ، أيضا العمري (١) العظيم الذى توفى عام ٧٤٨ هـ / ١٣٤٨ م .  
ومن الصعوبة بمكان أن نضع مؤرخنا النويرى فى نفس مرتبة اى منها . وليس  
باستطاعتنا ، كذلك ، ان نضعه فى مرتبة المؤرخين الآخرين المعاصرين له  
تقريبا ، امثال الذهبي (٢) ، والصفدى (٣) ، وابن الفرات (٤) ، وابن  
خلدون (٥) ، و كثير غيرهم ممن خلفوا كتباً ومؤلفات تعتبر افضل من كتابه  
كما انها نشرت قبل «كتاب الإمام» بفترة طويلة . كذلك يجب ان تأخذ فى  
الاعتبار ان النويرى كان على معرفة بمؤلفات الكتاب السابقين . ثم ان معظم  
الذين جاءوا بعده امثال ابن حجر (٦) ، والسخاوى (٧) ، كانوا فى نفس  
الوقت على علم بكتابه ، ولو ان الاخير انتقده نقدا لاذعا .

وعلى اية حال ، يقف النويرى باعتباره حجة له ثقله فى حقل التاريخ

- 
- (١) اسمه بالكامل هو شهاب الدين ابو العباس احمد بن يحيى بن فضل الله العمري القرشي  
الشافعي ، توفى سنة ظهور الوباء الاسود ، خلفا العمل العظيم الممنون «مسالك الابصار فى مسالك  
الامصار» ، الجزء الاول ، نشر أحمد زكى باشا (القاهرة ١٩٢٤) . وثمة اجزاء منه تتعلق باليمن  
تولى نشرها ايمن فؤاد سيد (القاهرة ١٩٧٤) . وبه قسم عن المغول مصحوب بترجمة باللغة الالمانية  
بقلم كلاوس لىخ Klawns Leck (طبع فيزبادن Wiesbaden سنة ١٩٦٨) .
- (٢) شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان قايماز بن عبد الله الذهبي التركاني الفاروق الشافعي  
(ت ١٣٤٨ هـ / ١٣٧٧ م) . له عدة مؤلفات فى التاريخ الاسلامى .
- (٣) خليل بن ايبك بن عبد الله ابو الصفا (ت ٧٤٦ هـ / ١٣٦٣ م) .
- (٤) ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن الفرات (ت ٧٠٨ هـ / ١٤٠٥ م) . وقد نشر قسطنطين  
زريق جانباً من تاريخه (طبع بيروت ، ١٩٣٦ - ١٩٣٩) ، وحسن الشاع (طبع البصرة ،  
١٩٦٧ - ١٩٧٠) .
- (٥) عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٦ م) .
- (٦) شهاب الدين بن حجر الملقب (ت ٨٥٣ هـ / ١٤٤٩ م) . انظر كتابه «الدرر الكامنة  
فى اعيان المائة الثامنة» ، ج ٤ ، (حيدرآباد ١٩٢٩) ، ج ٤ ، ص ١٤٢ ..
- (٧) شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوى (ت ٩٠٢ هـ / ١٤٩٦ م) . انظر كتابه  
«الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ» (القاهرة ١٣٤٩ هـ) ، ص ١٢٢ .

على أساسين على أقل تقدير . فإن ماسجله عن أحداث حملة القبارصة المشنومة على الاسكندرية سنة ١٣٦٥ م «٧٦٧ هـ» واحتلالهم القصير لها ، حسبما ذكرنا من قبل ، هو في المقام الأول أو في الروايات الاسلامية الموجودة وبسبب الاهمية البالغة التي تتمتع بها رواياته ، من ناحيتي الكم والكيف ، سوف نخصص الفصل التالى لدراسة تحليلية لمحتوياتها . هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى يعد كتاب النويرى تكملة فريدة في نوعها للدراسات الطبوغرافية الهائلة (أى الخطط) التي دونها اقدر استاذين في اخريات العصور الوسطى وهما المقرئى (١) والسيوطى (٢) . وقد ركزا اهتمامهما على مدينة القاهرة ، بينما اختص النويرى بمدينة الاسكندرية . وفي هذا الخصوص ، سد الخير فجوة في المعلومات التي امكن الحصول عليها عن المدينة الثانية العظيمة في مصر في العصور الوسطى .

ومع انه لم يعد للكتابة المنسقة عن خطط الاسكندرية بالمعنى الدقيق المفهوم من هذا الاصطلاح ، إلا انه في الواقع انجز مهمته تلك دون أن يوليهما العناية الواجبة ، وذلك عند أستعراضه للأحداث المرتبطة بتاريخ المدينة في القرن الرابع عشر . ولقد مكنته معرفته بجميع التفاصيل الطبوغرافية المتعلقة بالمدينة التي أتخذها موطناً له ، من أن يضمن دراسته معظم المعلومات والتفاصيل ، أيا كانت ، عن بناء وتكوين مدينة الاسكندرية ، بما يعود بالفائدة على علماء الآثار المسلمين وعلى المشتغلين في التاريخ الوسيط المتخصصين في دراسة هذه

- 
- (١) تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٥٤ هـ / ١٤٤٢ م) . وعنوان مؤلفه الذي يقع في اربعة أجزاء (طبع القاهرة ١٩٠٦ - ١٩٠٨) هو «كتاب المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار» .
- (٢) ابر الفضل عبد الرحمن بن ابى بكر بن محمد جلال الدين السيوطى الشافى (ت ٩١١ هـ / ١٥٠٠ م) . وعنوان خططه هو «حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة» ، ٢ ج . وأحداث طباعته تولاهما محمد ابو الفضل ابراهيم (طبع القاهرة ١٩٦٧ - ١٩٦٨) .

المنطقة . وفي حكم المستحيل أن نلم إلاما تاما في مجرد مقال بكل العصور التاريخية والامبراطوريات التي تعرض لها النويرى . وكل مانستطيع حقا أن نفعله ، في نطاق محاولتنا هذه ، هو تصنيف مادته وتقديمها للقارئ مزودة ببعض التوجيهات عن الخصائص الاساسية لنصوصه الضخمة والمتشابكة إلى حد ما . وجدير بالملاحظة انه كان يقطع تسلسل رواياته التاريخية ، بصفة عامة ، العديد من النكات والنوادر التي لها علاقة سطحية بالموضوع او التي لا تمت للموضوع بصلة . وثمة اقتباسات شعرية على امتداد الموسوعة تكشف عن اهتمام المؤلف الخاص بهذه الناحية الجذابة المشوقة ، وان كانت في غير موضعها الطبيعي .

وفيا يتعلق بالتاريخ القديم ، ففضلا عن موضوع التراث الجاهلى في شبه جزيرة العرب قبل ظهور الاسلام وهو الشيء الذى يتكرر على امتداد كتاب النويرى ، فإنه يبدأ بالحديث عن الامبراطورية الفارسية (١) . وهو يوجه عناية خاصة إلى كسرى انوشروان وابنه هرمزد نظرا لتقارب عهديهما من تاريخ ميلاد النبى محمد (ص) . ويتحدث بفصاحة عن الفتح العربى ، لامبراطورية «الفرس» الساسان . ولكنه يقلب في الجزء الاخير من كتابه التسلسل الزمنى للوقائع والاحداث بالعودة إلى قصة الصراع بين دارا والاسكندر الاكبر (٢).

وينحصر النويرى ، بعد حديثه عن الامبراطورية الفارسية ، بضع صفحات عن الرومان مبتدئا بالحديث عن اغسطس (٣) ، ويزودنا بسر مشوش عن

(١) الإلام ، ج ١ ، ص ٥١ و ٥٣ وما يليها .

(٢) نفس المرجع ، ج ٥ ، ص ٤٣ وما يليها .

(٣) نفس المرجع ، ج ١ ، ص ٩٣ وما يليها .

حروبه مع انطونيوس وقلابطرة «كليوباترا» . وطبقا للمسميات العربية ينتقل إلى طباريوس «طير يوس» وقلودس «كلوديوس» ثم بشبانس «فسبسيان» وطيطيس «طيطس» ثم طربان «تراجان» ودقيانوس «دقلديانوس» ، ثم يتعرض اثناء حديثه ، لمولد السيد المسيح ومعجزاته ، كما يشير إلى استشهاد القديس بطرس والقديس بولس وتشتت اليهود من اورشليم بين الامم .

ويشير النويرى باقتضاب إلى الاباطرة البيزنطيين (١) ابتداء بقسطنطين الكبير حتى ثيوداسيس «ثيودوسيوس» وهرقل . وفي حديث موجز مشوش إلى حد ما يستأنف كلامه عن الحروب البيزنطية مع الخلافة الاسلامية (٢) وثمة اشارات عارضة عن احداث هامة في التاريخ البيزنطى مبعثرة في مواضع متفرقة في الاجزاء الاخرى «من الكتاب» ، وبصفة خاصة عندما ماخصص المؤلف حيزا ملحوظا للفتح العربى لبعض المقاطعات البيزنطية في غرب آسيا وشمال افريقية .

وفي موضع آخر من الكتاب ، يعود النويرى للحديث مرة اخرى عن قصص وحكايات ترجع إلى عهود قديمة عن ملوك في العصور السحيقة الغابرة ويتحدث باسهاب عن الملوك الكفار الجبابرة من ذرية آدم (٣) ، ثم يخصص بعد ذلك فصلا مطولا عن تاريخ مصر القديم وآثارها (٤) . وهنا يتحدث النويرى عن الاهرامات والمعابد والتوابيت الحجرية والمقابر وعلم التنجيم والسحر وبعض الحفريات . ونجد في النص أسماء ملوك مصر الذين يصعب

(١) نفس المرجع ، ج ١ ، ص ٩٧ وما يليها .

(٢) نفس المرجع ، ج ٥ ، ص ٣٥٧ وما يليها .

(٣) نفس المرجع ، ج ٦ ، ص ٧٧ وما يليها .

(٤) نفس المرجع ، ج ٦ ، ص ٨٤ وما يليها .

التعرف على شخصياتهم (١) . ومن الواضح انه اعتمد على احد المصادر العربية المغمورة كتبه شخص يدعى الوصيفي (٢) . ثم يسرد محاولة الخليفة العباسي المأمون (٨١٣ — ٨٣٣ م) حفر مدخل للهرم الاكبر بالجيزة اثناء زيارته لمصر بهدف اخماد ثورات القبط في الدلتا . ولا تزال هذه الفتحة التي نحتها المأمون في جانب الهرم تستخدم فعلا كمدخل الوحيد حتى يومنا هذا . وكان الهدف الاساسي لهذا الخليفة ومن تبعه من خلفاء هو البحث عن كنوز الذهب المخبأة بداخله . ونجد مثلاً آخر بهذا الخصوص في عهد الخليفة جعفر المتوكل (٨٤٧ — ٨٦١ م) الذي تابع واليه في مصر المسمى ابن المدبر هذه الحفائر في مكان آخر .

ثم تولت الدولة بعد ذلك ، في عهد كل من الطولونيين (٨٦٨ — ٩٠٥ م) والاخشيديين (٩٣٥ — ٩٦٩ م) ، اعمال الحفر المنظم ، وعثرت على كنوز طائلة وان كان معظمها عبارة عن تماثيل وتوابيت حجرية وموميات . وبالرغم مما اشتمل عليه هذا القسم من الكتاب من محتويات متنوعة غير مألوفة الا انه يقدم لعلماء الآثار المصرية معلومات قيمة لما وصلت إليه الدراسات الاثرية في العصور الوسطى .

ان الاحداث التاريخية المختلفة المتباعدة التي حاول النويري تغطيتها دون خطة محددة ، لم تكن شديدة الوفرة والتنوع والتشعب والتداخل ، حتى اصبح من الصعوبة بمكان تقدير جهده فيها دون استخدام فهرسنا الشاملة . فهي ، أولاً ، تدور حول الاحداث المشثومة لمدينة الاسكندرية في القرن الرابع عشر الميلادي «القرن الثامن الهجري» . إذ انبرى لجميع النواحي ،

---

(١) انظر على سبيل المثال ، نفس المرجع ، ج ٣ ، ص ٣٣٢ وما يليها .

(٢) نفس المرجع ، ج ٦ ، ص ٩٠ .

مع التركيز على مسألة واحدة ألا وهي الانتصارات التي حققتها حركة الفتوحات المبكرة وانتشار الاسلام في عالم مرهق منقسم على نفسه ، وقد تمزق بين المسيحية الغربية وثيوقراطية دولة الساسان الشرقية ، وكثيرا ما يروى القصص والنوادر التي يمكن ان تكون ذات فائدة في إلقاء الضوء على التاريخ الاجتماعي لتلك الفترات الغامضة . ومع أنه كان يستهدف المتعة والتسلية ، إلا انه حشد دون قصد قدرا هائلا من المعلومات عن الاسلام في تلك الفترة المبكرة .

ويستعرض «كتاب الإمام» ايضا ، اسماء العديد من الصحابة بما يطابق ما جاء في معظم الحوليات المعروفة الاخرى . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن المؤلف يعيد صقل هذه المعلومات بعد تضمينها تفاصيل شخصية شيقة أغفلتها كتب الحوليات والسير والتراجم والوفيات الهامة . وينطبق هذا الحكم تماما على الخلفاء الراشدين (١) ، والامويين (٢) ، والعباسيين (٣) . وكان النويري في بعض الاحيان يجيد عن طريقه ليعدد نقاطا معينة ذات طابع خاص ، والتي لا بد وان يكون قد جمعها من مصادر متنوعة معروفة او مجهولة او مفقودة . وثمة مثال آخر غير عادي هو حصره لألقاب الخلفاء ، إلى جانب مظهرهم الشخصي والسمات التي تتميز بها شخصية كل واحد منهم (٤) .

ويتضح اهتمام النويري بتاريخ وطنه مصر بالذات فيما سجله عن كل دولها وممالكها الاسلامية (٥) . فهو يتحدثنا عن الحكم السني في عهد الاسرتين

---

(١) نفس المرجع ، ج ٣ ، ص ١٣٣ وما يليها و ج ٥ ، ص ٣٤٥ وما يليها .

(٢) نفس المرجع ، ج ٣ ، ص ١٥٦ وما يليها و ٢٩٦ وما يليها و ج ٥ ص ٣٤٨ .

(٣) نفس المرجع ، ج ٥ ، ص ٣١٣ وما يليها و ٣٤٩ وما يليها .

(٤) نفس المرجع ، ج ٥ ، ص ٣٤٨ وما يليها .

(٥) يتضح اهتمام النويري بتاريخ مصر في اطار علم السياسة الاسلامية في الجزء الثالث من الكتاب ، حيث جمع ما ورد عن مصر في القرآن الكريم (ص ٢٧٤ - ٢٧٨) ، وحصن الرسل والانبياء والصحابة ورجال العلم من المسلمين وكذلك الشيوخ والابرار ومشاهير الأدباء الذين دخلوا مصر (ص ٢٨٠ وما يليها و ٢٨٨ وما يليها) .

الغولونية والاختشيدية تحت السيادة الاسمية للخلافة العباسية في بغداد (١) ، قبل انتقال السلطة إلى الخلافة الفاطمية الشيعية بعد غزو القائد جوهر الصقلى مصر (وهو المواطن الصقلى الذى يدعو النويرى بالروى) عام ٩٦٩ م . وقد اعد ملخصا عن حياة الخلفاء في ظل النظام الجديد حتى نهاية حكمهم في عام ١١٦٩ م عندما قبضت الدولة الايوبية على زمام الحكم تحت زعامة السلطنة السنية لصالح الدين . (٢)

وان اهتمام «كتاب الإمام» بموضوع الفتح العربى لمصر يفوق اهتمامه بكل تلك الاسرار الحاكمة «المشار إليها» . ويفرد له المؤلف حيزا كبيرا . ومن الواضح انه اعتمد إلى حد بعيد على مؤلفات الواقدى (٣) الذى تخصص في سرد مغازى الرسول وفتوحات الخلفاء الراشدين . ومع ذلك ، فقد حصر النويرى معظم رواياته في فتح دلتا النيل ، أكثر من اهتمامه بالتفاصيل المتعلقة باستيلاء عمرو «بن العاص» على حصن بابلون (عام ٦٤٠م) الذى أشار إليه بإيجاز في بداية الكتاب . (٤) فقد استولى العرب المسلمون عنوة وهم في طريقهم إلى الاسكندرية على مدينة ترنوط القبطية ، وذلك بمعاونة امرأة كانت تعمل في قصر الحاكم تدعى رينى . وهى اخت مارية القبطية التى كان المقوقس صاحب مصر «من قبل

---

(١) نفس المرجع ، ج ٦ ، ص ١٦ وما يليها . هذا ، وقد وردت الاشارة إلى احداث هامة معينة في مواضع أخرى من الكتاب ، مثل قصة أحمد بن طولون والقاضى بكار بن قتيبة (ج ٣ ، ص ٢٨٨ وما يليها) .

(٢) وردت الاشارة إلى الدولة الأيوبية في الجزء الرابع من الكتاب ، ص ٤٩ - ٥٠ ونجد معلومات أوفر في نفس الجزء عن صلاح الدين والدولة الايوبية . انظر ص ٦٢ - ٧٤ .

(٣) ابو عبد الله بن عمر الواقدى ، المؤرخ المعروف للفتوحات العربية المبكرة . وقد عاش فيما بين القرنين الثامن والتاسع للميلاد (القرنان الثانى والثالث الهجريان) . نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٣٠ .

(٤) الإمام ، ج ٢ ، ص ٣٠ وما يليها .

بزنطة» قد اهداها للنبي محمد ، واصبحت احدى زوجاته . وكانت ربي  
ترغب في عدم ترك اختها ، وكانت تلك هي فرصتها عندما وعدها بذلك  
القائد المسلم خالد بن الوليد مقابل خدماتها في سبيل الاستيلاء على المدينة .  
وهكذا فتح هذا النصر الطريق إلى الاسكندرية امام العرب الذين واجهوا أول  
كتائب للعدو وابادوها عند دير الزجاج (الهانطون اليونانية ) (١) الذي يقع  
على مسافة نحو تسعة اميال جنوبي العاصمة «الاسكندرية» . وكان يرفقة  
الكتيبة البيزنطية مجموعة من الرهائن العرب الذين قبض عليهم البيزنطيون اثناء  
غارة على طبرية والساحل السوري . ومالبت أن تولى حكم الاسكندرية  
رسطوليس الذي ذبح اباه المقوقس بسبب استسلامه لعدوه ، واعتقد ان  
باستطاعته استخدام اولئك الاسرى كرهائن في المفاوضات الاخيرة مع العرب  
ولكن هؤلاء حصلوا على حريتهم في مدينة الهانطون ، ولم يكن امام رسطوليس  
سوى خوض الحرب لانقاذ المدينة وقد أُنْعقدت آماله على وصول  
الامدادات من سيرنيكا . ولكن تبين ان هذه التعزيزات كانت بطيئة الحركة  
سريعة الارتباك لدرجة انه لم يكن بوسعها الانضمام إلى البيزنطيين اخوتها  
في الدين دفاعا عن الاسكندرية . ويروى النويرى قصة انفتاح ثغرة في تلك  
اللائء في الاسوار الحصينة بمعجزة عند صلاة شرحبيل (٢) ، وهو كاتب  
رسول الله ومن صحابته . وفي تلك اللحظة انسحب رسطوليس ورجاله إلى اعلى  
البحار ، بينما لاذت الجيوش القادمة من سيرنيكا بالفرار عائدة إلى ديارها عند  
سماعها خبر دخول العرب العاصمة تحت قيادة خالد «بن الوليد» .

وبعد الاستيلاء على المدينة ، فرض المسلمون ضريبة جماعية على المواطنين

---

(١) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٣٩ .

(٢) شرحبيل بن حسنة . نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٥٣ .



قدرها مائة ألف دينار . وفي تلك الاثناء عوضوا على المواطنين اما اعتناق الاسلام او دفع الجزية بواقع اربعة دنانير للفرد الواحد . وكلف احدا لاقباط ويدعى أشعيا بن شامس (١) بجمع المبالغ تحت رقابة رفيق عربي يدعى قيس ابن سعد . ويختتم النويرى قصته بمأساة مواطن ثرى يدعى تولى (٢) اشتهر بالبخل ، واراد التهرب من دفع نصيبه بالتظاهر بالفقر . فلغنه قيس قائلا : «فوالله ! ماضى يومهم ذلك حتى جاء الخبر ان اغنامه هلكت جميعا . وبساتينه قد يبست ودياره واملاكه قد تهدمت ، وامواله قد مضت» (٣) .

ثم مالبث ان توافدت الوفود من المدن الاخرى فى مصر السفلى لاعلان خضوعها للمتصرين بمحض رغبتها ، ملتزمة الامان . وكانت رشيد وفوة والحلة وكل مديرية البحيرة (٤) ممثلة فى تلك الوفود . وانحسرت المقاومة المتبقية فقط فى ميناء دمياط البحرى الهام عند فم فرع النيل الشرقى . وكان يحكم هذه المنطقة الهاموك خال المقوقس المتوفى . فأرسل خالد فصيلة مكونة من اربعين فارسا بقيادة المقداد بن الاسود للتفاوض فى امر استسلام المدينة . ولكن الهاموك رفض النصيحة بالاستسلام التى كان قد أسداها له وزيره . الدراجان (٥) الذى اعدمه . وبذلك اثار حنق ابن الدارجان الذى تأمر على طريق المخادعة بالسماح للعرب بدخول المدينة عبر فتحة فى السور . ويمكن تلخيص مشاهد الاحداث التالية فى تلك الاعمال الاستطلاعية البسيطة بين جماعة الهاموك والمسلمين ، والتى تتضمن اعتناق عائلة الدارجان القوية الاسلام

(١) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٥٧ .

(٢) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٥٨ .

(٣) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٥٨ - ٥٩ .

(٤) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٦٧ .

(٥) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٦٨ .

وفي المرحلة التالية من الصراع سقط احب ابناء الهاموك إليه ويدعى شطا (١) من فوق ظهر جواده وفقد الوعي . وعندما ثاب إلى رشده روى رؤيا تراءت له من السماء شاهد فيها جنود العرب في زى اخضر تحت قباب عجيبة ومعهم فتاة جميلة تدعوه إلى الاسلام . وبذلك عبر إلى الجانب الاسلامي ، ثم مالبت أن حذا الوالد المؤمن حذوا ابنه المؤمن . وهكذا اعتنقت دمياط الاسلام .

ثم اعقب ذلك بقصة اخرى روائية تدور حول مدينة تنيس (٢) عاصمة مصر القديمة والتي كان يحكمها عربي نصراني يدعى ابو ثور من قبيلة بني غسان الذين تحصنوا في خنادق على جزر بحيرة المنزلة ، فقرر المعتنقون للدين الجديد في دمياط ارسال وفد تبشيري للدعوة ابى ثور واتباعه للدخول في دين جيرانهم وهو الاسلام . وتطوع شطا بن الهاموك بالقيام بهذه المخاطرة ، ورافقه يزيد ابن عامر ، ذلك العربي المقيم في دمياط واحد رفاق الرسول . وانتهت هذه المهمة بالفشل بالرغم من المعجزات التي قام بها المبشرون المسلمون والتي عددها النويري «في كتابه» . وعندما فشلت الدعوة السلمية ، اصبح لزاما استخدام القوة لارغام ابن ثور على دخول الاسلام . واثناء العمليات الحربية التي تلت ذلك ، ظهرت لشطا رؤيا تتعلق بالفردوس الاسلامي الذي وصفه النويري وصفا حيا . ولكن في النهاية ، قام ابو ثور بذبح شطا ، وطارد الهاموك وحلفاءه حتى بوابات مدينة دمياط ، حيث بدأت تلوح في الافق التعزيزات العربية التي تستهدف ازعاج المنتصر واحباط جهوده . فانزلت الهزيمة بابى ثور واقتيد اسير اثم اطلق سراحه بعد اعتناقه الاسلام . وبذلك تم فتح الدلتا في العام السادس والعشرين بعد الهجرة ، اى في عام ٦٤٧ ميلادية . ومن الأهمية بمكان ان نعرف ان شطا دفن في نفس الموقع الذي سقط فيه ، واعتبرت

(١) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٧٣ .

(٢) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٧٥ وما يليها .

مقبرته من اقدس الاضرحة في الاسلام . واستمر الحجاج الانتقاء من جميع الجهات يتوافدون عليه حتى وقت تأليف « كتاب الإمام » (١) .

وان الاهتمام بتلك القصص التاريخية يتعدى ما وراء المعارك والانتصارات فزودنا المؤلف في ثنايا اقواله بالكثير من التفاصيل الطبوغرافية لبلاده . فثمة وصف نادر لاسوار وحصون دمياط واستحكاماتها وبواباتها العديدة المنيعة إلى جانب التفاصيل المتعلقة بعرش ابي ثور والايقونات المسيحية المحيطة به .

وجدير بالملاحظة ان النويرى كان يتنقل في سرده للأحداث برفق وهذوء باحثا عن الفرص التي يتحدث فيها عن انتصارات الاسلام . ولو انه ، كان من آن لآخر ، يشذ عن تلك القاعدة بذكر نكسات اليمه احاقت بالاسلام . وربما كان اشد الفصول ايلاما في هذا الصدد هو غارات القرامطة على الحجاز وسقوط مكة المدينة المقدسة في قبضة ابي طاهر صاحب البحرين (٢) عام ٣٠٧ هـ / ٩١٩ م . وليس هناك مثل للاهوال التي صاحبت تلك الغزوة في الحوليات الاسلامية . فقد ذبح الحجاج والمواطنون دون تمييز ، والقي بجثثهم في بئر زمزم المقدسة حتى امتلأت إلى آخرها بالموتى واجساد أولئك الذين كانوا يلفظون أنفاسهم الاخيرة . ويقدر عدد الشهداء بثلاثين الف ، بخلاف النساء والاطفال الذين أقتيدوا كرقيق . وقد أعمل السلب والنهب في الكعبة . وقطع الحجر الاسود من مكانه ، ونقل بعيدا لفترة اثنتين وعشرين سنة . وبذلك ترك الخوارج اطهر منطقة في الاسلام في حالة فوضى دامية ، لمدة ستة ايام .

وكانت الحادثة الاخرى التي طاولت مابلغه خطر انتهاك القرامطة لحرمة

---

(١) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٩١ .

(٢) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ١٢ وما يليها .

المقدسات هي غزو التتر لبغداد عام ١٢٥٨ م (١) تحت قيادة هلاكوخان «هولاكو خان». وقد وقع المستعصم بالله آخر خلفاء بني العباس تحت حوافر خيول التتار حتى تمزقت جثته اربا ، ولم يكن من السهل تجميع اشلأها . كما صودرت كنوزه وقتل اولاده الثلاثة مع ثمانمائة من اقاربه . وحمل الف من العذارى بعيدا عن قصره . واستمر هولاكو في اعمال الذبيح في الاهالى لمدة اربعة عشر يوما بمعدل ٥٠,٠٠٠ فرد في اليوم الواحد ، وبذلك أصبح مجموع القتلى في النهاية ٧٠٠,٠٠٠ . لآلت بشهم الشوارع برائحتها الكريهة ، وتفشى وباء الطاعون في المدينة ، بل تعدى انتشاره حدودها .

وفي مواجهة هذه المآسى الفظيعة التي كانت تقف على قدم المساواة مع سلب الاسكندرية عام ١٣٦٥ م ، جد النويرى في البحث عن انتصارات اسلامية تكون بمثابة رد فعل لتلك الهزائم المنكرة بهدف رفع الروح المعنوية لدى المسلمين . ويزخر كتابه بأشارات إلى الانتصارات الاولى في صدر الاسلام في منطقة الهلال الخصيب ضد الدولة البيزنطية وامبراطورية الفرس الساسان . وهكذا تناول بالمديح والثناء فتح العرب لمصر والتقدم في شمان أفريقية كما اسلفنا . فهو يمجّد دفاع المسلمين البطولى ضد استعادة المسيحيين لاراضهم في شبه الجزيرة الايبيرية ، مع ان الحرب «بين الطرفين» بدأت بداية سيئة لحد ما بالنسبة للسلطان ابى الحسن المرينى (٢) ، الذى هزم هزيمة منكرة خارج مدينة طريف «بالاندلس» ويحتمل أن تكون هذه هي معركة ريوسالادو Rio Salado عام ١٣٤٠ م التي لم يرد ذكرها «في الكتاب» عن عمّد

---

(١) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٢٢٢ وما يليها .

(٢) اسمه بالكامل حسبما ورد في الوثائق هو «ابو الحسن بن على يعقوب بن العباس المرينى» . انظر نفس المرجع ، ج ٣ ، ص ١٩٥ . وفيما يتعلق بالحرب كلها ، انظر ج ٣ ، ص ١٨٢ وما يليها .

و كان المنتصر في ذلك اليوم هو الفونس ملك النصارى (١) المعروف باسم الفونسو الرابع (١٣٢٥ - ١٣٥٧ م) بطل البرتغال الشجاع . وكان الملك البرتغالى متحالفا مع قشتالة التى حارب ملكها الفونسو الحادى عشر صراحة إلى جانبه والذى يحمل نفس الاسم . ومع ذلك سرعان ما انتقم السلطان ابن الاحمر (٢) لهذه الهزيمة ، فاخترق بلاد الاندلس واستولى على الجيسيراس Algeciras (٣) والجهات المحيطة بها عام ٧٦٨ هـ / ١٣٦٦ م اى بعد مرور سنة واحدة على كارثة الاسكندرية . وبذلك عاد المسلمون الذين التى بهم خارج شبه الجزيرة للاستقرار مع ابى الحسن مرة اخرى في ملكهم القديم بعد ذبح المسيحيين . وإذا اخذنا بما قاله ابن الاحمر وروايات النويرى لوجدنا ان فتوحات السلطان امتدت ، فيما بعد ، إلى مدن جيان ، Jae. (٤) «جنوب الاندلس» وأبده (٥) «شمال شرقى جيان» واطريه Utrera (٦) «جنوب الاندلس ، وإلى قرى وقلاع اخرى بلغ مجموعها ثمان وأربعين (٧) وبهذه المناسبة يقتبس النويرى دليلا من الوثائق يتضمن خطابين (٨) متبادلين

(١) نفس المرجع ، ج ٣ ، ص ١٨٦ وحاشية رقم ٥ .

(٢) الاسم بالكامل هو : ابو عبد الله محمد بن يوسف الملقب ابن الاحمر . انظر نفس المرجع ، ج ٦ ، ص ٣١٨ . انظر أيضا ج ٥ ، ص ٣١٧ ح ٥ حيث عرف باسم محمد الخامس الفنى بالله سلطان غرناطة .

(٣) نفس المرجع ، ج ٣ ، ص ١٩٨ وما يليها .

(٤) نفس المرجع ، ج ٥ ، ص ٣١٩ وحاشية رقم ٥ .

(٥) نفس المرجع ، ج ٥ ، ص ٣٢٥ وحاشية رقم ١ .

(٦) نفس المرجع ، ج ٥ ، ص ٣٢٧ وحاشية رقم ١ .

(٧) نفس المرجع ، ج ٥ ، ص ٣٣١ . هذا ، وغير معروف معظم تلك القلاع .

(٨) نفس المرجع ، ج ٣ ، ص ١٩٣ - ١٩٧ . وليس بوسعنا تتبع أصول تلك الخطابات في المصادر المنشورة .

بين ابى الحسن المرينى وعدوه الفونس (الفونسو) ، كما يتضمن رسالة (١) تحوى المزيد من التفاصيل موجهة من ابن الاحمر إلى سلطان فاس المرينى فى شمال أفريقية ، يبلغه فيها بانتصاراته على «القند» (٢) ملك النصارى .

وأن ماسبق ذكره من روايات يمكن اعتباره بمثابة امثلة توضيحية تتعلق باهتمام النويرى بالحروب الاسلامية عبر العصور الوسطى . ويزخر «كتاب الإلغام» بإشارات إلى معارك اخرى ، مابين صغيرة وكبيرة ، ومعروفة وغير معروفة ، والتي ربما يكون سردها امرا مملا عديم الفائدة . ومع ذلك ثمة امر واحد يبرز بوضوح فى خضم التكرار فى هذا الموضوع ، ألا وهو المادة الوفيرة التى حشدها المؤلف أثناء حديثه عن أدوات الحرب واقتتال عند المسلمين ، وقد رأينا أنه جدير بفهرس خاص به (٣) . هذا ، بالإضافة إلى تكتيكات واستراتيجية المقاتلين المسلمين . وان هذا العرض الموجز للكتاب يتميز بقيمته التى يصعب تقديرها بالنسبة للطلاب الذى يدرس الفنون الحربية الاسلامية فى العصور الوسطى (٤) .

وتبدو قدرة النويرى الحقيقية «كمؤرخ» (٥) بوضوح اكثر فى المواضيع

- 
- (١) نفس المرجع ، ج ٥ ، ص ٣١٨ وما يليها . هذا ، والوثيقة مكتوبة بأسلوب غريب لم يتسن تتبعه فى المصادر المنشورة . وليس معروفًا من أين حصل النويرى على تلك الخطابات .
- (٢) أى «الكونت ملك المسيحيين» . ولقب «قند» مشتق من الكلمة الاسبانية Conde والفرنسية Comte . وربما يكون هذا الشخص هو احد اشراف مملكة قشتالة فى عصر بطرس الراهب (١٣٥٠ - ١٣٦٩ م) . انظر ج ٥ ، ص ٣١٧ - ٣١٨ وحاشية رقم ٦ .
- (٣) نفس المرجع ، ج ٧ ، الفهرس رقم ٨ .
- (٤) عند عقد المقارنة بين ما خلفه النويرى وبين الدراسات المتعلقة بفن الحرب والقتال فى الغرب ، ليس هناك ما هو أفضل من تأليف شارل اومان Charles Oman وج . كيهلر G.Kohler وم . دلبريك M.Delbruck وف . لوت F . Lot .
- (٥) تبنى علامات التنصيص حول وصف النويرى كمؤرخ .

التي يناقش فيها احداث وشخصيات عصره كشاهد عيان أولا وقبل أى شئ آخر . هذا ، وبدون التعمق والاسهاب فى موضوع الاسكندرية الذى أرجأناه للفصل التالى ، فإننا يجب ان نعتبر تناوله «لدولة» الممالك البحرية (١) اعتبارا من سلطنة الظاهر بيبرس (١٢٦٠ - ١٢٦٧ م) تقريبا وحتى حكم السلطان المعاصر للنويرى نفسه وهو الاشرف شعبان (١٣٦٣ - ١٣٧٦ م) . بمثابة اضافة مفيدة إلى مؤلفات المقرئى (٢) العظيمة وإلى مدرسته ، ولو أن ما اورده فى هذا الخصوص مختصر نسبيا . ويزيد من قيمة تلك التفاصيل الدقيقة والفترات التاريخية المحددة التى يروىها النويرى ، انها لا تظهر فى كتب الحوليات المعروفة . وهو فوق هذا وذاك ، يقدم لنا سجلا غنيا بكل الاعمال التى قام بها امراء الممالك (٣) فى عصره ، ومكانتهم فى الادارة سواء كانت اقليمية أو مركزية . وأن وصفه لموكب السلطان شعبان فى الاسكندرية (٤) ، الذى رآه كشاهد عيان ، لهو قطعة فنية . تذكرنا بالعظمة الاسطورية للمواكب والاحتفالات البطلمية فى نفس المدينة قبل عصره بنحو سبعة عشر قرنا من الزمان .

ولم يدعم النويرى اقواله ، فى كثير من الاحيان ، بالوثائق الاصلية . وكانت المقتطفات الشعرية هى الامر المفضل عنده ، متمشيا فى ذلك مع ميوله الادبية . ورنما عن ذلك ، نجده فى احدى المناسبات يقتبس وثيقة أصلية

---

(١) نفس المرجع ، ج ٣ ، ص ٨٦ وما يليها و ٢١٢ وما يليها و ج ٤ ، ص ٧٥ وما يليها و ج ٥ ص ٢٣٥ وما يليها و ٢٥٤ وما يليها و ٣٨٠ - ٣٨١ و ج ٦ ص ١ وما يليها و ١٦ وما يليها .

(٢) اهم مؤلفاته هو كتاب السلوك فى اربعة اجزاء تشتمل على عدة اقسام ، نشره محمد مصطفى زيادة وأتمه سيد عبد الفتاح عاشور (القاهرة ١٩٥٦ - ١٩٧٣) .

(٣) الإلام ، ج ٧ ، فهرس رقم ١ . انظر ايضا الحاشية التالية .

(٤) نفس المرجع ، ج ٧ ، ص ٢٥٤ - ٢٥٥ ، ج ٦ ، ص ١ - ٤ .

بأكملها ، وهى تعتبر من اهم الفرمانات او المراسيم الرسمية (١) لمصر  
الملوكية . وقد أشار كبار كتاب الحوليات فى اخريات العصور الوسطى  
إلى هذا المرسوم بإيجاز (٢) . ولكننا لم نعثر عليه كاملا إلا فى «كتاب الإمام»  
وكان النويرى يستهدف من هذا المرسوم وتاريخه سنة ٧١٥ هـ / ١٣١٥ م ،  
توضيح ولاية السلطان الناصر بن محمد الثالثة (١٣٠٩ - ١٣٤٠ م) الجديدة  
بالاهتمام . وهو يتميز بطابع دستورى شامل له اهميته القصوى ، لانه يعالج  
تقريبا كل ناحية من نواحى الاقتصاد والمجتمع المصرى . وقد صدر المرسوم  
بعد إجراء مسح عام للبلاد ، وبعد تقرير نظام جديد وعادى للضريبة على  
الارض فى سجل يعرف باسم «الروك الناصرى» (٣) ومع أن نص المرسوم  
كما هو موجود فى النسخ الخطية توجد به فجرات مفقودة ، إلا ان الوثيقة فى  
معظمها على حالتها الاصلية ، وتقدم قائمة تحليلية مفصلة ونادرة للمشاكل  
الوطنية التى سعى السلطان إلى حلها .

فبعد المقدمة او الافتتاحية التى يمجدها فيها كتاب البراءة او المرسوم سلطنة  
الناصر ، يذكر الدوافع الخيرة التى دفعت السلطان إلى منحه لرعاياه ،  
بهدف ازالة مساوئ تشريع سابق ، ومؤكدا لهم اعنهم وامانهم . وكل  
ما نستطيع ان نذكر هنا لبيان قيمة تلك الوثيقة هو جدول المواد التى اشتملت  
عليها جدولة تحليلية .

(١) نفس المرجع ، ج ٤ ، ص ١٤٦ - ١٥٤ .

(٢) انظر على سبيل المثال ، السلوك للمقرئى ، ج ٢ ، قسم ١ ، ص ١٥٠ - ١٥٢ ؛  
ابو المحاسن بن تفرى بردى : التجوم الزاهرة (القاهرة ١٩٤٢) ، ج ٩ ، ص ٤٩ - ٥٠ ؛  
ابن أبيك الدوادارى : كنز الدرر (القاهرة ١٩٦٠) ، ص ٢٨٦ .

(٣) وكان هذا هو آخر مسح عام للأراضى بهدف ربط الضرائب على أساس عادل . وقد  
خصص المقرئى لهذه المسألة جانبا من خططه (طبعة القاهرة فى أربعة أجزاء ، ١٣٢٤ هـ) ، ج ١ ،  
ص ١٤١ - ١٤٧ . وجاء قبله روك صلاح الدين الذى جمعه ابن عمى (كتاب قوانين الدواوين ،  
نشر عزيز سوريال عطية ، القاهرة ١٩٤٣) .



١ - إسقاط الرسوم المفروضة سابقا على الغلال الواردة إلى سواحل القاهرة واعمالها ، ومنع تكرار ازدواج ضريبة الدرهم الفرد عند تفريغ الغلة وبيعها .

٢ - ابطال نصف ضريبة السمسة التي يؤديها جميع السماسرة والمنادين .

٣ - ابطال المقدمين ومقرارتهم وما يضم إلى ذلك من الاعلاف التي يطالبون بتقديمها لبغالهم ودوابهم .

٤ - ابطال رسل الدولة والمترددن عن البلاد ، مع ضمان الأمن للرعايا .

٥ - نواب الامراء الذين يقررونهم ببلادهم هم نواب عن مجلس الحرب ، ويجب على الوالى الذى يتمتع بكافة الصلاحيات التصدى لإزالة التعدى على حقوق الافراد .

٦ - المفسدون الهاربون والقتلة ومرتكبوا الجرائم الذين يهربون إلى بلد غير بلادهم ، يجب ان يلتق ولاية تلك الناحية ومشايخها وخفراؤها القبض عليهم ، واعادتهم إلى بلادهم الاصلية او تسليمهم إلى والى الحرب فى تلك الناحية . ويجب الا يمكن هؤلاء المفسدون والمعتدون من اقامتهم يوما واحدا او ساعة واحدة . ولأرباب الدولة سلطة استخدام «سيوفنا» ضدهم بالتوسيط والشنق والتسمير على نخل تلك البلدة .

٧ - الفلاحون المنتجعون من بلدة إلى أخرى بسبب القحط ، والذين يأويهم الاهالى يستطيعون للبقاء فى تلك البلدة حتى موسم الحصاد ، ثم يرجعون إلى بلادهم الأصلية .

٨ - لا يمكن أحد من الولاة ولا نوابهم ولا المتحدثين عنهم ولا الكتبة ولا الجباة ، من جباية رسم استثنائي مياومة او مشاهرة ، ومحظور عليهم أيضا تناول جامكية اكثر من الدرهم الفرد .

٩ - ابطال حقوق السجون ومقرارتها وضمانها ، ومنع التعرض لأخذ الدرهم الفرد منها .

١٠ - لا تجبى اى مبالغ عن الجسور والترع والقنوات ، ولا تفرض أى رسوم على تسليف الادوات الزراعية ، او على القش والابقار والنخلة والمهندسين . وعلى كل بلد ان يلتزم مقطوعها بعمل مايجب عمله من غير رجوع إلى العوائد القديمة .

١١ - ابطال طرح الفراريج على البلاد ، أو أى شىء آخر (١) .

١٢ - ابطال مقرر الفرسان ومقرر الخيل الذى كان يستأدى وقت حركات الجيوش .

١٣ - لا يؤخذ مقرر ملاهى لمن يعمل فرحا ومن أعرس أو كتب كتابه او كان عنده ختان . ولا يطلب إلا من كان عنده أحد من الغواني والملاهى .

١٤ - المسامحة بثمان العبي التى كانت تقررت على عامة الناس :

١٥ - ابطال المقرر من التبى والقش لمعاصر الأقصاب لمدة عام ، ويسمح بشراء التبى بثمانه ورضى أصحابه .

١٦ - ابطال حماية المراكب النهرية ، وان لا يعود احد من الامراء وارباب

---

(١) يبدو أن هذه الاشياء كانت تمنح عينا بدلا من الدفع النقدى للضرائب .

الجهات بحمى مركبا ولايستأدى من الحماية حقا (وهذا يعنى توفير الحماية بدون أجر) . ولايتعرض أحد إلى المراكب بغير حق يشهد به الديوان .

١٧ - لايطالب الحى عن الميت ، ولاالمقيم عن الخارج ، ولاالحاضر عن الغائب ، مالم يكن ضامنا او كفिला او ملتزما .

١٨ - المساحة بما انساق للامراء والمقطعين من البواقي فى بلادهم من الخراج والضمان وإلى آخر مغل سنة ٧١٤ هـ .

١٩ . - اعفاء جماعة الفلاحين من ضيافة القდوم عند انتقالات الاقطاعات فى سنة الروك .

٢٠ - ابطال عداد النحل حسب مايشهد به الديوان .

٢١ - ابطال زكاة الرحالة المسلمين بالديار المصرية بالوجهين القبلى والبحرى . كما ينسحب هذا الامر على اليهود والنصارى ، إلا على حكم التصقيع .

٢٢ - ابطال جميع البدول من الولاة والنظار المستوفين وأرباب الوظائف جميعا اعتبارا من أستقبال شهر صفر سنة ٧١٦ هـ . \*

وتنص الخاتمة على حتمية تنفيذ بنود هذا المرسوم فى القاهرة وجميع الاقاليم بدون استثناء وبدون ارضاء مدينة على حساب الاخرى . وتنص ايضا على ان جميع الولاة والامراء والحكام ورؤساء العمال ونظار الخاصة ومحصلى الضرائب وجميع سلطات الدولة ، ملزمون بتنفيذ نصوص هذا الفرمان حرفيا

دون تفسير أو تبديل. ويحمل فرمان في بدايته توقيع السلطان بما يتفق والتقاليد الدبلوماسية المتبعة في العصور الوسطى . وينتهي بتاريخ اصداره في ١٨ من ذى الحجة عام ٧١٦ هـ / ١٣١٦ م .

ويحتمل أن يكون هذا المرسوم هو اكثر المراسيم المتعلقة بالحريات في مصر إبان العصور الوسطى إثارة للدهشة . وهو اشبه مايكون بوثيقة «العهد الاعظم» Magna Carta ، مع فارق وهو ان السلطان منحه عن طيب خاطر ولم ينتزع قسرا من الملك . وبذلك يبدو أن «الميثاق المذكور» كبح جماح الادارة المركزية والحكومة المحلية واستبدادهم بعامّة الشعب . وقد شاهدت الولاية الثالثة للسلطان الناصر محمد تغييرات عظمت في اقتصاد مصر ، ولا بد انها هيأت «فرص» العدالة الاجتماعية للرجل العادى . ومع ذلك فن المشكوك فيه ان كانت روح هذا الميثاق قد احتفظ بها خلفاء الناصر . ويمكن التثبت من ذلك مما كتبه مؤرخو مصر في اواخر العصور الوسطى ، ومن بينهم النويرى الذى ندين له بمعرفتنا بكافة مواد هذه الوثيقة الدستورية العظيمة .



## الفصل الرابع

الحملة الصليبية على الاسكندرية عام ١٣٦٥ م / ٧٦٧ هـ

ليس في نيتنا هنا ان نسرد من جديد القصة الكاملة للحملة الصليبية على الاسكندرية فقد سبق ان تناولناها ، اعتمادا على مختلف المصادر من شرقية وغربية ، في دراستنا المستفيضة ، بعنوان «الحروب الصليبية في اواخر العصور الوسطى» (١) وهدفنا تحليل ذلك القدر الهائل من المعلومات الذى سجله النويرى كشاهد عيان ، او ذلك الذى جمعه بنفسه نقلا عن الروايات التى سمعها من شهود العيان الآخرين . ومعروف ان الحقائق التى قدمها المؤلف توجد مبعثرة متناثرة على امتداد كتابه ، وقد تقطعت اوصالها بسبب كتابته في مجالات عديدة ليس هناك اى رابطة تجمع بينها . لذلك ، فإن رواياته تحتاج إلى جهد لتنسيقها ، وهو ما نأمل تحقيقه في هذا الفصل .

ان هذا الكتاب المطول ، كما يدل عنوانه ، بدأ اساسا بهدف تدوين الاحداث المشتومة «التى قدر» ان تحل بمدينة الاسكندرية . ومع ان المصنفات التاريخية العربية الاخرى التى ترجع إلى اواخر العصور الوسطى . قد افسحت مكانا مناسباً لتلك الاحداث ، إلا أن ايا منها لا يستطيع مباراة «كتاب الإمام» فيما يتعلق بحجم المعلومات التى قدمها خاصة بتفاصيل القصة . وسيظل النويرى هو مصدرنا الرئيسى الموثوق به في هذا الموضوع من وجهة النظر المصرية .

---

(١) الكتاب طبع لندن (نشر Methuen & Co. Ltd.) سنة ١٩٣٨ . وفيه قائمة بالمصادر والمراجع المتعلقة بالموضوع ، ص ٣٤٥ - ٣٧٨ والحواشى . وعلى ذلك ليس ثمة ما يدعو إلى ايجالها هنا .

ووفقا لرواية المؤلف ، فإن قصة كارثة الاسكندرية تبدأ بمجموعة من التحذيرات التي وجهها عدد من الشيوخ الابرار في ارجاء مختلفة من العالم الاسلامي (١) . ويرجع تاريخ تصريحاتهم التي تنبأوا بها إلى السنوات الاخيرة من القرن الثالث عشر الميلادي «أواخر القرن السابع الهجري» في بلاد ما بين النهرين ، والتي سجلها شخص يدعى الباجرقى (٢) في ملحمة التي نظمها عن الحروب الصليبية ضد كل من سورية والاسكندرية . وقبل سقوط المدينة بوقت قصير يروى التويرى اربعة منامات عن الكوارث الفادحة المنتظرة التي سوف تحل بها . وهي عبارة عن منامات تراءت لاربعة من مواطني (٣) الاسكندرية ، بالاضافة إلى منام خامس يذكر أن مصدره دمشق (٤) . ومنذ

---

Et. Combe, «Les présages annonçant la Croisade de Pierre de Lusignan et al cause de cette attaque, «Bulletin de la Société Royal d'Archéologie d'Alexandrie, année 1948, No. 37

(٢) الإمام ، ج ١ ، ص ١٠٦ وما يليها «وقد اقتبس التويرى تسعة عشر بيتا من تلك الملحمة الشعرية القديمة والتي كان ابن خلدون على معرفة بها . وورد الباجرقى تحت اسم بجريق وبجريقه ولعله خطأ مطبعي . انظر كتاب العبر (طبعة بيروت ، سنة ١٩٦١) ، ج ١ ، ص ٦٠٥ و ٦٠٨ انظر ايضا المقرئى : السلوك (القاهرة ١٩٤١) ، ج ٢ ، قسم ١ ، ص ١٦٧ ح ٣ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة (القاهرة ١٩٤٢) ، ج ٩ ، ص ٢٦٢ . ويظهر اسم الباجريق أيضا في مؤلفي ابن كثير وابن شاكر . انظر الإمام ، ج ١ ، ص ١٠٧ ح ١ . والباجريق من مواطني قرية بجريقة ، وهي تقع بين البقعا ونصيبين فيما بين النهرين ، وذلك وفقا لمعجم البلدان لياقوت ، ج ١ ، ص ١١٥ . انظر الإمام ، ج ١ ، ص ١٠٦ - ١٠٧ ح ٦ .

(٣) الإمام ، ج ١ ، ص ١٠١ وما يليها . وهؤلاء هم ابو عبد الله محمد بن صالح التاجر المصري ، وابو عبد الله محمد المؤدب ، وابو عبد الله محمد بن أحمد التاجر الرحالة ، وعلى بن راشد الحجازي المقيم بالاسكندرية .

(٤) نفس المرجع ، ج ١ ، ص ١٠٥ - ١٠٦ هو ربحان الحبشى الذي توجه إلى القاهرة بعد المنام الذي تراءى له وهو نائم بدمشق ودخل الاسكندرية بعد الغزوة . وهناك اختلط بالفرنجة الذين كان يتقن لغتهم ، وتمكن من الوصول إلى بطانة الملك بطرس وسرق مهازه الذهبى وباعه فيما بعد بمبلغ ثلاثمائة دينار .

البداية يستبق المؤلف الاحداث قائلا أن سقوط مدينته العظيمة لايعزى إلى بسالة غراتها ، ولكنه كان فقط قدرا محتوما انزله الله كعقاب لخطايا سكانها وآثامهم . ومع ذلك فهو لايجد من الكلمات مايكفى ليسب غازيها بطرس الاول لوزجنان الذى يصفه بأنه كلب لعين ولص (١) وجبان ، ركن إلى الفرار بما سلبه خوفا من مواجهه امدادات السلطان التى كانت فى طريقها إلى المدينة . ويقرر ان بطرس كان يحتل ادنى المراتب بين الملوك المسيحيين ، وان مكانه بينهم « كراعى قردة فى جزيرة » (٢) .

وحيث ان ارادة الله بترك المدينة للفرنجية كانت امرا لامرد له ولاسبيل إلى مقاومته ، إلا ان بعض الظروف هى التى مهدت الطريق لتنفيذه وتحقيقه : وهنا يشرع التويرى فى ذكر سبعة اسباب ادت إلى الكارثة . يمكن ترتيبها زمنيا كالآتى : (٣)

السبب الاول : فى عام ١٧٥٥ هـ / ١٣٥٤ م اصدر السلطان صالح بن الناصر محمد بن المنصور قلاوون (٧٥٢ - ١٧٥٥ هـ / ١٣٥١ - ١٣٥٤ م) مرسوما بطرد جميع المسيحيين الاقباط من دواوين الحكومة مالم يرتدوا عن دينهم ويعتنقوا الاسلام . وزاد الطين بلة ، أنه نص فى نفس المرسوم ان يكون لجميع الرعايا المسيحيين زى خاص مميز . كما حتم عليهم ركوب الحمير فقط بدلا من الجياد . وأن تطبيق هذه الاجراءات المهينة فى كل من القاهرة والاسكندرية ، شجع عوام المسلمين ان يبدأوا حركة اضطهاد ضد جميع المسيحيين ، سواء اكانوا من اهل البلد او من الاجانب الذين يقيمون فى كلتي

(١) نفس المرجع ، ج ١ ص ٢ - ٣ .

(٢) نفس المرجع ، ج ١ ص ١١٣ .

(٣) نفس المرجع ، ج ١ ، ص ٩٢ - ١١٠ .



العاصمتين . وبذلك اضطر التجار المسيحيون الاجانب إلى جمع بضائعهم وحزم امتعتهم والعود إلى بلاد الروم . وقد اثار هذا الاجراء غضب الملك القبرصى الذى بدأ نتيجة لذلك رحلته إلى الغرب بحثا عن مجندين للهجوم على الاسكندرية (١) .

السبب الثانى : يقال أن بطرس الاول لوزجنان عند أعتلائه العرش (١٣٥٩-١٣٦٩ م) ، طلب من السلطان الناصر حسن أثناء ولايته الثانية (٧٥٥-٧٦٢ هـ / ١٣٥٤-١٣٦١ م) السماح له بزيارة صور لتدعيم تنويجه بالجلوس على عمود معين فى تلك المدينة طبقا للتقاليد القبرصية المتبعة . ولكن السلطان رفض طلبه باحتقار . وعلى هذا ، فإن بطرس الذى اثار غضبه هذا الموقف ، قام بغزو الاسكندرية انتقاما لكرامته (٢) .

السبب الثالث : فى شوال ٧٥٥ هـ (أكتوبر - نوفمبر ١٣٥٤ م) رست سفينة محملة بقراصنة الفرنجة فى ميناء الاسكندرية ، وسبيت مضايقات للبحرية الاسلامية مما جعل نائب السلطان بالمدينة يرسل القناصل المسيحيين إلى المعتدين للتأكد من نواياهم واغراضهم . فقالوا انهم يحتاجون إلى مؤن ومياه عذبة بادر النائب بارسالها اليهم . ثم تنكروا بعد ذلك لقواعد كرم الضيافة بسلب سفينة سورية راسية فى مياه الاسكندرية وابتعدوا عن الميناء . وقد وصلت اخبار هذه القصة إلى بطرس الذى ادرك ان مدينة الاسكندرية خالية من الحراسات . وعلى ذلك قرر الاستيلاء عليها عنوة (٣) .

السبب الرابع : شن بعض القراصنة المسيحيين غارة بالقرب من رشيد انتهت

(١) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٩٢ وما يليها .

(٢) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٩٦ - ٩٧ .

(٣) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٩٧ وما يليها .

بأمر عدد من المسلمين وفرار المغيرين . وكانت هذه الغارة دليلا آخر  
شجع بطرس كثيرا على مهاجمة الاسكندرية (١) .

السبب الخامس : في ٢٧ شعبان ٧٦٤ هـ (١١ يونيو ١٣٦٣ م) رست ثلاث  
سفن تحمل مائة من الجنود المسلحين عند شاطئ أبي قير من ضواحي  
الاسكندرية . وقبضوا على ستة وستين رجلا وامرأة وطفلا من المسلمين ،  
ثم فروا بهم إلى صيدا حيث اطلق سراحهم بعد أن افتداهم المسلمون . وقد  
عززت هذه الحادثة ، مرة اخرى موقف الحاكم القبرصي بالنسبة لمشروعه  
ضد الاسكندرية (٢) .

السبب السادس : اعقب تلك الغارة الفاشلة التي قامت بها ست سفن على  
أبي قير نفسها ، غارة اخرى على مدينة رشيد الآهلة بالسكان . وبعد رسو  
السفن ، تصدت لها وسائل الدفاع الاسلامي ، وفقد القراصنة ثمانين رجلا من  
رجالهم في هذا الصدام . فكان لابد من الانتقام لهذه الهزيمة ، وكانت فرصتهم  
تتمثل في غزو الاسكندرية (٣) .

السبب السابع : كان من نتيجة المذبحة التي راح ضحيتها البنادقة المقيمون في  
الاسكندرية على ايدي العوام ، ان توثقت صلة البندقية بقبرص ضد مضر .  
ووضعت البندقية اسطولها تحت تصرف بطرس الأول في مشروعه المزمع  
القيام به ضد الاسكندرية . وفي نفس الوقت التقى البابا في روما بثقله إلى جانب  
قبرص ، لجمع الامدادات من الدول الاوربية والامراء الاوروبيين الذين  
شاركوا في غزو الاسكندرية (٤) .

---

(١) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ١٠٣ وما يليها .

(٢) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ١٠٦ - ١٠٧ .

(٣) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ١٠٧ - ١٠٩ .

(٤) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ١٠٩ وما يليها .

ومن خلال عرض انثوري للأسباب وانعكاساتها ، يبدو ان كلا من الجانبين كان لديه نظام للتجسس والاستطلاع ، وان كلامهما كان يتابع الموقف في كل من قبرص والإسكندرية . وقيل ان نائب السلطنة (١) بالمدينة كان قد تلقى تحذيرا من عملائه عن الاستعدادات القائمة في قبرص . ولكن كل ما استطاع القيام به هو تغطية سور المدينة من جهة الباب الأخضر الذى يواجه الميناء الغربى . كما نبه يلبغا الخاسكى مقدم جيوش المماليك فى القاهرة ، ملتصقا ارسال العون والامدادات . ولكن توسلاته لم تجد اذنا صاغية من قبل الادارة المركزية . ثم ان السلطات فى القاهرة لم تكن تتوقع احتمال هجوم خطير تشنه قبرص « على الاسكندرية » . وساد اعتقاد ان بطرس ليست لديه القوة او الشجاعة لتولى اقل العمليات الحربية ضد ممالك مصر . هذا من جهة ، ومن جهة اخرى كان المملك القبرصى على دراية تامة بضعف دفاعات المدينة عن طريق اولئك الذين اخبروه بذلك شخصيا . ويصف المؤلف تلك الدفاعات بأنها كانت تتكون اساسا من مجموعة صغيرة من الجند تبختر خارج اسوار المدينة بسيفها المرصعة بالجواهر ، وعمائمها الحريرية الجلابة وثيابها المعطرة ، ولكن كانت تنقصهم روح القتال الحقيقية (٢) . وحدث ايضا ان نائب السلطان كان متغيبا عن المدينة ، فقد كان حاكمها خليل صلاح الدين بن عرام غائبا عنها بسبب الحج فى ذلك الوقت . وقد بعثت القاهرة بامير غير متمرس يدعى جنغرا ليحل محله (٣) . وفضلا عن ذلك ، ان كاتب الديوان بالإسكندرية ويدعى شمس الدين ابن غراب كان متآمرا

(١) هو وقتذاك زين الدين خالد ، وهو امير غير معروف على ما يبدو . انظر نفس المرجع

ج ٢ ص ١١١ .

(٢) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ١١٤ - ١١٥ .

(٣) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ١٣٠ وما يليها .

مع السلطات القبرصية (١). وفي زحمة تلك الظروف حددت ساعة الصفر عندما يصل فيضان النيل إلى اعلا منسوب له ، وتفصل الدلتا بين الإسكندرية والقاهرة بعد أن تكون قد غمرتها المياه ، بحيث تصبح عملية نقل القوات من الجنوب امرا صعباً متعذراً . وبعبارة أخرى ، فقد كان الموقف كله مهياً للغزوة المزمع القيام بها ، مع احتمالات قوية للنجاح .

ومن هذه النقطة فصاعداً ، يبدو أن ما كتبه النويرى عن تاريخ الحملة الصليبية ينقسم إلى شقين . ففى المقام الاول ، يتميز وصفه كشاهد عيان لما رآه خارج الاسوار على الشاطئ عند مرأى الاسطول المسيحى ، وخطاب اللوم الذى تبع انزال القوات المعادية ، بالوضوح . وكان النويرى هناك ، أيضا ، بين موجات الفارين بعد دخول الاعداء المدينة . وقد ترك لنا وصفا حيا لوضع يائس مضطرب . ثم نجده بعد ذلك يختفى مع الجماهير . اما الشق الثانى الذى اسهم به « فى تسجيل تاريخ الحملة المذكورة » ، فيبدأ بتقرير آخر عن مصير الفارين فيما وراء بوابات المدينة . وبعد ذلك يستأنف وصفه للمشاهد التى رآها عند دخوله المدينة بعد انسحاب المسيحيين منها . اما فيما يتعلق بما حدث بين لحظتى اختفائه من المدينة وظهوره فيها ثانية ، فقد جمع معلومات عنه من شهود عيان آخرين كانوا قد آثروا البقاء داخل اسوارها وبذلك اصبحت الصورة « التى زودنا بها » عن المذبحة واعمال التدمير كاملة غير منقوصة .

ولنتابع بشيء من التفصيل تلك الروايات الممتعة التى تنبض الحياة . فقد اعتقد اهل الاسكندرية فى بادىء الأمر ، ان الاسطول القادم عبارة عن

---

(١) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ١٥٨ .

مجموعة من السفن التجارية الوافدة من البندقية بهدف شراء الفلفل والتوابل كالعتاد . ولذلك اسرعوا إلى الشاطئ ليشاهدوا رسوها ، بينما اختلط الباعة المتجولون وبائعو الطعام مع الجماهير ، يبيعون سلعهم وبضائعهم ، وكانت المساومات لتخفيض الأسعار وفقا للطريقة الشرقية تدوى في كل مكان . ولم يكثر الناس بالكوارث والشبكة الوقوع ، حتى بدأ المسيحيون المسلحون تسليحا كاملا ينزلون بسيوفهم المسلوثة التي استخلموها ضد الجماهير المتفرجة العزل من السلاح . وفي هذه اللحظة اسرعوا يهرولون في اتجاه البوابات طلبا للأمان وراء اسوار المدينة . وزاد الطين والحالة سوءا ، ظهور فصائل الفرسان القليلة العدد ومعها القوات المحلية في محاولة لصد الهجوم . وكانت حالة الاضطراب تفوق حد الوصف . اذ ترك التجار من أهل المدينة بضائعهم وتسحقها خوفا من الخيل فوق الرمال تداس بالاقدام .

وكان النائب الجديد للمدينة « جنفرا » ممزقا بين رأيين ثار حولهما الجدل والنقاش فيما يتعلق بمشكلة الدفاع . واحد الرأي تقدم به تاجر مغربي نصح بأن يصدر النائب اوامره إلى الجند والعوام بالانسحاب من الشاطئ . والقتال من داخل حصون المدينة واستحكاماتها . اما الرأي الآخر فقد وصم ذلك المسلك بالجبن ، واصر على مواجهة العدو مباشرة بالخيول بينه وبين النزول إلى الشاطئ . وانصار هذه النصيحة هم سكان الأربطة في الجبانات المقامة خارج اسوار المدينة الذين لم يكونوا - في الحقيقة - راغبين في التخلي عن احيائهم للعدو . وانحاز جنفرا الذي كانت تعوزه الخبرة إلى رأى الفريق الثانى ، ودفع الثمن غاليا لقراره الذى جانبته الحكمة .

ومن ثم ، ابعدت كتيبة مغربية في محاولة منهورة لإشعال النيران في خطاف تابع للمسيحيين على مقربة من الساحل . ثم منيت فرقة من الفرسان العرب

وعندما وخزت سهام المسيحيين الجياد ، جمحت خائفة وسط الجماهير الهاربة ، الامر الذى زاد من شدة الدمار والحراب . اما جنفرا نفسه فقد جرح فى القتال الذى نشب بعد ذلك ، واضطر إلى التراجع مع الآخرين فارا نحو الباب الأخضر الذى يعرف ايضا بلسم باب البحر طلبا للأمان خلف الأسوار .

ولنستشهد بأمثلة عن تلك الشجاعة الياسة . اذ انبرى جزار يدعى محمد الشريف ، بشراسة ، بساطور المجزرة الذى يتميز بنصله الحاد ، واخذ يعمل القتل فى الأعداء حتى سقط هو نفسه صريعا . كذلك اخترق فقيه يدعى محمد بن الطفال الصفوف المسيحية بسيف مسلول فى محاولة لإعمال القتل فيهم ، ثم وقع شهيدا (١) . وفى جزيرة فاروس دافع حرس رباط « الشيخ محمد » ابن سلام (٢) عن مبناهم الفخم ضد الفرسان المسلحين تاما . وقد تمكنوا من صددهم من فوق سطح المبنى ، ولكنهم ذبحوا أخيرا . وقيل أن دماءهم سالت فى جداول خلال المزاريب ( الميازيب ) . اما اولئك الذين شاهدوا بقايا المذبحة بعد انسحاب المسيحيين ، فقد صعقوا عند رؤية كتل الدم المتجمد التى سدت تلك المزاريب . كما ان جثث الشهداء المذبوحين ظلت على السطح حتى حللتها شمس مصر . ثم جمعت معا ودفنت فى حفرة واحدة خارج الرباط الذى تعرض للسلب والنهب (٣) .

اما الصور التالية فهى تبين عملية تسلق الصليبيين للأسوار ودخولهم

(١) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ١٤٨ - ١٤٩ .

(٢) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ١٥٣ - ١٥٤ . واهب هذا المبنى ثرى من مواطنى المدينة يدعى محمد بن سلام . وقد دمر الصليبيون بابه وشبابيكه المصنوعة من النحاس المشغول ، كما اشموا النيران فى سقفه المزخرف . وقد استعاضها نفس الرجل فى ٧١١ هـ / ١٣٦٩ م ، ولكنه اتى سقف ديوانه بالحجارة حتى لا يتأثر بالنار .

(٣) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ١٥١ .

المدينة . وقد تناولها الكاتب بشكل مفصل واضح . ففي البداية بدت المدينة منيعة لاترام بأسوارها العالية المزوجة وابراجها الحصينة . وفشلت محاولات حرق الباب الاخضر المنيع ، لأن المهاجمين ، لم يستطيعوا الاقتراب منه بنيرانهم . فكانت سهام المدافعين السريعة تصدهم بشكل منتظم اعلا منطقة السور . وفجأة اكتشف العدو جانباً من السور خال من الدفاع بالقرب من الميناء الشرقى . وبمدنا النويرى بتفسير لهذه الثغرة فى الدفاع . ذلك ان رماة السهام الذين تركزوا عند الباب الاخضر حيل بينهم وبين الوصول إلى هذا القسم من السور فوق باب البحر وباب الديوان الذى يطل على الميناء الشرقى بالقرب من برج ضرغام الضرير . وزيادة على ذلك ، فان الوصول الى ذلك الجزء من السور من داخل المدينة ، كان ممكناً فقط من خلال باب الديوان حيث كانت جميع انواع البضائع مكدسة فى انتظار تفريغها . وبذلك كانت منطقة الديوان مغلقة من الداخل للمحافظة على محتوياتها . وبناء على ذلك ، فإن السور فوق البوابات المذكورة اصبح منيعاً من الداخل . وقيل ان اغلاق باب الديوان فى وجه الدفاع كان عملاً من اعمال خيانة شمس الدين بن غراب الذى اتهم فيما بعد بان الملك بطرس «لوسنيان» قد رشاه هو وعامل آخر من عمال المماليك يدعى شمس الدين بن ابي عذية . وحاول الاثنان تبرير فعلتهما بحجة ان فتحة البوابات الداخلية سوف تمكن الاجانب المقيمين «فى الاسكندرية» من نقل البضائع المستحقة الرسوم من الديوان ، وبذلك يسلبون الخزانة من حصيلة الجمارك غير المدفوعة . ويقال ان شمس الدين بن غراب قد دفع حياته فيما بعد ثمناً لهذه الفعلة . فقد تم اعدامه بطريقة وحشية بتوسيطه وعلق قطعتين على الباب «باب رشيد»..

وعلى اية حال ، فإن اكتشاف السور الخالى من الدفاع ، قد اعطى الصليبيين فرصتهم الذهبية . وفى غمرة الفرح بدأوا فى اعداد السلام المفصلة

التي تسلقوا عليها السور بأمان ، بينما اشعل الآخرون النار في باب الديوان . وفي ذهول حملق الناس الذين كانوا على الجانب الآخرين قلعة ضرغام ، وقد استبد بهم اليأس والعجز . وادركوا أن اليوم قد انتهى «في غير صالحهم» . وهبط المسيحيون إلى داخل الديوان ، وفتحوا بابه المحترق على مصراعيه ، وتدفق المهاجمون داخل المدينة .

وكان الدمار الذي اصاب الجانب الاسلامي مخيفا ورهيبا . فقد فسر المواطنون نحو البوابات البرية في محاولة للهرب طلبا للأمان . وقد اعطى النويري وصفا حيا لهذا المشهد ، لانه هو نفسه كان بين الجماهير الهاربة . وبلغ من شدة الزحام بسبب كثافة الجموع المتدفقة عند البوابات البرية ان عددا من الناس آثروا الهبوط الأسرع من الأسوار بواسطة الحبال . فسقط عدد كبير منهم على الارض مابين قتيل وعاجز . وقد حشا احد التجار كل ثروته التي تبلغ ستة آلاف دينار من الذهب في كيس نقود ، ثم انضم إلى الجموع المتزاحمة عبر باب رشيد . وأثناء صراعه من اجل الحياة سقط منه الكيس ، ولم يستطع الانحناء لاستعادته بسبب الضغط الهائل للكتل البشرية التي تطلب النجاة . وحاولت حشود الفارين التي تمكنت من الهرب الالتجاء إلى القرى المجاورة مثل البسلقون والكربون بمدينة البحيرة . ولكن معظمهم تعرض لرعب آخر جديد في الحقول المكشوفة اذ سلبهم ماعهم البدو وقطاع الطرق من القبائل العربية التي تقطن الصحراء الغربية دون رحمة او هوادة .

وعند هذه الواقعة يختفي النويري من مسرح الصراع والمذبحة داخل المدينة . ويحتمل ان يكون قد عاد إلى النوية قريته الاصلية في مصر الوسطى لقضاء فترة من الراحة ثم أثناء هاطرد الصليبيين إلى البحر عندما عاد هو ثانية إلى الاسكندرية . ولانعرف على وجه التحديد تاريخ عودته ليواجه مصر المدينة المفجع ، لكنه لم يستطع ان يمكث بعيدا عنها لفترة طويلة . وعند وصوله بدأ يجمع المعلومات



من أولئك الذين بقوا في المدينة ، وظلوا على قيد الحياة بمعجز بعد الاحتلال المسيحي لها . وان رواياته النابضة بالحياة عن احداث تلك الايام اقليلة تفوق كل وصف وتقدير .

وقد يكون من العبث ان نعدد قائمة مستوفاة تتضمن بيانا بجميع التحف الفنية التي اخذها الصليبيون من المدينة ، او ان نحصى المخازن والنزل التي نهبت ، او ان نعدد المدارس والقصور والمساجد التي احترقت ودمرت . وبالرغم من ذلك ، يمدنا النويرى بمجموعة من القصص والروايات التاريخية التي يجب ان نلخصها هنا لتقدير فداحة تلك الكارثة الفظيعة التي حلست وان كل ماتمكن الغزاة من وضع ايديهم عليه من ذهب وفضة ، وكل ماخف حمله وغلا ثمنه من المعادن الثمينة والنحاس ، وكذلك كل بالات الحرير والأشياء الثمينة كالسجاجيد والاقمشة الغالية والكثير من التوابل والفلفل ، والحاصلات الهندية — كل هذا اخذه الصليبيون إلى أسطولهم . واستخدمت الجمال والخيول والبغال والحمير الموجودة في المدينة في نقل تلك الغنائم الهائلة كما سخرها الرجال والنساء لينضموا هم ايضا إلى تلك الدواب في عملية النقل وعندما تمت السخرة ، صدر الامر بدخولهم في جوف السفن لنقلهم عبر البحر كاسرى وعبيد المستقبل . وفيما يتعلق بالحيوانات ، فمجرد انتهاء مهمتها ولم يعد لها ادنى فائدة بالنسبة لهم ، لان السفن كانت قد بلغت اقصى حمولتها طعنها المحاربون المتدينون بسيوفهم وحراهم كما كسروا عظام ارجلها الرفيعة بمنتهى البساطة لشل حركتها . ثم تركوها اما ميتة او في طريقها للموت في الشمس الحارقة فوق الشاطئ الرملی ، حتى جاء المسلمون فاحرقوا جيفها بعد استعادة المدينة . كما أشعل الصليبيون النيران في المصانع والمخازن ومكاتب الادارة وجميع المباني .

وثمة شاهد عيان كان يراقب الجند وهم في مجموعات من فجوة في حجاب سري ، تحدث إلى النويرى عن الاسلوب الذى أتبعوه في إشعال الحرائق . فقد غطوا البوابات المغلقة بمادة سوداء لطخت بذهان احمر . ومن الصعب اثبت ان كانت تتكون من القطران (القار) والكبريت . وعلى اية حال ، فالامر الهام هو انه عندما مست اللهب هذه الابواب ، اشتعلت على الفور وانهارت تاركة البناء مفتوحا على مصراعيه تحت رحمة العدو . كما قيل لنا ان عصابات أخرى من المسيحيين حملت ايضا معها حلقات غمس في الزيت والقار والزفت والنفط . ثم ثبتت على اطراف السهام واشعلت واطلقت إلى اعلى نحو اسقف المباني الخشبية لتبدأ حرائق أخرى ، بهدف التأكد من إتلاف المكان بصفة نهائية . وكانت بعض المباني آية في الفن ، سواء المنقوشة باليد او المدهونة بالطلاء .

هذا ، ولم يميز الصليبيون بين المنشآت الخاصة بالنجار المسلمين وتلك التى كانت من املك المسيحيين . ومن بين القنادق والنزل التى دمروها ، عدد النويرى تلك التى تخص القطلانيين والجنوية واهالى مرسيليا . كما جردت المساجد والاضرحة من كل عمل فنى يمكن نقله . كذلك هشموا جميع قناديلها الزجاجية المطعمة بالجواهر والاحجار الكريمة ، لانه لم يكن من السهل نقلها . اما البيوت الخاصة ، فقد قامت بالتنقيب فيها بشكل منتظم مجموعات اصغر من تلك العصابات من رماة انسهام . فكانوا يطلبون من سكانها الموجودين فيها كل نفائسهم حتى لا يتعرضوا للموت . وفى هذا لم ينج مسلم او مسيحى قبطى من اهل البلد . ويستشهد النويرى بحادثة خاصة بسيده قبطية كسيحة ابنة قس يدعى جرجس بن فضائل ، كان قما على كنيسة قبطية بجوار منزلها . فلم تستطع حتى علامة الصليب «التي رسمها لهم» ان تعفيها من مضايقة افراد احدى العصابات الذين طلبوا إليها ان تسلمهم كل ذهاب وفضتها . ومع ذلك

فقد حاولت انقاذ الكنيسة من الحريق الذى اشعلوه بتسليمهم الأواني الفضية للأسرار المقدسة مع كل مدخراتها الذهبية .

ويخبرنا النويرى ، ايضا ، ان سبعين سفينة «من السفن الصليبية» قد حملت أكثر من طاقتها من الغنائم ، لدرجة ان الفرنج اضطروا إلى التما جزء من حمولتها فى البحر المتوسط بالقرب من شاطئ أبى قير شرقى الاسكندرية لتفادى غرقها او تقدمها البطىء الذى قد يعرضهم للمطاردين . كما يقول النويرى انه رأى صهاريج الزيت والشهد والزبد الخالص محطمة فى الشوارع لأن الصليبيين لم يستطيعوا حملها معهم . كما انهم تركوا كميات هائلة من التوابل والفلفل التى كانوا قد سحبوها إلى الشاطئ بسبب ضخامة حجمها .

وربما كان المبنى الوحيد الذى لوحظ بقاءه سالما هو الترسانة التى احتوت مخازن الذخيرة وبها ستين ألف سهم ، وكميات هائلة من القسى ، والسيوف والحراب ، والحلل الحربية ، والدروع ، واجهزة المدفعية ، والمواد الملتهبة وجميع انواع المعدات الحربية وآلات الحصار . وحدثت معجزة نجاتها من النهب والتدمير التامين بمحض الصدفة . فقد وقفت مجموعة من الرجال المسلحين عند بابها العظيم للتشاور . ولكن عندما اعتقدوا من مظهره انه قد قد يكون احد ابواب المدينة بسبب حجمه الضخم أكثر من المعتاد وقربه من اسوار المدينة ، قرروا تركه ، ورحلوا عنه دون ان يمسوه بسوء . ولكن جميع المباني الاخرى الخاصة بمصالح الدولة ، بما فيها الديوان ، فقد تركت حطاما خاوية محترقة . ومع ذلك ، فما يدعوا إلى العجب ان عصابات اخرى «من الفرنج» اشعلت النيران فى عدد من الابواب البرية ومن بينها باب سدره وهو خطأ تكتيكي ، اذ زاد من فرص دخول قوات السلطان إلى المدينة القادمة إليها من الجنوب . وربما ظنوا ، عن سخف وغباء ، انه بدون الابواب تصبح

المدينة مفتوحة امامهم عندما يقومون بهجوم جديد . وكان هذا ، بطبيعة الحال املا ذهب أدارج الرياح : لان المصريين اعادوا ترميم الابواب بسرعة . بعد ان زادت يقظتهم وقوى حرصهم . لم يجرؤ المسيحيون اطلاقا على معاودة الكرة .

وعندما دخل جيش السلطان شعبان تلك المدينة ثانية ، اصاب زعماؤه الهلع لما رأوه . فقد كانت جثث المذبوحين والمشوهين من الرجان والنساء والاطفال مبعثرة في الشوارع دون اعتبار للسن أو الجنس . كما دمرت احياء بأكملها . ولم يبق اى مبنى هام ، دون ان يمس سوى الرسالة الخيرية على ما يبدو فبدت المدينة قبرا مفتوحا ، وتعرّ الناس فوق جثث الضحايا من المسلمين ، والمسيحيين واليهود على السواء . وقد يصيب الدوار العقل عندما يدرك ان مثل هذا الدمار الفظيع وتلك المذبحة الجماعية يمكن ان تتم اثناء احتلال دام ثمانية ايام . ولم تكن الاسكندرية قد تعرضت خلال عمرها الطويل لثلث تلك الكوارث والبلايا التي لم تفق منها حتى العصر الحديث .

وبعدنا التوى ببعض التفاصيل الشيقة للمفاوضات التي دارت بين السلطات الاسلامية بعد استعادة المدينة وبين الملك بطرس المنسحب على نفسه ، وذلك قبل ابحاره . وقد اختير لتلك المهمة احد اليهود المقيمين بالاسكندرية وكان يتقن الحديث بلغة الفرنجة . وكان المصريون الفارون قبل ذلك قد ساقوا معهم جميع التجار المسيحيين في المدينة إلى دمنهور عاصمة مديرية البحيرة . لذا ، تقدموا بعرض يقوم على تبادل المسيحيين بأسرى المسلمين على السفن القبرصية . ولكن هذا العرض لم يأت بنتيجة ، وقرر الجيش المسيحى ان يبحر بسرعة باسلابه ومغانمه طلبا للأمان فى عرض البحر .

وبعد عودة الملك بطرس إلى قبرص ، وقد داعبه الامل فى ان سورة

غضب السلطان «المملوكى» قد هدأت ، سعى إلى المفاوضات لإعادة السلام مع مصر . ولكن الجراح التى أصيبت بها البلد كانت عميقة ، لدرجة أنه لم يكن من السهل نسيانها او التغاضى عنها بمثل هذه السرعة . وقد قوبلت المصالحة الملكية الجديدة بالرفض التام من قبل القاهرة . ولذلك لجأ بطرس إلى اتخاذ اجراء عنيف لحد ما بأمل إجبار السلطان على الصلح . إذ جهز اسطولاً صغيراً اغار به اكثر من مرة على طرابلس على الساحل الشامى ، فى نوفمبر ١٣٦٦ ويونيو ١٣٦٧ م ، ثم مرة ثالثة فى سبتمبر من نفس العام ، ولكن دون جدوى . ويقدر النويرى الاسطول القبرصى فى آخر تلك الغارات الحربية بمائة وخمسين سفينة ، متضمنة بعض الشوانى وناقلات الجنند . ووجد المهاجمون ان الاهالى ثابتون وعلى استعداد لملاقاتهم . لذا ، بعد انزال قواتهم ، قرر القبارصة العودة بسرعة إلى سفنهم للبحث عن اراض مكشوفة يهاجمونها ، حيث يمكنهم مفاجئة مسلمين آخرين . وهكذا نجحوا فى نهب طرسوس وتدمير اكوام متراكمة من المواد التى كانت قد اعدت لبناء الشوانى للسلطان . فاشعلوا النيران فى كميات هائلة من الاخشاب والقار وجبال المراكب بينما تخلصوا من المواد غير القابلة للاشتعال كالحديد والمسامير بإلقائها فى البحر ثم توجهوا بعد ذلك نحو ميناء اللاذقية ، ولكنهم ، مرة أخرى ، وجدوا الاهالى على البر على استعداد لملاقاتهم . وقد حالت الرياح والامواج الشديدة وكذلك استحكامات المدينة المنيعه ، بينهم وبين انزال قوات اضافية . وظلت حالة التوتر المستمر قائمة طوال حكم بطرس الاول وحتى مقتله على يد نبلائه الثائرين عليه عام ١٣٦٩ م .

وعلى اية حال ، لم يتحسن الموقف المتدهور بين مصر وقبرص باختفاء الملك العجوز الذى يعتبر الوغد الحقيقى وراء مأساة الاسكندرية . ففى خلال حكم خلفه بطرس الثانى (١٣٦٩ - ١٣٨٢ م) كانت غارات القرصنة ،

سواء الموجهة ضد الشواطىء المملوكية او ضد السفن الاسلامية فى عرض البحر تقابل بغارات مائة من جانب مصر على شواطىء قبرص الجنوبية . وفى ظل هذه الظروف المضطربة توقفت التجارة مع القومونات الاوروبية . وكان على كل من جنوة والبندقية التوسط لاعادة السلام واستئناف تجارتهم مع مصر التى تعود عليها بالمكاسب والارباح . وان قصة إيفاد مبعوثين من قبلها إلى القاهرة لتحقيق سلام مهتز ، قد رواها المؤلف بشيء من التفصيل . ويبدو ، فى واقع الامر ، ان السلطان كان يشجع تلك المحادثات غير الحاسمة لكسب الوقت حتى يتمكن من استكمال بناء اسطول قوى يسحق بغزو تلك المملكة الجزيرة «اى قبرص» اخذا بالتأثر . والظاهر ان النويرى لم يعيش حتى يرى تحقيق هذا الحلم . اذ تحقق ، فعلا ، غزو قبرص فى عهد السلطان «الاشرف» برسباى (١٤٢٢ - ١٤٣٨ م) من دولة المماليك الجديدة البرجية فى حملة مدمرة مضادة . لقد جهز برسباى ثلاث حملات ناجحة ضد قبرص فى اعوام ١٤٢٤ و ١٤٢٥ و ١٤٢٦ م على التوالى ، واثناء الحملة الثالثة نشبت معركة خيروكيتيا فى السهول الجنوبية من الجزيرة . وكان النصر الذى حققه المصريون فى ساحة القتال ساحقا : إذ اسروا ملك قبرص الضعيف المدعو جانوس الثانى Janus II وراستقراطيته ، وحملوهم معهم مكبلين بالاعلال إلى القاهرة . وهذه الطريقة دفع جانوس الثانى الثمن باهظا عقابا للفعلة الشنعاء التى ارتكبتها بطرس الاول ضد الاسكندرية .

وان تطور الاحداث بعد ذلك انما يتعلق بفصل تال بعد انتهاء حياة النويرى وكتابه . لذا يجب متابعتها من حوليات تاريخية متاخرة ، نذكر من بينها «كتاب السلوك» للمقرئى ، وهو اعظم المؤرخين المصريين فى القرن الخامس عشر الميلادى «القرن التاسع الهجرى» .



## الفصل الخامس

### خاتمة

#### تقييم التراث الذى خلفه النويرى

لفترة طويلة ترجع بنا إلى اواخر العصور الوسطى : لم يتمكن قراء «كتاب الإمام» للنويرى من تقدير قيمة ماخلفه لعالم الادب . ويعتبر كتابه ، حسبنا أسلفنا ، بمثابة فيح عطر من المعلومات غير المنسقة اكثر منه مقالة منظمة تعالج مجموعة محددة متصلة من الموضوعات . ولما كانت حرفة النويرى هى نسخ المخطوطات . فلا بد انه قد اطلع على مؤلفات اصلية يصعب حصرها تتناول العديد من الموضوعات . ويمكن فقط القول انه اثناء قيام النويرى بنسخ المخطوطات للتجار السكندريين الاثرياء قد الهبت خياله افكار واجزاء معينة من تلك الاعمال . فعمل على اكتناز مقتطفات منها ليستخدمها كلما واتته الفرصة . وقد حانت تلك الفرصة مع اخطر حادثة فى حياته ، الا وهى الحملة الصليبية المشنومة على الاسكندرية عام ١٣٦٥ م . ولابد ان تلك الحادثة المشنومة قد اثارته لدرجة انه قرر ان يبدأ «كتاب الإمام» كسجل لكل مشاهدته وما سمعه عنها . ولهذا السبب بدأ ينسج نصه حول هذه الواقعة بالذات .

ولم يتناول الموضوع بطريقة مباشرة او مستقيمة . بل كان على هيئة تعليق على مرثاه حول مصير الاسكندرية كتبها شاعر معاصر غير معروف يدعى ابن ابى حجلة . لذا نجد تفاصيل تلك الحملة الصليبية مطمورة فى ثنايا ذلك التعليق . ومما زاد الطين بلة ، انه قرر استخدام حصيلة المقتطفات الهائلة التى استقاها من مخطوطاته بطريقة عشوائية اثناء سرد رواياته ، منتقلا من موضوع إلى آخر ليس له اى علاقة بالفكرة الأصلية سوى كلمة عابرة



او فكرة سطحية لامت الامر الذى يعرضه باية صلة حقيقية . ونتيجة لذلك نجده يتنقل الهوينى من التاريخ إلى الاسطورة ومن التقاليد الاسلامية إلى الفحشاء والكلمات البذيئة ومن الشعر الفصيح إلى القصص الخرافية . ومن الحكمة الزاهدة والعقائد المقدسة إلى الطب الشعبي وحياة النبات والحيوان ، ومن علوم الفلك والجغرافية إلى مهنة ركوب البحر وإلى المعلومات المتعلقة بالآثار ، او حتى الامور التافهة كالااحاجى والالغاز المسلية والاشكال الشعرية الجديدة والنثر الذى يتميز بالصنعة . ولقد كان كل هذا الشتات المختلط المتداخل . هو الذى حال بين القراء الجادين وبين الخوض فى أعماق هذا النص الهائل دون تخطيط واضح او تنظيم موضوعى . وربما يفسر هذا ، فى الحقيقة ، موقف الباحثين الذى يتسم بعدم الاهتمام بهذا الكتاب الذى لم يعن احد بنشره او دراسته دراسة واعية حتى ظهور طبعتنا الحالية .

وعلى اية حال . نظرا لاهتمامنا بالدراسات التى تتعلق بالخروب النصيبية فى القرن الرابع عشر ، لم نجد مفرأ من القيام بعملية تفحص هذا المخطوط الصعب تفحصا يمتاز بالصبر والدقة . هذا ، ويعرف النويرى «نفسه كتابه» «الإمام» تعريفا له مغزاه ، مبينا انه يشتمل على «لمحات» ومن هنا بدأنا نكتشف هذا التراث غير المعروف الذى خلفه النويرى ، والذى تناول الكثير من مجالات المعرفة التى قد تكون فى بعض الاحيان فريدة فى طابعها ونوعها . وليس من المعقول ، فى الواقع ، نشر أجزاء منفصلة من ذلك الكتاب الموسوعى بشكل مستقل قائم بذاته ، والتى قد تضمها نبذا ومقالات تعالج العديد من الامور المستمدة منه . وان نظرة سريعة على المجلد السابع بفهارسه الكبرى الاربعة عشر ، تكشف عن خصوبة وثراء المعارف والمعلومات التى تضمها هذا النص الضخم .

وليس من شك في ان المؤلف قد جمع اعظم مادة اصلية تتميز بقيمتها عن الحملة الصليبية على الاسكندرية من وجهة النظر المصرية . ومع ذلك ، امدنا اثناء محاولته القيام بهذا العمل بالكثير من التفاصيل عن بناء وطبوغرافية وآثار الاسكندرية في العصور الوسطى (١) . وهنا نجد وصفا للمباني والمنشآت الهامة التي تمتاز بهائها وفيها المعمارى الرائع ، قدمه رجل كان قد عاش فيها وعلى معرفة بكل شئ عنها . وكشاهد عيان ايضا ، كان على معرفة بمباني المدينة الاينوستوس Eunestes والباب الكبير Portus Magnus الذى يرجع إلى عصر البطالمة . وعلى هذا كان بوسعه إثراء «المكتبة العربية» بما كتبه عن علم البحار . وان يزود القارئ بأتم مجموعة من المصطلحات العربية الخاصة بمهنة ركوب البحر التي عرف بوجودها في تلك اللغة . إذ استعرض وصف جميع انواع السفن التي تمخر عباب كل من البحر المتوسط والبحر الاحمر والمحيط الهندي والانهار العظيمة القديمة من النيل إلى دجلة والفرات (٢) . وهنا تعرض ايضا للعلوم الجغرافية التي اسهم فيها اسهاما شخصيا . ومما يدعو إلى الدهشة معرفته بكروية الارض ، تلك المعرفة التي لا بد أن يكون قد ورثها عن الجغرافيين العرب السابقين قبل ان تظهر هذه الفكرة في اوروبا في اواخر القرن الخامس عشر الميلادى «اواخر القرن التاسع الهجرى» . ومما يدعو إلى الاعجاب ، ايضا ، وصفه لعواصم اوروبا ، وحصره للقلاع الاسبانية ، وذكره للحجزر والانهار والجبال والبراكين وغيرها من العلامات الجغرافية المميزة (٣) .

وبين ثنايا رواياته عن المعارك الاسلامية المبكرة والمتأخرة ، يحفظ لنا

---

(١) انظر الإمام ، ج ٧ ، الفهرس السادس .

(٢) نفس المرجع ، الفهرس السابع .

(٣) نفس المرجع ، الفهرسان الأول والثاني .

الكثير من المعلومات الاساسية التى سوف تعين الباحث على توضيح الغموض الذى يشوب تاريخ فن الحرب والقتال الاسلامى (١). وقد اعددنا له ولكل الموضوعات سالفة الذكر ، فهارس خاصة نستطيع من خلالها تقدير قيمة ما خلفه النويرى من معلومات لم تكن معروفة من قبل . ووجدنا انه من الضرورى تعريف وتوضيح مصطلحاته ، مع تحديد الاماكن او التعريف بها فى الهوامش السفلية . ونجحنا الى حد ما ، ولم يحالفنا التوفيق فى بعض الاحيان فى إيجاد حلول للمشاكل «التى واجهتنا» والتى نترك بعضها للباحثين المتخصصين فى المستقبل .

اما فى مجال الفقه والشريعة الاسلامية ، فلم يصف النويرى سوى القليل واحيانا لا يضيف شيئا الى ادب الفقه القائم العظيم . وربما كانت المسألة الوحيدة الجديرة بالذكر هنا هى اقتباسه لكثير من الاحاديث التى يبدوا انها احاديث غير صحيحة بالرغم من إدعائه صحة نسبتها (٢). ويحتاج هذا الموضوع لمزيد من البحث فى المستقبل .

كذلك ابدى النويرى فى عالم الادب اهتماما كبيرا باقتباس القصص القديمة ، والشعر القديم المعروف ولكن اسهامه الحقيقى يكمن فى اقتباسه من شعر عصره بالذات . ومع ذلك ، فإن هذه الناحية التى ادلى فيها بدلوه تفشل فى أن تعكس روعة العصر الذهبى للادب العربى . وبالرغم من كل ذلك ، فهى تزودنا بمناذج لها وزنها تمثل خير تمثيل تأليف القرن الرابع عشر الميلادى «القرن الثامن الهجرى» . وجانب كبير من هذا الشعر يصور حادثة معاصرة او تمتدح شخصية معروفة او يرثى حادثة اليمه مثل الحملة الصليبية على الاسكندرية . ويعتبر النويرى نفسه فى الحقيقة شاعرا له مكانته . وتظهر

---

(١) نفس المرجع ، الفهرس الثامن .

(٢) نفس المرجع ، الفهرس الخامس .

قصائده في «ثنايا» عدة مجلدات «من الإمام» . وهي ليست رائعة في طابعها ، ولكنها قد تساعد كوثائق تاريخية فيما يتعلق بأحداث عصره (١) .

ويستخدم النويرى الاسلوب الايقاعى الموزون . ولذلك تبدو الصنعة والتكلف بوضوح في محاولة المؤلف إيجاد القافية المطلوبة باى وسيلة . وكثيرا ماتصبح هذه المسألة عقبة لاستحق الاطراء . وان التناقض العجيب فى اسلوبه يبدو فى استخدامه العبارات الدراجة وانحرافه عن ابسط قواعد النحو والصرف مما يصعب معه الموازنة بينها وبين «معرفة اطلاقه فى مجال الأدب . فهل من الجائز ان يكون نساخ «كتاب الإمام» هم المرتكبين الحقيقيين لهذا الخطأ ، فشوهوا بذلك المخطوط الاصلى الذى يتضمن النص بخط المؤلف ؟ وسوف يظل هذا التساؤل قائما لانه من الصعوبة بمكان ان نجد له جوابا شافيا .

وليس بوسعنا إخفاء دهشتنا بالنسبة للموضوعات المختلفة المتنوعة التى جمعها النويرى بمحض الصدفة وبتخطيط متواضع . ومع ذلك ، فإن ثمرات جهوده الشاقة عبارة عن خليط غير مترابط من المعلومات التى جمعها بحكم خبرته كشاهد عيان «لأحداث ذلك الزمان» وبالرغم من كل المأخذ التى تؤخذ على كتابه ونواحى القصور فيه ، فقد تمتع النويرى بكافة الصفات التى تؤهله ليكون احد مصنفى الموسوعات السكندريين فى القرن الرابع عشر الميلادى «القرن الثامن الهجرى» .



. البحث السادس

أنشودة رولان

قيمتها التاريخية ، وما أثر حولها من جدل ونقاش

هذا البحث ينشر للمرة الأولى في هذا الكتاب



## أنشودة رولان

قيمتها التاريخية ، وما أثير حولها من جدل ونقاش

مقدمة :

تعتبر أنشودة رولان من أهم النسخ الغنائية الشعبية التي عرفها العصر الأوروبي الوسيط ، إن لم تكن أقدمها على الإطلاق . وهي ، في ذات الوقت أفضلها وأشهرها من وجهة النظر التاريخية (١) . وتدور حوادثها - كما هو معروف - في عصر الإمبراطور شارلمان (٧٦٨ - ٨١٤ م) ، الذي يتغنى المؤلف بعظمته وبطولته في حروبه ضد العرب في إسبانيا . كما يتعرض لبسالة رجاله في ميدان القتال ، وتضحياتهم لتحقيق مثلهم العليا التي تلخص في كلمتين اثنتين هما : الدين والحرب . فقد كانت تلك الأنشودة تمثل روح العالم الغربي الوسيط والأفكار السائدة فيه تمثيلا صادقا في هاتين الناحيتين . الناحية الأولى أوحى بها منذ البداية الديانة المسيحية التي أصبحت من الصق الأشياء بحياة الناس الخاصة والعامة في ذلك الحين . أما الحرب ، فقد كانت صناعة الفارس الأولى يبرز فيها ما تعلمه من فنون القتال ، وهي تقترن بقيام النظام الاقطاعي وما يلحقه من نظم كالفرسية . وعلى هذا ، فالأنشودة تمثل عقلية العصر الوسيط خير تمثيل (٢) .

وقد انتشر هذا النوع من الأناشيد في المجتمع الغربي الوسيط ، وبصفة خاصة في فترة الحروب الصليبية ، ولقى الشيوخ والرواج من كافة الأجناس والفئات والطوائف والطبقات . وهو ما يعرف باسم «أغاني المآثر» Chansons



«de Geste» وهي عديدة ، وقد وضعت خلال القرون الحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر الميلادية ؛ وتلور حول شخصيات رئيسية ثلاث هي : شخصية شارلمان ، وشخصية وليم اورانج Guillaume d'Orange ، وشخصية رينوه دى متوبان Renaud de Montauban . وكان المؤلف فى مثل تلك الأناشيد يستغل بعض الشخصيات او الأحداث التاريخية ، حيث ينسج حولها قصصا اسطورية تستهدف تمجيد البطولة ، فى عصر كان مهيا لقبول مثل هذا النوع من الملاحم (٣) .

ومن أهم القصائد التى تدور حول شارلمان ، «قصيدة حج شارلمان» «Le Pélerinage de Charlemagne» ، و«أنشودة رولان» ،

«La Chanson de Roland» موضوع هذه الدراسة .

وعلى الرغم من الدراسات القيمة التى ظهرت عن هذه الأنشودة ، وعلى الرغم من انه لا يخلو مرجع من مراجع التاريخ الأوروبى الوسيط من الإشارة إليها ولو فى بضعة أسطر - إلا انها ، مع ذلك ، لاتزال تحتل العديد مسن البحوث الجادة التى تعالج بعض القضايا والمسائل التى تمت بصلة لها ، والتى لم تتل بعد حظها الكافى من التمهيص ، او التى لم تدرس من قبل ، بهدف الوصول إلى نتائج واضحة محددة . ومن هذه القضايا - على سبيل المثال - تاريخ اكتشاف اقدم نسخة خطية للأنشودة ، واللغة التى كتبت بها ، وطبيعة العصر الذى دونت فيه ومدى انعكاسه على الأنشودة ، وبكلمة اخرى دراسة الأنشودة باعتبارها مرآة تعكس ظروف الغرب الأوروبى وقتها . ومنها ، ايضا الآراء التى اثبتت حول التاريخ الذى كتبت فيه ، ومؤلفها ، ومكانها بين الأسطورة والتاريخ ، والحقيقة التاريخية فيها كما وردت فى الأصول القديمة

من غربية وعربية ، والشخصيات والأماكن الجغرافية الواردة فيها ومندى نصيبها من الصحة ، والأضواء التي سلطت أخيراً عليها وما تمخضت عنه من نتائج . كل هذه وغيرها قضايا هامة لا تزال تحتل بحوثاً متأنية متعمقة فاحصة مدققة للأنشودة بما تضمنته من آراء وافكار قد تعين على الكشف عن قيمتها من وجهة النظر التاريخية باعتبارها ملحمة أدبية شعبية تحكى قصص البطولة وتمجدها في عصر كان يشجع مثل هذا النوع من الملاحم . وقد تناولنا كل هذه الموضوعات بالدراسة في هذا البحث ، بعد ان مهدنا لها بملخص مركز للأنشودة . واختتمناها بعرض اهم طبعاتها وترجماتها باللغات الأوروبية الحديثة .

#### ملخص الأنشودة :

تعتبر الأنشودة من النماذج الأولى للأدب الفرنسى الشعبى الوسيط ، إن لم تكن أول ما وصل إلينا مدوناً في ذلك التاريخ المبكر . وهى تتألف من ٤٠٠٢ بيت من الشعر يصلح للإلقاء أكثر منه للغناء . وتتميز ببنائها الواضح المحكم ، وبتماسكها وترباطها . وتنقسم إلى ثلاثة أقسام رئيسية هى : « الحيانة » ، « والكارثة » ، أو « موت رولان » ، « والعقاب » ، أو « حكم الله » ، (٤) .

وخلاصة القسم الأول الذى يسمى « الحيانة » ، ان الإمبراطور شارلمان كان يقاتل في إسبانيا قتالاً لا هوادة فيه بقصد ضمها إلى أملاكه ، وانه تمكن بعد سبع سنوات من الحروب المتواصلة من الاستيلاء عليها ، باستثناء مدينة سرقسطة التى كان يحكمها ملك يسمى مارسيل . ولما أدرك مارسيل ان بلاده واقعة لا محالة في قبضة شارلمان ، حاول إبعاده عنها بشتى الطرق . فبعث إليه برسول يحمل عدة مقترحات يقصد المراوغة وكسب الوقت والخداع ، حتى

فصله النجدة التي كان قد بعث في طلبها من الدولة الإسلامية في الجنوب الإسباني . وقد قبل الإمبراطور الدخول في مفاوضات مع ملك سرقسطة . وأوفد إليه لهذا الغرض ، بناء على اقتراح قائده رولان ، أحد رجاله وهو الكونت جانيلون . ووافق الأخير على القيام بهذه المهمة . رغم اعتقاده ان رولان هو الذي أوحى إلى شارلمان بذلك للتخلص منه . واتخذ جانيلون طريقه إلى سرقسطة مع رسول مارسيل ، وقد دبر خطة بقصد الانتقام من رولان . إذ أخبر مارسيل ان شارلمان سيوفد جيشا للاستيلاء على المدينة عنوة ، وان رولان سيكون في مؤخرته . واتفق معه انه حينما يتقدم هذا الجيش ، ينقض العرب الذين سيحضرون لمساعدته على المؤخرة التي يقودها رولان ويقضون عليه ، وبذلك يكون قد تخلص منه .

بعد ذلك يبدأ القسم الثاني من الأنشودة الذي يسمى «الكارثة» أو «موت رولان» . وفيه يقبل شارلمان اقتراح جانيلون بوضع رولان في مؤخرة الجيش المهاجم مع عدد من كبار رجالات فرنسا وفرنساها ، ومنهم أوليفيه صديق رولان الحميم ، وتوجه الجيش الفرنجي للاستيلاء على سرقسطة . وعندما ابتعد شارلمان عن ساحة القتال . هاجمه جيش مارسيل والنجدة العربية التي كان قد بعث في طلبها . ونظرا لأن العرب كانوا يتفوقون على الفرنجة في العدة ويفوقونهم في العدد ، فقد الحقوا بهم هزائم شديدة . وظل القتال دائر بين الطرفين حتى أصبح رولان يحارب هو وقلة من الجيش . وعندما ألح عليه صديقه أوليفيه في طلب النجدة من شارلمان بالنفخ في البوق طبقا للعادة المتبعة ، رفض رولان بإباء وثقة قائلا إنه لا يلبق بالفارس الشهم ان يستغيث طالما بوسعه القتال وحتى آخر رمق من حياته . وهكذا نشبت معركة عنيفة بين الفريقين حاول الفرنجة دفعها بكل ما أوتوا من قوة ، حيث صورهم مؤلف الأنشودة بأنهم ابطال . وعندما طلب أوليفيه من رولان الاستنجاد بشارلمان ، رفض للمرة الثانية

مرددا نفس الإجابة . ولكن لما اتضح لرولان ورفاقه انهم هالكون لاجالة ، قبل رولان طلب النجدة من شارلمان ، ونفخ في نفيه مستغثا به . وقد بادر الإمبراطور ، عندما وصل إلى مسامعه صدى النفي ، إلى نجدة . ولكنه وصل متأخرا ، إذ كان العرب قد قضوا على رولان وجيشه في المعركة المعروفة باسم رنسفالة Roncevaux ، نسبة إلى المكان الذي شهد مسرح العمليات العسكرية .

واما القسم الثالث والأخير من الأنشودة فهو ،،العقاب،، أو ،،حكم الله،، وفيه يقول المؤلف إن شارلمان هاجم العرب في إسبانيا ، والحق بجيوشهم الهزيمة ، ومات الملك مارسيل ، وسقطت مدينة سرقسطة . وقفل شارلمان عائدا إلى عاصمته اكس حيث بادر بعقد مجلس لحاكمة الخائن جانيلون . واتبع في محاكمته الأسلوب المعروف في العصور الوسطى باسم ،،حكم الله،، . وأدين جانيلون واعدم كما يعدم الخونة ، وذلك بأن أوثقت اطرافه في ارجل أربعة جياذ سريعة قوية ، يجرى كل منها في اتجاه مغاير حتى تمزق إربا . وهكذا دفع ثمن خيائته (٥) .

تاريخ اكتشاف الأنشودة :

في عام ١٨٣٢ م وفق عالم شاب يدعى هنري مونا H. Monin في العثور على مخطوطة تحتفظ بها المكتبة الملكية الفرنسية تحمل اسم ،،انشودة رولان،، ، وكان الاعتقاد السائد وقتها ان النص الأصلي لما قد فقد إلى الأبد . ومنذ ذلك الحين بدأ الاهتمام يتزايد بهذه الأنشودة . وفي عام ١٨٣٧ م اصدر المؤرخ فرنسيس ميشيل F. Michel الطبعة الأولى لها ، معتمدا على نسخة خطية أخرى للأنشودة كانت تحتفظ بها مكتبة بودليان باكسفورد بالانجلترا يرجع تاريخها إلى عام ١١٧٠ م . وبعد ذلك مباشرة تم اكتشاف نسخ خطية أخرى لها في

البندقية ، وفرساي ، وليون ، وكامبريدج . ولكن الرأى المتفق عليه الآن ان نسخة اكسفورد هي أكثرها ثقة ، وهي التى اعتمد عليها معظم من نشروا الأنشودة أو مقتطفات منها ، ونقلوها إلى اللغات الأوروبية الحديثة ، وبخاصة اللغة الفرنسية (٦) .

اللغة التى كتبت بها الأنشودة :

لقد كتبت الأنشودة ، اصلا ، باللغة الفرنسية القديمة التى كانت سائدة فى شمال فرنسا وقتذاك . ذلك ان سكان فرنسا لم يكونوا كلهم يتكلمون الفرنسية . فقد كان للجنوب لفته الخاصة المشتقة من اللاتينية ، وهى اللغة البروفانسية نسبة إلى مقاطعة بروفانس . بينما كان شرق فرنسا يتحدث الألمانية ، والشمال الغربى يتكلم البريتانية نسبة إلى مقاطعة بريتانى الفرنسية . وقد أصبحت لغة الشمال ، فيما بعد ، هى لغة فرنسا كلها ، عندما أصبح الشمال هو مركز القوة السياسية ومقر الملكية الفرنسية (٧) .

وحتى العصر الذى كتبت فيه الأنشودة كانت اللغة الفرنسية لغة حديث ولم تستعمل فى الكتابة إلا نادرا . إذ كانت اللاتينية فى ذلك الحين ، وطوال العصر الوسيط ، هى لغة العلم والأدب ، ليس فى فرنسا فقط وإنما فى الغرب الأوروبى كله . لقد كانت اللغة الرسمية الدولية الأولى فى الغرب ، فقد كانت لغة الكنيسة والبابوية ، كما كانت مقصورة على رجال الطبقة المثقفة الذين كانوا يكتبونها ويتحدثون بها . ولم تصبح اللغات الوطنية القومية لغات ادبية تستخدمها مختلف الدول فى الغرب فى تسجيل تراثها التاريخى والأدبى ، إلا اعتبارا من القرن الثانى عشر .

العصر الذى دونت فيه الأنشودة :

وإذا عدنا إلى العصر الذى دونت فيه أنشودة رولان ، وهوب كماسترى -

واخر القرن الحادى عشر أو اوائل القرن الثانى عشر ، نجد أنه لا يمكن مقارنته بالعصر السابق له أو الذى لحقه . فقد كان الغرب فى الفترة السابقة للأشودة يعيش فى ظلام دامس ، لم يقدر للعلوم والآداب والفنون أن تتعش فى ظله . اما بالنسبة للقرن اللاحق لها ، فقد قامت فيه النهضة العلمية والأدبية التى مهدت لعصر النهضة ، الذى مهد بدوره للعصر الحديث ومدنيته الزاهرة .

كان يحكم فرنسا زمن الأشودة الملك فيليب الأول (١٠٦٠-١١٠٨م) . وكانت البابوية قد أصدرت ضده قرار الحرمان الكنسى لعلاقته غير المشروعة مع خليعة له تدعى برترادى متفرت *Bertrade de Montfort* . ولذا السبب لم يشترك بشخصه فى الحملة الصليبية الأولى . كما اخفق فى حروبه ضد الإقطاعيين بهدف توسيع رقعة الدومين الملكى على حسابهم ، وبصفة خاصة وليم دوق نورمانديا الذى أصبح ملكا على إنجلترا . وفى عام ١٠٦٠ م قام النورمان بقيادة زعيمهم روبرت جويسكار *Robert Guiscard* بغزو جنوب إيطاليا الذى كان فى حوزة الدولة البيزنطية وقتها . وقد ترتب على ذلك ازدياد هوة العداء . البغضاء بين أهل الغرب اللاتينى بعامة والنورمان بخاصة وبين البيزنطيين فى العقود التالية . وانعكس ذلك على طبيعة العلاقات بين الطرفين عندما انتقيا وجهها لوجه اثناء الحملة الصليبية الأولى . وفى عام ١٠٦٣ م لى فرسان مقاطعات نورمانديا وبرجنديا وبروفانس بفرنسا استغاثة مملكة اراجون المسيحية فى شمال إسبانيا ضد المسلمين . وكان هذا يعنى تشكيل أحلاف لاتينية غربية ضد مسلمى إسبانيا ، لقيت التشجيع والتأييد من كل من ديرية كلوفى وبابوية روما .

وفى عام ١٠٦٦ م قام وليم الفاتح دوق نورمانديا بغزو إنجلترا ، الذى يرتبط بمعركة هاستنجز *Hastings* الشهيرة . وهذا يكشف عن تطلعات

النورمان وأطماعهم ليس في الغرب الأوروبي فقط ، وإنما في كل من الدولة البيزنطية والمشرق الإسلامي أيضا ، وهو ماسوف تؤكدُه السنوات القليلة التي أعقبت ذلك التاريخ .

وتتابع الأحداث سراعا . ففي عام ١٠٧٨ م قاد هيو الأول دوق برجنديا حملته ضد البرتغال . وفيما بين عامي ١٠٧٢ و ١٠٨٥ م أحرز القونسو السادس ملك قشتالة بعض الانتصارات على حساب المسلمين في الأندلس . وكان يجلس على الكرسي البابوي في روما ، فيما بين عامي ١٠٧٣ و ١٠٨٥ م البابا جريجورى السابع الذى بدأت في عهده أولى مراحل الصراع العلماني بين البابوية والإمبراطورية حول المسائل العلمانية ، كل منهما تسعى لبسط نفوذها وسيطرتها على الغرب ، ذلك الصراع الذى عانت منه المسيحية الغربية الأمرين والذى حال بين جريجورى وبين تحقيق حلمه في توجيه حملة عسكرية إلى الشرق الإسلامي لمساعدة بيزنطة ضد الأتراك السلاجقة . وخلال بابويته ، وعلى وجه التحديد في عام ١٠٨٥ م تمكنت الإمارات المسيحية في شمال إسبانيا ، وهى ليون وقشتالة وارجون ونافار ، والتي كانت تلقى المساعدة والتأييد من الغرب ، وبخاصة من مقاطعتي برجنديا ولانجويدوق بفرنسا ، من الاستيلاء على طليطلة .

ولم تمض سنوات حتى تربيع على عرش البابوية بابا لايقل مقدرة عن جريجورى ، هو مستشاره وتلميذه الروحي اربان الثانى (١٠٨٨ - ١٠٩٩م) الذى أعلن في مؤتمر كليرمون الكنسى بجنوب فرنسا في السابع والعشرين من نوفمبر من عام ١٠٩٥ ، بداية الحركة الصليبية التي اكتوى العالم العربى الإسلامى بنارها طوال ثلاثة قرون من الزمان . ولم تمض سنوات معدودات على بداية الحملة الأولى حتى تمكن الصليبيون من الاستيلاء على مدينة بيت المقدس ، وتأسيس مملكة لاتينية بها ، ظلت بأيديهم إلى أن انتزعها منهم في بداية الأمر

صلاح الدين الأيوبي ، ثم في المرة الأخيرة الصالح نجم الدين أيوب .  
وفي ذلك الوقت كان الحكم في فرنسا قد انتقل بعد موت  
فيليب الأول إلى لويس السادس (١١٠٨ - ١١٣٧ م) ، وتجدد الصراع بينه  
وبين الإقطاعيين ، وبصفة خاصة تيبود الرابع Thibaud IV كونت شامبانيا  
وبلوا وهنرى الأول ملك إنجلترا ودوق نورمانديا .

وخلال تلك الفترة من الزمن كانت البابوية قد تثبتت دعائمها وتأصلت  
جذورها ، واصبحت تتحكم في مصائر الناس ومقدراتهم ، وفي حياتهم  
الخاصة والعامة ، لها الأمر والنهى وعلى الجميع السمع والطاعة . ودخلت  
أولى مراحل صراعها ضد الإمبراطورية ، والتي انتهت بانتصار  
البابوية وإذلال الإمبراطورية في شخص هنرى الرابع فى حادثة كانوسا  
فى يناير ١٠٧٧ م ، تلك الحادثة التى تركت بصماتها على تاريخ الكنيسة ،  
والبابوية بخاصة ، وتاريخ أوروبا الوسيط بصفة عامة . ولم يبق أمام البابوات  
سوى مواصلة السياسة التى كان قد رسمها لهم مؤسس البابوية جريجورى الكبير  
فى أواخر القرن السادس الميلادى ، فيما يتعلق باستقلال البابوية دينيا ودنيويا  
على حساب الحكام والأمراء العلمانيين فى الغرب ، بل وعلى حساب الدولة  
البيزنطية فى الشرق أيضا .

وفى نفس هذا الوقت كان النظام الإقطاعى فى الغرب قد بلغ ذروة نضجه  
واكتماله ، وأخذ الهرم الإقطاعى شكله المعروف من حيث طبقاته الأفقية ،  
على قمته الإمبراطور الذى يحكم من الناحية الزمنية ، يتلوهُ الملوك الذين يدينون  
له بالواجبات نظير الحقوق التى اكتسبها نظريا على ممالكهم ، لأن كل مملكة  
إنما هى فى العرف الإقطاعى إقطاع من قبل الإمبراطور . ثم تأتى طبقة كبار  
النبلاء الخاضعين لسلطان أولئك الملوك ، فالبارونات فالفرسان . وهكذا نجد  
طبقة فوق أخرى تتسع دائرة كل منها كلما نزلنا إلى أسفل الهرم . ويدعى



أفراد كل طبقة لمن هم فوقهم بواجبات وفروض معينة عرفت بواجبات التبعية الإقطاعية . كما أن هؤلاء امتيازات وحقوق على غيرهم من هم دونهم إلى أن نصل إلى قاع ذلك الهرم حيث طبقة رقيق الأرض التي كان أفرادها يتبعون من فوقهم وليس لهم من متبعين دونهم . وكانت الحروب الإقطاعية في عصر الأنشودة لاتزال قائمة بين كبار رجال الإقطاع ، يبرزون فيها ماتعملوه من فنون القتال . وكانت الحروب الصليبية التي لاتزال في بدايتها تصادف هوى في نفوس أولئك الإقطاعيين (٨) وهي التي وجدوا فيها امتدادا للحروب التوسع الإقطاعي التي ألفوها .

تلك هي الحال التي كان عليها الغرب الأوروبي وقت تدوين الأنشودة . صراعات ومنازعات وحروب تكاد لاتنقطع ، وتغييرات سياسية وإجماعية واقتصادية خطيرة ، وأحداث سريعة متلاحقة ، وأنفاس لاهثة تكاد لاتتوقف . كان مسرحا عجيبا للفوضى والاضطرابات التي شملت شتى مرافق الحياة . ومنع ذلك فإن هذا العصر ، بكل مافيه من غليان ، لم يصل في حلته إلى ظلام القرون السابقة ، كما أنه لم يبلغ في تقدمه وأستقراره ما بلغه الغرب في القرون اللاحقة التي شهدت عصر النهضة الأوروبية . وجدير بالذكر أن هذه الأوضاع القلقة لم تترك مجالا للناس للتأمل والانتاج الأدبي الرفيع . وقد انعكس هذا على الأنشودة نفسها . كما كانت الأنشودة — بدورها — مرآة صافية أنعكست عليها ظروف الغرب وقتها .

التاريخ الذي كتبت فيه الأنشودة :

أختلفت آراء الكتاب والمؤرخين الحديثين في هذا الصدد أختلافا بينا . وهناك نظريات عديدة حول تاريخ كتابة الأنشودة ، نجمل أهمها فيما يلي :

### النظرية الأولى :

يرى فريق من الباحثين أن الأساطير وملاحم البطولة تنبثق عادة من مشاعر الشعب وأحاسيسه وانفعالاته في شكل أغان قصيرة . وكان الفرنسيون والألمان يشيدون برجالهم وأبطالهم في حياتهم وبعد مماتهم ، لما أدوه من جلائل الأعمال أو لانتصاراتهم في الحروب ، ويسجلون ذلك في أغان قصيرة . وأنه على هذا الأساس نشأت الأنشودة وتطورت مع الزمن حتى اتخذت شكلها النهائي في القرن الحادى عشر أو القرن الثانى عشر للميلاد .

### النظرية الثانية :

ويرى فريق آخر من المؤرخين . وعلى رأسه جاستون باريس G. Paris وجوستاف لانسون G. Lanson (٩) ، أن الأنشودة من أصل جرماني يرجع تاريخها إلى عصر الأسرة الميروفنجية . ويرفض غالبية الكتاب الأخذ بهذا الرأى .

### النظرية الثالثة :

يرى أحد المؤرخين الفرنسيين الحديثين ، وهو جوزيف بدييه J. Bédier أن الأنشودة فرنسية الأصل قامت على أساس أسطورة وضعت بعد الأحداث الحقيقية للقصة بوقت غير قصير . وأنها استلهمت أفكار الدين والفروسيية التى ظهرت بوضوح في أواخر القرن الحادى عشر لإثارة الناس للقيام بالحرارة الصليبية .

### النظرية الرابعة :

وقد نادى بها المؤرخ الإنجليزي ولیم مالمسبرى William Malmesbery الذى عاش في القرن الثانى عشر ، ووضع كتابا باسم " أعمال ملوك إنجلترا " . وقال فيه إن جنود ولیم الفاتح النورماندى الذى غزا إنجلترا سنة ١٠٦٦ م ، كانوا يتغنون بهذه الأنشودة قبل موقعة هاستنجز التى مهدت السبل للاستيلاء

على الجزيرة البريطانية . ويستطرد قائلا إن الأنشودة على هذا الأساس تكونت خلال النصف الأولى من القرن الحادى عشر .

النظرية الخامسة :

حاول فريق من المؤرخين تحديد تاريخ الأغنية عن طريق دراسة العقلية والأفكار والمثل العليا التى تبدو من قراءتها . فمن يقرأ الأنشودة يدرك أن جميع أبطالها تخضع تصرفاتهم لفكرتين أساسيتين هما الدين والفروسية . فالأنشودة تتحدث بالتفصيل عن الإقطاع فى ذروة تمامه وكماله ، وعن السادة الإقطاعيين بعد أن أنتظمت حقوقهم وواجباتهم ، ولم يحدث هذا قبل القرن الثانى عشر . فقد كن الإقطاع قبل ذلك التاريخ فى طور التكوين ، ولم تكن قد أتضحت معالمه بعد . ولو كانت الأنشودة قد وضعت فى عصر شارلمان ، مثلا ، أو حتى بعده بقرن أو قرنين من الزمان ، لما تضمنت هذه الأفكار عن الإقطاع فى ذروته . وعلى هذا لا يمكن أن تكون قد وضعت قبل نهاية القرن الحادى عشر ، أو بداية القرن الثانى عشر الميلادى . فضلا عن أن الروح الدينية التى تبدو فى كل سطر من سطورها تقريبا ، والتى تدفع الفارس المقاتل مثل رولان للتضحية بحياته فى سبيل عقيدته ومثله ومبادئه ، لم تبلور إلا خلال القرن الحادى عشر أو بداية القرن الثانى عشر . وتقترب هذه الروح الدينية المتشددة فى الغرب اللاتينى بالحركة الصليبية التى دعت إليها البابوية فى أخريات القرن الحادى عشر . ويخلص هذا الفريق من المؤرخين أن الأنشودة إما وضعت فى أواخر القرن الحادى عشر أو بدايات القرن الثانى عشر .

النظرية السادسة :

يرفض كثير من المؤرخين النظريات السابقة ، ويستبعدون أن تنشأ ، الأسطورة بعد حوالى ثلاثة قرون من قيام الأحداث الحقيقية المتعلقة بها ، دون

أن تكون هناك صلة متربط بينها . ويقول أنصار هذا الفريق إن الهزيمة التي ألحقها العرب بشارلمان تركت اسوأ الأثر في نفسه وفي شعبه ، ولم تفلح الأيام أن تمحوها . فوضعت أنشودة رولان التي أخذ الناس يتناقلونها جيلا بعد جيل عن طريق الرواية الشفوية ، أو عن طريق الشعر القصصى الشعبي الذى لم يدون . وعلى هذا ، فإن الأنشودة التي ظهرت مدونة في أواخر القرن الحادى عشر أو بدايات القرن الثانى عشر ، تستمد أصولها من الأدب الشعبي ومن أحداث تاريخية وقعت في عهد شارلمان (١٠) .

ويزيد المؤرخ الإنجليزي هنرى وليم كارلس ديفز H.W.C. Davis الأمر وضوحا ، فيقول إن هذه الأنشودة كانت معروفة قبل بداية الحروب الصليبية ولكنها دخلت مع بدايتها في مرحلة جديدة . إذ ساد الاعتقاد وقتذاك أن شارلمان نهض من الموت ليقود أول حملة صليبية متجهة إلى الشرق . وقد أستغل الشعراء اللاتين هذه الناحية ، وهم يعرفون جيدا أثرها في النفوس ، في وقت كانت فيه أوروبا تتسم بالتزمّت الشديد في هذه الناحية . ولعلهم وجدوا تشجيعنا وترحيا من البابوية والهيئات الدينية الأخرى في الغرب ، فخرجوا بأسطورة جديدة لعب فيها الخيال دورا كبيرا . إذ صوروا شارلمان في هيئة محارب صليبي في حروب مستمرة ظافرة ضد العرب . ولم يكتفوا بذلك ، بل نسجوا من خيالهم قصة مؤداها أنه حج إلى بيت المقدس وزار القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية والتقى بكبار المسئولين فيها ، وذلك بقصد تعبئة الشعور بين أهل الغرب ضد العرب في الشرق (١١) . وكان من أثر ذلك أن شوها ، الأنشودة الأصلية القديمة بما أدخلوه عليها في أخريات القرن الحادى عشر من آراء وأفكار تحقيقا لغايات معينة (١٢) .

ولعلنا نخلص مما سبق أن أنشودة رولان التي ظهرت في أواخر القرن الحادى عشر أو بدايات القرن الثانى عشر ، هي صورة ممسوخة للقصيدة الأصلية التي

كان الناس يتغنون بها قبل ذلك التاريخ بوقت غير قصير ، وكانوا يتناقلونها شفاهة جيلا بعد جيل إلى أن أخذت شكلها النهائي مع بداية الحركة الصليبية (١٣). وليس من العسير إدراك أنه لم يكن لها أي أثر مباشر أو غير مباشر في قيام تلك الحركة أو حتى في التمهيد لها ، اللهم إلا دورها في إثارة الحماسة والنعرة الدينية لدى اللاتين للعمل على توسيع دائرة نشاطهم بحيث تشمل الشرق العربي إلى جانب شبه الجزيرة الأيبيرية . وقد تفنن الغرب في إبتداع مثل هذه الأساطير التي تركز على تمجيد البطولة والإشادة بها ، والتي لاقت نجاحا كبيرا في ذلك الحين .

مؤلف الأنشودة :

كان الاعتقاد السائد من قبل أن لأنشودة رولان أكثر من مؤلف . ولكن أحدث البحوث التاريخية أثبتت أن لها مؤلف واحد ، بعد أن أستبعدت فكرة وجود أغنية أولية أو ملحمة شعرية أشترك في تدوينها عدد من الشعراء المتعاقبين (١٤). ولم يتسن معرفة أسمه ، وعلى هذا فقد أستخدم على الإشارة إليه بالمؤلف المجهول . كما لم يتسن معرفة شيء عن حياته وسيرته . ولكن إذا أمعنا النظر في أبيات الأنشودة يتضح أنه فرنسي من شمال غربي فرنسا ، ومن مقاطعة نورمانديا أو ضواحيها . حيث يكثر من الإشارة إليها . كذلك تكشف الأغنية أنه من رجال الدين ، وأنه يتميز بثقافة عالية في الأدب اللاتيني وفي علم اللاهوت وأنه عاش فيما بين نهاية القرن الحادى عشر وأوائل القرن الثانى عشر . وبذا يكون قد عاصر بداية الحركة الصليبية . ويعتقد البعض أنه وضع ملحمة فيما بين عامى ١٠٩٥ و ١٠٩٩ م . وبكلمة أوضح في التعبير ، فيما بين إعلان البابا اربان الثانى لبداية الحركة الصليبية في مؤتمر كليرمون وأستيلاء الصليبيين في الحملة الأولى على مدينة بيت المقدس (١٥) . ويستنتج الباحثون في الأدب الفرنسى الوسيط أن هذا المؤلف المجهول كان فنانا بالفطرة . ويستدلون على

ذلك من طريقة عرضه للملحمة ، ومن جدتها وتماسكها ، ومن أسلوب معالجة لأحداثها وتناوله لشخصياتها ، فضلا عن أسلوبها وحوارها (١٦) .

الأنشودة بين الأسطورة والتاريخ :

ثمة تساؤلات تفرض نفسها ملحة في طلب الإجابة عنها . هل يمكن اعتبار الأنشودة من مصادر التاريخ الموثوق بها ؟ وإلى أى حد يمكن الاعتماد عليها والإفادة منها ؟ من الواضح أنها لم تدون بقصد تسجيل أحداث التاريخ مثلما هو الحال بالنسبة للحوليات والمنصادر التاريخية . إذ من الجائز أن يستغل المؤلف الروائي أو القصصى الشخصيات والأحداث التاريخية ليجعل منها مادة تخدم قصته أو قصيدته . فهو ، حينئذ ، لا يتقيد بالحقيقة التاريخية البحتة أو بحرفيتها ، إنما يضمن عليها من خياله ما يجعلها أقرب إلى الأسطورة . وبكلمة أخرى . فهو يستغل قلمه كأديب وليس ك مؤرخ . ولذلك من الخطورة أن نستقى منه معلوماتنا التاريخية . فؤلف أنشودة رولان - على سبيل المثال لا الحصر - يجعل من رولان ابن اخت شارل العجوز البالغ من العمر أكثر من مائتين من السنين . وأعتبر حملة شارلمان في إسبانيا حربا صليبية ، كما جعل من الحركة البسيطة التي قامت بين مسلمي إسبانيا ومؤخرة جيش شارلمان في أواخر القرن الثامن حملة صليبية ، مما لا يتفق والحقيقة التاريخية (١٧) .

وعلى هذا لا يمكن اعتبار الأنشودة من مصادر التاريخ في عصر شارلمان ، وإن كان يمكن الإفادة منها في دراسة بعض نواحي التاريخ التي أهملتها المصادر التاريخية . ذلك أن تلك المصادر ، وبخاصة المعنية بالحقبة الوسيطة من التاريخ لم تكن تهتم إلا بالنواحي السياسية والحربية ، مع الإشادة بأعمال القادة والحكام ، والشخصيات البارزة في المجتمع فحسب ، ولم يكن يعينها الإشارة إلى حياة الشعب . كيف كان يعيش ، وفيما كان يفكر ، وماهى آماله وآلامه وأحلامه . ويرجع ذلك إلى الظروف القائمة وقتها في المجتمع الغربي الوسيط ، من سياسية

اجتماعية واقتصادية وفكرية وغيرها . وعلى ذلك ، فإن الأنشودة يمكن أن تلتقى الضوء على الحياة الاجتماعية في العصر الذي دونت فيه ، مما قد لا نجد في المؤلفات التاريخية من كتب ووثائق وحوليات . ويتفق المؤرخون الحديثون المعنيون بتاريخ العصور الوسطى على أن الملاحم الشعبية التي تناول سير البطولة في تلك العصور وتصف مجتدعه ، تعادل في قيمتها المصادر التاريخية إن لم تتفوق عليها من بعض النواحي . ذلك أنها حفظت لنا ما اهتم التاريخ تسجيله . وبأختصار ، فإن الأنشودة ، على هذا الأساس ، تكشف عن عقلية المجتمع وقتذاك ، كيف كان الناس يعيشون ، وكيف كانوا يقضون اوقات فراغهم ، وماهى وسائل اللهو والتسلية عندهم ، وطبيعة العلاقة بين الأتباع والمتبوعين ، وبين الأفصال وكبار رجال الإقطاع ، بالإضافة إلى بعض المعلومات الطيبة عن النواحي الإدارية ، وعن الفروسية والإقطاع (١٨) .

#### الحقيقة التاريخية في الأنشودة :

أنشودة رولان ، إذن ، بشكلها الذي وصل إلينا ، هي أقرب إلى الأساطير منها إلى الحقيقة التاريخية البحتة . ومع ذلك ، فلا شك فيه أن مصدرها الأساسى حدث تاريخى صحيح (١٩) ، عملت فيه يد التحوير والتعديل لتبعد به عن الحقيقة ولتجعله أقرب إلى الخيال . وأصل الأنشودة أن عبد الرحمن الداخل الأموى تمكن في القرن الثامن الميلادى (القرن الثانى الهجرى) من الاستقلال بجنوب إسبانيا ، وتأسيس دولة هناك منفصلة عن الخلافة العباسية في بغداد . وقد واجه الكثير من المشاكل والصعاب التي أثارها في وجهه الخليفة العباسى أبو جعفر المنصور ، ولكنه نجح في القضاء عليها فيما بين عامى ٧٧٠ و ٧٧٧ م . وما ان تخلص من مضايقات المنصور حتى قامت في وجهه ثورة دبرها امير سرقسطة المسمى سليمان بن يقظان الاعرابى الذى سعى لتحالف ضده مع شارلمان . وترتب على ذلك قيام شارلمان بمحلتين ضد مسلمى الأندلس

فى عامى ٧٧٧ م (١٦٠ هـ) و٧٧٨ م (١٦١ هـ) . وتمكن من التقدم فى البلاد والاستيلاء على عدد من مدنها ، مستغلا الخلافات التى قامت بين أمراء المسلمين . إذ قتل أحد زعمائهم ، ويسمى عبد الرحمن بن حبيب الفهري المعروف بالصقلى ، وتولى قيادة الجيش فى سرقسطة قائد آخر يدعى الحسين بن يحيى الأنصارى الذى رفض تسليم المدينة إلى شارلمان . وأحس الإمبراطور بخرج مركزه ، ووجد أن خير وسيلة هى التراجع عنها . وعند الانسحاب هاجم سكان الجبال الذين يعرفون باسم البشكونس (٢٠) وكانوا يدينون بالمسيحية ويعادون الفرنجة ، مؤخرة جيش شارلمان شارلمان الذى كان يتولى قيادته ثلاثة من رجاله هم اجيهارد Eggihard وانسلم Anaelme ورولان . وقد هزم هذا الجيش ، وقتل رولان فى أغسطس من سنة ٧٧٨ م (٢١) .

وجاء ذكر هذه الأحداث التاريخية فى الحوليات الملكية المعاصرة لشارلمان ، وفى كتاب أجنهاارد Eginhard بلاتينية عن حياة شارلمان ، Vita Karoli الذى وضعه حوالى سنة ٨٣٠ م ، أى بعد وفاة شارلمان بست عشرة سنة ، وقد امدنا بمعلومات أكثر تفصيلا (٢٢) . كذلك وردت هذه الوقائع فى مصادر أخرى متأخرة نسبيا وأقل أهمية (٢٣) .

وجدير بالذكر ان هذه الأحداث التى ورد ذكرها فى الأصول الغربية من معاصرة ومتأخرة . مرت عليها من الكرام فى سطر او بعض سطر او على احسن الفروض فى اسطر معدودات ، بعض المصادر العربية المتأخرة زمنيا عن تلك الأحداث ، ولانجد تفسيراً مقبولا لذلك ، خاصة وأن النصر لم يكن حليف شارلمان . لقد ضنت علينا تلك المصادر بالكثير من المعلومات التى لو كانت قد زودتنا بها لاتاحت لنا فرصة اعطاء صورة دقيقة عن حروب شارلمان فى إسبانيا من وجهة النظر العربية .

وتعتبر اقدم إشارة فى المصادر العربية تلك التى اوردها المؤرخ المجهول



صاحب كتاب «أخبار مجموعة في فتح الأندلس» . وقد عاش هذا المؤرخ في أواخر القرن الرابع الهجري (أواخر القرن العاشر الميلادي) . وتحدث عن ثورة سليمان الأعرابي وحسين بن يحيى الأنصارى ضد عبد الرحمن الداخل ، وأتصال سليمان بشارلمان مما أطمعه في مدينة سرقسطة التي حاول دون جدوى الاستيلاء عليها (٢٤) . واكتفى العذري الذي عاش في أواخر القرن الحامس الهجري (أواخر القرن الحادى عشر الميلادي) بالإشارة إلى الخلافات بين العرب في الأندلس وقتها ، دون التعرض لشارلمان وحملته ضد مسلمي إسبانيا (٢٥) . اما ابن الأثير الذي عاش في القرن السابع الهجري (القرن الثالث عشر الميلادي) ، فقد ردد نفس ماجاء في كتاب المجهول المعنون «أخبار مجموعة» (٢٦) . وتختلف رواية المغربى التلمسانى الذى عاش في القرن العاشر الهجرى (القرن السادس عشر الميلادى) عن رواية المجهول . إذ يقول «وخاطب عبد الرحمن قارلة ملك الإفرنج ، وكان من طغاة الإفرنج بعد أن تمرس به مدة ..... فقال معه إلى المداراة ودعاه إلى المصاهرة والسلم ، فاجابه للسلم ولم تم المصاهرة .» (٢٧) ولعل عبد الرحمن قد بادر بالتفاهم مع شارلمان عندما أدرك اتصال خصميه الأعرابي والأنصارى به . وذلك بقصد تفويت القرصة عليهما . او لعل كلا الفريقين المتصارعين قد اتصلا بشارلمان ، وكان اقوى شخصية في الغرب الاوروبى وقتها ، محاولا كل منهما كسبه إلى جانبه في صراعه ضد خصمه . والمهم أن هذه المعلومات المتبورة المقتضبة الواردة في المصادر العربية المتأخرة ، لاتسعنا برسم صورة متكاملة للاحداث . ولعل العذر الوحيد الذى يمكن ان نلتمسه للمؤرخين العرب أنهم كانوا حديثي العهد بفن التدوين التاريخى . فضلا عن ان طريقة السرد الحولى التى ساروا عليها ، والتي استمرت طوال العصر الإسلامى الوسيط ، لم تساعد على حفظ تسلك الأخبار مجتمعه متكاملة .

ومهما يكن من امر ، فقد اختلف المؤرخون الغربيون الحديثون المعنيون بتاريخ هذه الفترة ، في تقييم معارك شارلمان في إسبانيا وتناجها ، وفي تقدير قيمة الهزيمة الحربية التي لحقت برجاله . فيعتقد البعض انها لم تكن سوى هزيمة لمؤخرة جيشه ، وليس لها اى اثر على الجيش الفرنجى كله . ويرى فريق آخر أنها كانت هزيمة ساحقة ، وأنها تركت اسوأ الأثر في نفوس الفرنجة ظل غالبا باذهانهم فترة طويلة من الزمن . ويستدلون على ذلك من تردد شارلمان وتوخيه الحرص والحذر في حروبه ضد العرب في إسبانيا بعد ذلك التاريخ . هذا ، بينما يرى فريق ثالث أنها مجرد معركة عادية ، وليست حربا فاصلة بالمعنى المفهوم (٢٨) .

ولعله يتضح مما سبق أن الحقيقة التاريخية تختلف اختلافا بينا عن الملحمة الغنائية التي تعتبر اسطورة شعبية من أساطير العصر الوسيط، تروى سير البطولة وتمجدها ، في وقت بلغ فيه الإقطاع ذروة نضجه، بينما بلغت الكنيسة الرومانية في الغرب قمة سطوتها .

الشخصيات والأماكن الجغرافية الواردة في الأنشودة :

يلاحظ ان الشخصيات التي وردت في الأنشودة خيالية اسطورية في معظمها ، بعيدة عن الشخصيات التاريخية الحقيقية . وهناك شخصيات إسلامية وأخرى مسيحية . وتنحصر الشخصيات الإسلامية، تقريبا ، في شخصية مارسيل حاكم سرقسطة ، وبلانكاندран Blancandrin مبعوث العرب لدى شارلمان . وهما من الشخصيات الخرافية التي لا تمت بصلة إلى الأسماء الإسلامية الحقيقية المعروفة التي عاصرت شارلمان والتي احتك بها في حروبه في إسبانيا . فالأسماء الحقيقية المعروفة هي سليمان بن يقظان الأعرابي امير سرقسطة والحسين بن

يجي الأنصارى الذى تولى الأمر بعده ، وهما اللذان احل المؤلف محلهما  
إسم مارسيل . وكذلك عبد الرحمن ابن حبيب وهو احد الذين تزعموا الثورة  
ضد عبد الرحمن الداخل الأموى . وهذه اسماء تاريخية حقيقية ورد ذكرها  
فى المصادر القديمة (٢٩) . وواضح من الأنشودة أن مؤلفها كان مجهل تماما  
احوال المسلمين ودولهم وقتذاك ، وذكر معلومات غير صحيحة عنهم ، شأنه  
شأن المصادر الغربية القديمة . ولكن الخلاف أن المصادر الغربية كانت تروى  
الأسماء الإسلامية محرفة ، وكان هذا أمرا عاديا ومعروفا وقتذاك . ولكن  
بالنسبة للأنشودة ، فليس هناك تحريف فى الأسماء الإسلامية ، ولكنها كلها  
من نسج الخيال . وهى إما أسماء فرنسية أو إسبانية ، وليست على أى حال  
عربية إسلامية . اما الشخصيات المسيحية فبعضها حقيقى والبعض الآخر من  
نسج خيال المؤلف . وأهمها شخصيات شارلمان ، ورولان وهو حاكم إقليم  
بريتانى بفرنسا ، ورئيس الأساقفة تيربان Turpin ، وهى شخصيات حقيقية ،  
واوليفيه ، وجانيلون Ganelon ، وجيران Gérin وجيرييه Gérier ، وهم  
وغيرهم من الشخصيات التى وردت فى الأنشودة من نسج خيال المؤلف .  
وقد أصبحوا من شخصيات الأساطير فى الغرب الأوروبى فى العصور الوسطى  
ومن هنا اكتسبوا تلك الشهرة التى تمتعوا بها (٣٠) .

وكل شخصية من هذه الشخصيات تستحق دراسة مستفيضة متأنية حول  
حقيقة إسمها ، والمصادر التى استقى منها مؤلف الأنشودة معلوماته عنها ،  
والحقيقة والخيال فى كل منها ، ومدى مطابقة الصور التى رسمها المؤلف  
للشخصيات التاريخية الحقيقية ، مثل شارلمان ورولان ، لما كان يعرفه الناس  
عنها .

ومادنا نتحدث عن شخصيات الأنشودة ، فيجب أن نذكر أن العنصر  
النسائى لا يظهر فيها باستثناء إشارة سريعة عابرة إلى خطيبة رولان التى بكيت

عندما بلغها خبر مقتله ثم ماتت هي الأخرى (٣١). ويرجع السبب في انعدام العنصر النسائي تقريبا في الملحمة ، ان الفروسية في المجتمع الغربي الوسيط كانت وقتذاك فروسية الرجال . فالحرب صناعتهم . وفيها يبرزون ماتعلموه من فنون القتال ، وقد ارتبطت بالنظام السائد وقتها وهو الإقطاع . ولانسمع عن شخصيات نسائية بارزة في المجتمع الغربي إلا في اواخر العصر الوسيط وبدايات عصر النهضة ، مثل بياتريس عند دانتي (١٢٦٥ - ١٣٢١ م) ، ولورا عند بترارك (١٣٠٤ - ١٣٧٤ م) ، والموناليزا عند نيوناردو دافنشي (١٤٥٢ - ١٥١٩ م) ، وذلك عندما أعطت الفروسية للمرأة مركزا أسمى مما كانت تتمتع به من قبل (٣٢) .

هذا بالنسبة لشخصيات الأنشودة ، أما بالنسبة للأماكن الجغرافية فقد ورد في الأنشودة أسماء عدد منها فيها أخطاء عديدة ، وبعضها من ابتداع المؤلف ، مما يكشف عن عدم معرفته بالمدن الإسلامية . بل أنه من الصعب الاستدلال على كثير من هذه المدن مثل كومبل Commibles ، وفالترن Valterne ، وبين Pine ، وبالاجيه Balagure ، وتويل Tuèle ، وسزيل Sezille (٣٣). والواضح أن المؤلف المجهول لم يتوخ ، بصفة عامة ، الدقة في ذكر أسماء المدن التي سردها ، او لعله لم يكن يعنيه التدقيق عند ذكرها ، شأنها شأن الشخصيات التي اختلقها من خياله . هذا ، باستثناء المدن الحقيقية التي اوردها مثل سرقسطة في شمال إسبانيا وإكس في المانيا (٣٤).

أضواء جديدة على الأنشودة ، وقضايا لم تحسم بعد :

في محاضرة ألقاها في مقر المكتبة الإسبانية في أغسطس من عام ١٩٧٨ ، عالم اللغويات الفرنسي بجامعة السوربون مارسيل بيش Marcel Baiche ، أبدى رأيا جديدا فيما يتعلق بمعركة رنشفالة Roncevaux التي قتل فيها رولان -

بطل الأنشودة موضوع هذه الدراسة - في حروبة ضد العرب في إسبانيا .  
وكان السؤال الذى طرحه هو : هل كان مسرح مطاردة العرب لجيش  
رولان هو الموقع المسمى رنشالة الواقع فى جبال البرانس على حدود نافار ،  
والذى يحمل هذا الإسم ؟

وخلص مارسيل بيش من دراسته اللغوية للفظه « رنسفو » أن هذا الموقع لم  
يكن له أى وجود فى عصر أنشودة رولان ، وأنه مخلق من خيال المؤلف  
ولا يمت إلى الحقيقة التاريخية أو الجغرافية بصلة ( ٣٥ ) ؛ وهو ماسبق أن  
أوضحه اندرية كورديه ، تاركا القضية دون إجابة حاسمة محددة .

ويرتكز مارسيل بيش فيما توصل إليه على تفسير الأصل اللغوى للفظه  
« رنسفو » وما تعنيه . إذ قال إن هذه اللفظة وجدت فى سلسلة الأبحاث الخاصة  
بأسماء البلاد فى العصور الوسطى ، بأكثر من معنى . فهى فى اللغة القشتالية  
تعنى « الوديان الخشنة » Roncos Valles ، وفى اللغة الفرنسية القشتالية  
تعنى « وادى نبات العروسج » Valle de Zarzales ، وفى اللغة الفرنسية  
النورماندية تعنى « الوديان المنداة » Valles Mozades ، وفى اللاتينية  
« الوديان المنقاة من الحشائش » Rimcia Vallis أو Rosidae Valles ،  
وفى اللغة البروفانسية « الودى المنعطف » Ronsivaus ، وفى اللغة الاقطنانية  
« الوديان المنداة » Rozas Vals . ويستطرد بيش قائلا إن هذا التعبير الأخير  
تكرر فى عدة لغات مختلفة بنفس المعنى تقريبا . ثم ربط هذا بما ورد فى الأنشودة  
من أن مسرح المعركة كان فى موقع Ronces Valles فى نافار ، حيث  
تتميز الأرض بجفافها وعدم وجود الماء فيها . وخلص من كل ذلك أن « رنسفو »  
لم تكن مسرح المعركة التى قتل فيها رولان ، وأن الموضوع لا يزال بحاجة  
إلى مزيد من الدراسة والبحث ( ٣٦ ) .

والحقيقة أن أنشودة رولان لاتزال حتى الآن مثار كثير من الجدل والنقاش ، وأنها تفتح آفاقا رحبة واسعة لدراسات خصبة متجددة ، على الرغم من مرور اثني عشر قرنا على تاريخ الأحداث التي تعرضت لها . فمن الموضوعات التي لم يبت فيها برأى حاسم حتى الآن مسرح الحركة على وجه التحديد ، والمكان الذي دفن فيه رولان ، وتاريخ موته ، والشخصيات التاريخية الحقيقية كما صورها لنا مؤلف الأنشودة ومدى مطابقتها للواقع كما ورد في المصادر التاريخية من لاتينية وفرنسية قديمة وغيرها ، وايضا اسماء شارلمان والقباه التي ورد ذكرها في الأنشودة وهي « شارل » و « شارل العظيم » و « شارلمان » و « الملك » و « الإمبراطور » ومتى استخدم كل إسم او لقب منها حسبما جاء في الوثائق والأسانيد التاريخية القديمة . وكذلك قيمة الأنشودة في الكشف عن حلقة من حلقات الصراع بين حضارتين وعالمين متباينتين مختلفين خلال الحقبة الوسيطة من التاريخ الوسيط . كل هذه نقاط وقضايا هامة لاتزال بحاجة إلى دراسات مدققة متعمقة يمكن أن تضيف جديدا إلى تاريخ هذه الحقبة من الزمن .

أهم طبعات الأنشودة وترجماتها :

لأنشودة رولان طبعات عديدة ، أولاها ظهرت في أوائل القرن التاسع عشر . وبعض هذه الطبعات تتضمن النص الأصلي كاملا باللغة الفرنسية القديمة مع ترجمة كاملة له ، بينما تتضمن البعض الآخر مقتطفات من الأنشودة . وتميزت بعض الطبعات بأهميتها لما تضمنته من مقدمات وتعليقات .

كانت أول طبعة للأنشودة مع ترجمة لها باللغة الفرنسية الحديثة هي طبعة فرنسيس ميشيل Francisque Michel ، وقد ظهرت سنة ١٨٣٧ . ثم تلتها طبعات وترجمات أخرى عديدة ، إما للأنشودة كلها ، او لمقتطفات

منها ، واعتمد معظمها على النسخة الخطية التي عثر عليها في مكتبة بودليان  
باكسفورد بإنجلترا عام ١١٧٠ م . ونذكر من بينها طبعات فرنسيس جنان  
Francis Génin عام ١٨٥٠ ، وتيودور ميلر Theodor Mülle الذي  
أصدر ثلاث طبعات للأنشودة في اعوام ١٨٥١ و ١٨٦٣ و ١٨٧٨ على التوالي ،  
ثم طبعة ليون جوتييه Léon Gautier عام ١٨٧٢ واعقبها طبعات اخرى  
عديدة له ، وطبعة بوهرمر Boehmer عام ١٨٧٢ . ونذكر أيضا طبعة بتي دي  
جولفيل Fetit de Julleville عام ١٨٧٨ ، ثم ظهر له مقتطفات للأنشودة  
مع دراسة تاريخية ونقدية في باريس عام ١٨٩٤ ، وطبعة ل . كليدات  
L. Clédât التي صدرت في باريس عام ١٨٨٧ ، وطبعة م. بوشور M. Bouchor  
التي صدرت في باريس عام ١٨٩٩ ، وطبعة شتengel عام ١٩٠٠  
وطبعة ج . فابري J. Fabre التي صدرت في باريس عام ١٩٠٢ ،  
ومقتطفات من الأنشودة للمؤرخ جاستون باريس صدرت عام ١٨٨٧ أعقبها  
طبعات اخرى حتى عام ١٩٠٣ . وأيضاً طبعة جروبير Grober عام ١٩٠٧  
وطبعة ه. شامارد H. Chamard التي صدرت في باريس عام ١٩١٩ ، وطبعة  
ج . فودوز J. Vodoz التي صدرت في باريس عام ١٩٢٠ ، ثم طبعة ت .  
اتكنسون جنكينز T. Atkinson Jenkins التي صدرت في ميونيخ عام  
١٩٢٣ ، وطبعة الفونس هيلكا Alfons Hilka التي صدرت في هال Halle  
عام ١٩٢٦ ، ثم عرض ودراسة تحليلية للأنشودة بقلم أ . فارال E. Faral  
صدرت في باريس عام ١٩٣٣ ، ودراسة للأنشودة من وجهة النظر التاريخية  
بقلم ر . فاوتييه R. Fawtier صدرت في باريس عام ١٩٣٣ . وايضا طبعة  
أندرية كوردييه André Cordier التي تضمنت مقتطفات من الأنشودة  
وصدرت في باريس عام ١٩٣٥ ، وطبعة جويليو برتوني Giulio Bertoni  
التي صدرت في فلورنسا عام ١٩٣٥ ، ثم طبعة جوزيف بدييه Joseph Bédier

التي صدرت في باريس عام ١٩٣٧ ، وطبعة م . بر يو M. Periot .  
التي صدرت في باريس عام ١٩٥٠ .

خاتمة :

تلك هي الأنشودة التي أثارت - ولا تزال تثير - ضجة كبرى منذ اكتشاف أول نسخة خطية لها ترجع إلى أواخر القرن الثاني عشر ، ومنذ صدور أول طبعة لها في أوائل القرن التاسع عشر . لقد ألهمت حماسة الكتاب والمؤرخين المعنيين بتاريخ العصور الوسطى وحضارتها . ولا تزال حتى اليوم بما تضمنته من معلومات ومفاهيم وأفكار ، هي مثار كثير من الجدل والنقاش .  
تحتل العديد من البحوث والدراسات الجادة القيمة في مجالات شتى متنوعة . بل إن كل قضية من القضايا العديدة التي طرحناها على بساط البحث في هذه الدراسة ، تحتل بدورها دراسات مسهبة مستقلة قائمة بذاتها قد تفتح آفاقا رحبة واسعة لبحوث أخرى جديدة .





## الحواشي

Contor, N.F.(ed.), The Medieval World : 300—1300, New York, 1963, (١)  
235; Lagarde, A. & Michard, L., Moyen Age, Paris, 1960, 3; Paris, G. &  
Langlois, E., Chrestomathie du moyen age, Paris, 1912, 12; Perier, A.,  
La Chanson de Roland (Traduction et Commentaires), Paris (N.D.), 2;  
Bédier, J., La Chanson de Roland, publiée d'après le manuscrit d'Oxford  
et traduite, Paris, 1937, 1; Lanson, G., Histoire de la Littérature Française,  
Paris, 1951 20.

La Monte, J., The World of the Middle Ages, New York 1949, 248, 594 (٢)  
Crump, C.G. & Jacob, E.F. (éds.), The legacy of the Middle Ages, Oxford,  
1951, 183, 193; Lanson, op. cit., 29.

La Monte, op. cit., 592—594. (٣)

Cordier, A., La Chanson de Roland, Paris, 1935, 6; Perier, op. cit., 6. (٤)

Cf. Ker, W.P., The Dark Ages, New York, 1955, 354; Perier, op. (٥)  
cit., 4—6; Cordier, op. cit., 6—7.

Cordier, op. cit., 5—6. (٦)

Ker, op. cit., 355—356 (٧)

(٨) للمزيد من المعلومات عن أوضاع الغرب في عصر أنشودة رولان ، أنظر : ——— :

Halphen, L., L'Essor de L'Europe, Paris, 1941, 3ff., 23ff., 47f., 55f., Pirenne  
H., Medieval Cities, trans. by F.D. Halsey, Princeton, 1948, 56ff.:  
Setton, K.M. (ed.), A History of the Crusades, Vol. I : The First Hundred  
Years, ed. by M.W. Baldwin, Philadelphia, 1958, 10ff., 25f.; Baldwin,  
M.W., The Mediaeval Church, New York, 1960, 99; Cordier, op. cit., 5.

وحول استيلاء صلاح الدين على بيت المقدس ، ثم استعادة الصالح أيوب للمدينة  
للمرة الأخيرة ، أنظر : ابن شداد (ابو المحاسن يوسف بن تميم بن عتبة) : سيرة  
صلاح الدين الأيوبي المجهة بال نوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية — القاهرة ١٣١٧ هـ

- ص ٦٠ ومايليها و١٤٣ ومايليها و٢٢٠ ومايليها الأصفهاني (عماد الدين محمد بن محمد بن حامد) : الفتح القس في الفتح القدسي - القاهرة ١٣٢١ هـ - ص ١٧ ومايليها و٣٦ ومايليها و٣١١ ومايليها ، أبو شامة (عبد الرحمن بن اسماعيل بن إبراهيم بن عثمان شهاب الدين) : تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين - القاهرة ١٣٦٦ هـ - ص ١٧٤ ؛ المقرئ (تق الدين أبو اسماعيل أحمد) : السلوك لمعرفة دول الملوك - نشر د . محمد مصطفى زيادة - ج ١ قسم ٢ - القاهرة ١٩٣٦ - ص ٣١٦ ومايليها .

( ٩ ) يرى جاستون باريس أن أغنية رولان لاتستند إلى الحقائق التاريخية . ويقول إن الأغاني التي وضعت في فترات متأخرة اقتبست نماذج لشخصيات مثل رولان من الأساطير الأصلية القديمة التي وردت فيها تلك النماذج للمرة الأولى ، وإن الأغاني التي استلهمها مؤلفوها من أحداث الحركة الصليبية لاشأن لها بالملاحم القديمة مثل أنشودة رولان ، وإن كانت قد أخذت عنها إطارها العام فحسب . وبناء على ذلك ، فإن القصائد التي وضعت زمن الحروب الصليبية إما تقليد للقصائد الأصلية القديمة أو ابتداء من خيال الشعراء . ويخلص الكاتب من هذا أن أنشودة رولان تم إحيائها في أواخر القرن الحادي عشر لتحريك الشعور في غرب أوروبا ضد العرب في المشرق ، في الوقت الذي أعلنت فيه البابوية بداية الحروب الصليبية . أنظر : Paris, G., Mediaeval French Literature, trans. from the French by H. Lynch, London, 1903, 32, 38ff.

ويرى جوستاف لانسون أن الأنشودة من أصل جرمانى ، وأن بدايتها الأولى كانت مع بداية الأسرة المير وفنجية في غالبية عندما كان الشعب يتغنى بأعمال ماوكة وأبطاله منذ أيام كلوفيس وأبنائه . وكان الناس يتناقلون تلك الأغاني شفاهة . وأخيرا مزجت مع شخصية شارل مارتل ، وتمركزت في شكلها النهائي حول شخصية شارلمان ، وغدا هو بطلها . ويرجع ذلك إلى قوة شخصيته ، وإلى حروبه الواسعة ، وفتوحاته العديدة طوال فترة حكمه . أنظر عن ذلك : ————— :

Lanson, *op. cit.*, 20—22.

(١٠) فيما يتعلق بمختلف الآراء التي أثيرت حول التاريخ الذي كتبت فيه الأنشودة ، أنظر

Petit-Dutaillis, Ch., *La Monarchie féodale en France et en Angleterre*, Paris, 1971, 32; Cordier, op. cit., 8—12; Perier, op. cit., 2—3; Lagarde & Michard, op. cit., 4—5; Paris & Langlois, op. cit., 12; Paris, G., *Récits extraits des poètes et prosateurs au moyen age*, Paris, 1896, 1; Painter, S.A., *History of the Middle Ages : 284—1500*, London, 1966, 452—453.

(١١) قصيدة حج شارلمان نصيدة باريسية الأصل يرجع تاريخها إلى سنة ١٠٦٠ م تقريبا ،  
أى أثناء الفتح النورمانى لـانجلترا . وتكاد أن تكون الإنتاج الأدبى الوحيد الذى وصل  
إلينا من هذا التاريخ المبكر . فى شكله الأصل دون أن تمتد إليه يد التحوير أو التغيير .  
ومع ذلك ، فهى مختلفة من خيال الشاعر الذى نسب إلى شارلمان ورجاله أعمالا لم  
يقوموا أصلا بها . وعلى هذا ، فهى لا تمت إلى الحقيقة بصلة ، شأنها شأن أنشودة  
رولان . أنظر : La Moante, op.cit., 594 راجع أيضا : جوزيف نسيم يوسف :  
الدافع الشخصى فى قيام الحركة الصليبية — مقال فى مجلة كلية الآداب بجامعة الإسكندرية  
— العدد ١٦ — الإسكندرية ١٩٦٣ — ص ١٨٦ — ١٨٧ .

(١٢) ديفز ( هـ . و . ك . ) : شارلمان — نقله إلى العربية الدكتور السيد الباز العرينى —  
الطبعة ١٩٥٩ — ص ٢٨٧ ومايليها .

CF. Perier, op. cit., 2; Bédier, J., *Les Légendes épiques : recherches sur la formation des Chansons de geste*, 4 vols., Paris 1930, Vol. III, 186-191.

Perier, op. cit., 3; Cordier, op. cit., 12. (١٤) أنظر :

وقد ورد فى كتاب تاريخ الحضارة لمؤلفيه برنتون وكريستوفر وولف ، أن الأنشودة  
قد يكون لها مؤلف واحد أو أكثر من مؤلف . أنظر عن ذلك :

Brinton, C., Christopher, J.B. & Wolff, R.L., *A History of Civilization*, Vol. I, New Jersey, 1967, 185.

وقد أوضحنا فى المتن أن هذا رأى استبعد الآن تماما .

Lagarde & Michard, op. cit., 5; Paris & Langlois, op. cit., 12; (١٥)  
Cordier, op. cit., 12—13.

ويرى كوردييه (نفس المرجع - ص ١٢) ، أن يحتمل أن يكون مؤلف الأنشودة قد وضعها فيما بين عامي ١٠٩٨ و ١١٠٠ . أنظر ايضا :

Bédier, *La Chanson de Rolaud*, 11—111.

Cordier. op. cit., 13—14; Bédier, op. cit., XII; Bloch, M., *Feudal Society*, trans. from the French by L.A. Manyon, Vol. I, London, 1967, 97. (١٦)

هذا ، بينما يرى جوستاف لانسون أن الأنشودة تتميز بلغتها الجافة الفقيرة ، وأن مؤلفها المجهول لا يرقى إلى مرتبة فرجيل أو دائني ، وأنه ليس فنانا قديرا . أنظر .

Lanson, op. cit., 30.

وقد سبق أن أوضحنا أن أحوال الغرب وقت تدوين الأنشودة لم تكن تسمح بالإبداع الفني أو الأدبي . فقد كان هذا العصر فترة انتقال بين العصور المظلمة والنهضة الأوروبية . أنظر ماسبق ، ص ٥ - ٨ من هذه الدراسة .

Lagarde & Michard, op. cit., 3; cf. also : Painter, op. cit., 453. (١٧)

يرى برنتون وكريستوفر وولف أن الأنشودة تعتبر مصدرا رئيسيا لمعرفة عن (١٨)

عقلى الطبقة الأرستقراطية في الغرب في العصور الوسطى المبكرة . أنظر :

Brinton & Others, op. cit., 185.

بينما يرى المؤرخ نورمان كانتور أن المؤلف لم يترك العنان للتأخية الخيالية في الأنشودة بصفة عامة ، وأنها تعبر عن الوضع الحقيقي للطبقة الإقطاعية في المجتمع الغربى الوسيط . أنظر : Canter, op. cit., 236. ويضيف مارك بلوك قائلا إن مؤلف الأنشودة

عبر عن المفاهيم السائدة في عصره . أنظر : Bloch, op. cit., I, 97, 232.

Paris & Langlois, op. cit., 12; Bloch, op. cit., I, 93; La Monte, (١٩) op. cit., 157.

(٢٠) أو الباسكونيين أو الغسقونيين أو البشكنس في نافار . ويطلق عليهم في المراجع

الأجنبية إسم "الباسك" Basques .

CF. Le Goff, J., *La Civilisation de l'Occident Médiéval*, Paris, 1965. 66;

Cordier, op. cit., 7—8; Lagarde & Michard, op. cit., 3; Paris, *réécits extraits des poètes et prosateurs au srayen age*, I.; Perier, op. cit., 3—4;

Previté — Orton, C.W., *The Shorter Cambridge Medieval History*, I, Cambridge, 1952, 309.

جدير بالتنويه أنه ليس من أهداف هذا البحث تناول حروب شارلمان في إسبانيا ، وبخاصة حملة سنة ٧٧٨ م ، والنظروف التي أحاطت بها ، وتلك التي دعت إليها ، والنتائج التي تترتب عليها . فهذا موضوع يتطول شرحه ، وقد عالجته بتفصيل وإسهاب كثيرين من المؤرخين الحديثين المعنيين بتاريخ المغرب والأندلس في العصر الإسلامي الوسيط . ولا يكاد يخلو مرجع من مراجع تلك الفترة من الإشارة إلى ذلك . ومن المراجع القيمة في هذا الخصوص ما يلي :

السيد عبد العزيز سالم (دكتور) : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة بقرطبة - بيروت ١٩٦٢ - ص ٢٠١ ومايليها ؛ محمد مرسى الشيخ (دكتور) : دولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين في الأندلس حتى أواخر القرن العاشر الميلادي (٧٥٥ - ٩٧٦ م / ١٢٨ - ٣٦٦ هـ) - الاسكندرية ١٩٨١ - ص ١٣٧ ومايليها ؛ حسين مؤنس (دكتور) : معالم تاريخ المغرب والأندلس - القاهرة ١٩٨٠ - ص ٢٦٣ ومايليها ؛ إبراهيم علي طرخان (دكتور) المسلمون في أوروبا في العصور الوسطى - القاهرة ١٩٦٦ - ص ١٧٢ ومايليها ؛ دوزي (ر.) : تاريخ مسلمي إسبانيا - الجزء الأول : الحروب الأهلية - ترجمة د. حسن حبشي - مراجعة د. جمال محرز ود. مختار الببائي - القاهرة ١٩٦٣ - ص ٢٢٨ ومايليها ؛ موسى (د. س. ل. ب.) : ميلاد العصور الوسطى (٣٩٥ - ٨١٤) ترجمة عبد العزيز توفيق جناويد - مراجعة د. السيد الباز العريبي - القاهرة ١٩٦٧ - ص ٣٥٥ ومايليها .

Einhard, *Life of Charlemagne*, in N.F. Cantor (ed.), *The Medieval World: 300—1300*, New York, 1963, 137.

Cf. Cordier, op. cit., 8; Le Goff, op. cit., 66. (٢٣)

(٢٤) أنظر مؤلف مجهول : أخبار مجموعة في فتح الأندلس ، وذكر أمرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بها بينهم - مدريد ١٨٦٧ - ص ١١٢ - ١١٣ .

(٢٥) أنظر العذري (احمد بن عمر بن انس العذري المعروف بابن الكلائي) : نصوص عمن الأندلس من كتاب "ترصيع الأخبار وتنويع الآثار" ، والبستان في غرائب

البلدان والمساكن إلى جميع الممالك ' - تحقيق د. عبد العزيز الأهواني - مطبعة  
١٩٦٥ - ص ٢٥ و ٢٦ .

(٢٦) ابن الأثير (أبو الحسن بن أبي الكريم .... الملقب عز الدين) : الكامل في التاريخ -  
الجزء الخامس - ط . ثانية - بيروت ١٩٦٧ - ص ٦٤ .

(٢٧) أنظر المقرئ التلمساني (شهاب الدين أحمد بن محمد) : نفع الطيب من غصن الأندلس  
الربيع - تحقيق محي الدين عبد الحميد - الجزء الأول - القاهرة ١٩٤٩ - ص ٣١٠

Cf. Kitchin, G.W., A History of France, Vol, I, Oxford, 1899, 130; Painter,  
op. cit., 79; La Monte, op. cit., 157. (٢٨)

(٢٩) أنظر ماسبق ص ١٤ - ١٥ والحواشي ص ٢٧٣ .

(٣٠) حول شخصيات الأنشودة ، أنظر : Lagarde & Michard, op. cit., 6;  
Perier, op. cit., 7—9; Lanson, op. cit., 26.

وفيما يتعلق بالشخصيات التي اختلقها المؤلف ، أنظر :

Bédier, La Chanson de Roland, 11,13 et Passim.

Bédier, op cit., 307—309; cf. also : Lanson, op. cit., 29; Painter, op. cit.,  
354; La Monte, op. cit., 248; Lagarde & Michard, op. cit., 29—30. (٣١)

(٣٢) أنظر ، على سبيل المثال : كولتون (ج ج .) : عالم المصور الوسطى في النظم  
والخفاضة - ترجمة وتعليق د. جوزيف نسيم يوسف - ط.ثالثة - بيروت ١٩٨١  
- ص ١٥١ وح ١ ؛ ديفز (ه . و .) : أوروبا في المصور الوسطى - ترجمة د.  
عبد الحميد حمدي محمود - الإسكندرية ١٩٥٨ - ص ١٠٦ ؛ الجيجيري (داني)  
الكوميديا الإلهية : المطهر - ترجمة وتعليق د. حسن عثمان - القاهرة ١٩٦٤ - ص  
٣٨٢ وما بعدها .

(٣٣) حول الأماكن الجغرافية التي ورد ذكرها في الأنشودة ولم نستطع الاستدلال عليها  
أنظر : Bédier, op. cit., 19 et Passim.

(٣٤) وفيما يتعلق بالأماكن الحقيقية ، أنظر :

Bédier, op. cit., 3, 13 et passim.

(٣٥) أنظر تعليق هنرى لابورد Enrique Laborde على محاضرة مارسيل بيش في :

Baiche, M, Roncesvalles no fue el Escenario de la Famosa Batalla en la que murio Rolando, in «ABC Martes, 15 de Agosto de 1978, 27».

هذا ، وسبق أن أوضح كوردييه أن كتب الحوليات القديمة لم تحدد هذا الموقع الذي

وصل إلينا عن طريق التناقل الشفوي - أنظر : Cordier, op. cit., 10.

Cf. Baiche, op. cit., loc. cit.

(٣٦)





## كشاف أجدى عام

(١)

الأتراك الممانيون : ١١٩ ، ١٥١ ، ١٥٤  
 اتكنسون جنكينز : ٢٦٦  
 اتين كومب : ١٧٢ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٩  
 اجنهارد : ٢٥٩  
 اجنهارد : ٢٥٩  
 الاحاديث النبوية : ١٩٤  
 الاحجار الكريمة : ٦٩  
 اخبار مجموعة في فتح الاندلس (كتاب) ٢٦٠  
 احمد بن طولون : ٢٠٢ ، ح (١)  
 احمد بن عبد الوهاب : ١٨٤  
 الأخشاب : ١٠١  
 الاخشيدون : ١٦٥ ، ٢٠٠  
 الأدرسي : ٧١ ح ٢  
 آدم : ١٩٩  
 ادهمار ده مونتي : ٢٨ ، ٢٩ ، ٣١  
 اذريجان : ١٤٥  
 اراجون : ٢٤٩ ، ٢٥٠  
 الأراضي المقدسة : ٧ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٨ ، ٣١ ، ٤٣ ، ٤٥ ، ٥٣ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٧٣ ، ٧٥ ، ٧٧ ، ١١١ ، ١٤٩ ، ح (١)  
 الأراضي الواطئة : ١٢ ، ١٣ ، ٧٩ ، ٧٠ ، ٧٩  
 اربان الثاني (بابا) : ٨ ، ١٣ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٣١ ، ٣٨ ، ٢٥٠ ، ٢٥٦  
 ارغونة : ٧٨ ، ح ١ ، ٢ ، ٩٥ ، ١٠٠ ح (١) ١٦٠  
 ارمان سليوريون : ٩٨  
 اسبانيا : ٨ ، ٩ ح ١ ، ٢٦ ، ٢٨ ، ١٠٠  
 ح ١ ، ١٣ ، ١٤٣ ، ١٥٠ ، ٢٤٧ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥٧ ، ٢٦١ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤  
 الاستارية : ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١١٧  
 استروجرسكي : ١٤ ، ١٧ ، ٢٥  
 اسد الدين شير كوه : ٧٦ ، ٩١

ابدة : ٢٠٨  
 الابرو (نهر) : ٩  
 ابن ابي حجلة : ١٩١ ، ١٩٢ ، ٢٣٥  
 ابن الأثير : ٢٦٠  
 ابن الاحمر (ابو عبد الله محمد بن يوسف) :  
 ٢٠٨ ، ح (٢) ، ٢٠٩  
 ابن حجر : ١٨٣ ، ١٩٦ ، ح (٦)  
 ابن خلدون : ١٦٣ ، ١٩٦ ، ح (٥)  
 ٢١٨ ، ح (٢)  
 ابن رشد : ٥٩  
 ابن الفارض : ١٩٢  
 ابن الفرات : ١٦٣ ، ١٩٦ ، ح (٤)  
 ابن فضل الله العمري : ٧٩ ح (٣)  
 ابن المدير (واني مصر) : ٢٠٠  
 ابو ثور (حاكم تنيس) : ٢٠٥ ، ٢٠٦  
 ابو جعفر المنصور : ٢٥٨  
 ابو الحسن الميرني : ٢٠٧ ، ح (٢) ، ٢٠٩  
 ابو طاهر (صاحب البحرين) : ٢٠٦  
 ابو العباس المرسى : ١٩١  
 ابو عبد الله بن عمر الواقدي : ١٧٨ ، ١٨٣ ، ٢٠٢  
 ابو عبد الله محمد بن احمد التاجر : ٢١٨ ح (٣)  
 ابو عبد الله محمد بن صالح التاجر المصري :  
 ٢١٨ ح (٣)  
 ابو عبد الله محمد المؤدب : ٢١٨ ح (٣)  
 ابو العلاء المعري : ١٣٦  
 ابو القدا العيني : ٥٩  
 ابو الفضل عبد الرحمن بن ابي بكر بن محمد  
 جلال الدين السيوطي : ١٩٧ ، ح (٢)  
 ابو الفضل قاسم القصار : ١٩١  
 ابو قير : ٢٢١ ، ٢٣٠  
 ابو نواس : ١٩١  
 الاترك : ٢٢ ، ح (٣) ، ٢٣ ، ١٣٨ ، ١٤٧  
 الاترك السلاجقة : ١٤٥ ، ١٥٠ ، ٢٥٠



(ب)

- باباروما : ٨٧ ، ٩٩ ح (١)  
 الباب الأخضر (باب البحر) : ٢٢٢ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦  
 باب رشيد : ٢٢٦ ، ٢٢٧  
 الباب الكبير : ٢٣٧  
 البابوية : ١٠ ، ٢٨ ، ٥٨ ، ٧٨ ح (٣)  
 ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٧٠ ح ٩  
 بابليون (حصن) : ٢٠٢  
 الباجريقي (شخص) : ٢١٨ ح (٢)  
 الياسكونيون (انظر البشكنس) ٢٧٢ ح (٢٠)  
 ٣٥٩  
 باريس (مدينة) : ١٧٢  
 باريس (جاستون) : ١٠ ، ١١ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧  
 الباسك : ٢٧٢ ح ٢٠  
 بالاجيه : ٢٦٣  
 بالمرشروب (مؤرخ) : ٣٩  
 يانكي بور : ١٦١ ، ١٧٢ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٣  
 بايزيد الأول : ١٣٣ ح (١)  
 بترارك : ٢٦٣  
 البتشنج (البجاناكية) : ١٤٥ ح (١)  
 بتي دي جولفيل : ٢٦٦  
 البجاناكية (التشنج) : ١٤٥ ح (١) ، ١٤٦  
 بخرقة (بحري) : ٢١٨ ح (٢)  
 البحر الأحمر : ١٢٩ ، ١٤٤ ، ١٨٩ ، ٢٣٧  
 البحر الأدرياتي (بحر أدريا) : ٧٠ ح (٤) ، ٨٠ ، ١٤٣  
 البحر الأسود : ٨٠ ، ١٢٩ ، ١٤٤ - ١٤٧ ، ١٥١ ، ١٥٢  
 البحر الأبيض : ٨٠  
 بحر زوف : ١٤٧  
 بحر قزوين : ١٤٧  
 البحر المتوسط : ٦٧ - ٦٠ ، ٧٩ ح (٣)

- انجلترا : ٩ ح (١) ، ٤٢ ، ٥٧ ، ٧٠ ، ٧٩ ح (٣) ، ٢٤٧ ، ٢٤٩ ، ٢٥٣ ، ٢٦٦ ، ٢٧١ ح ١١  
 الانجلوسكسون : ٨  
 الانجيل : ١٣٧ ، ٥٩  
 اندريه كوردييه : ٢٦٤ ، ٢٦٦  
 الاندلس : ٩ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢٥٠ ، ٢٥٨ ، ٢٦٠  
 اندونيسيا : ١٤١  
 انديانا : ١٦٠ ، ١٧٧  
 انسل : ٢٥٩  
 انطاكية : ١٤ ، ٤٠ ، ٨٩ ، ١١٠ ، ١٩٩  
 انطونيوس : ١٩٩  
 آن كومنين : ١٥ ، ١٨ ، ٢٢ ح (٢)  
 انونت الرابع : ١٤ ، ٤٠ ، ٨٩ ، ١٤٨ ح (٢)  
 انشودة رولان : ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٦٣ - ٢٦٥ ، ٢٧١ ، ٢٧٢  
 اوحده الأكابر (لقب) : ١١٨  
 اوحده الكبراء (لقب) : ١١٨  
 اوديب : ١٩٣  
 أورال (نهر) : ١٤٧  
 اورشليم (انظر بيت المقدس) : ١١ ، ٤٢ ، ١٩٩  
 اووويا : ٢ ، ٨ ، ٩ ، ١١ ، ١٤ ، ٢٦ ، ٢٨ ، ٣٢ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٤١ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٦٤ ، ٦٨ ، ٧٠ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ١٢٤ ، ١٢٨ - ١٤٤ ، ١٤٦ - ١٥٢ ، ١٥٤ ، ١٦٦ ، ١٧٥ ، ١٩٠ ، ٢٣٧  
 اوروسيوس : ١٣٦ ح (١)  
 اوليفيه : ٢٤٦ ، ٢٦٢  
 ايران : ١٤٥ ، ١٥١  
 ايطاليا : ٨ ، ٢٨ ، ٤٣ ، ٥٧ ، ٥٩ ، ٧٨ ح (١) ، ١٥٢ ، ٢٤٩  
 الايقونات المسيحية : ٢٠٦  
 ايلين بور : ٧٠  
 الاينوستوس : ٢٣٧  
 الايريون : ١١٤ ح (٢)

بطرس الثاني : ١٦٩ ، ٢٣٢  
 بطرس ديبوا : ٤٦  
 بطرس دى قوما : ٤٦  
 بطرس الرهيب : ٢٠٩ ، ح (٢)  
 بطرس الناسك : ٨ ، ١٨ ، ح (١) ، ٢٠ ، ٢٤ -  
 بغداد : ٨٩ ، ٢٠٢ ، ٢٠٧ ، ٢٥٨  
 البقعا : ١١٨ ، ح (٢)  
 بكار بن قتيبة (قاضي) : ٢٠٢ ، ح (١)  
 بلاد الخزر : ١٤٤ ، ١٤٦  
 بلاد الراقدين : ١٥١  
 بلاد الروم : ٢٢٠  
 بلاد الفلمنك : ١٢ ، ح (٢)  
 بلاد ما بين النهرين : ٢١٨  
 بلخاش (بحيرة) : ١٤٧  
 بلدوين (مؤرخ) : ٣٠  
 البلسان (البلسم) : ١٠٢  
 البلغار : ١٣٣  
 بلغاريا : ١٣٩ ، ح (١)  
 البلقان : ١٥٠  
 الرنادقة : ٢ ، ٧٣ - ٧٨ ، ٨٠ - ٨٣  
 ٨٦ ، ٨٩ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١٤١ ، ١٤٣ ، ١٦٩ ، ٢٣١  
 البنادق (خليج البنادقين) : ٧١ ، ح (٢)  
 البندق (أنظر الدوكات) : ٨٥ ، ح (٢)  
 البندقية : ١ ، ٦٥ ، ٦٧ - ٧٣ ، ٧٧ ، ٧٩ ، ح (٣) ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١١٧ ، ١١٩ ، ح (٢) ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٦ ، ١٥٣ ، ٢٢١ ، ٢٢٤ ، ٢٣٣ ، ٢٤٨  
 بى سويف : ١٨٤  
 بنو غسان (فيلة) : ٢٠٥  
 بودرى ده بورجى : ٣٠  
 بودشطا : ٩٨ ، ح (٣) ، ٩٩  
 بودليان (مكتبة) : ٢٤٧  
 بوشور : ٢٦٦  
 بورما : ١٣٠  
 البوصرية : ١٨٤

٨١ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٩ ، ٩٥ ، ١٠٢ ، ١٠٥ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١٢٣ ، ١٢٨ -  
 ١٣١ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٦ ، ١٤٨ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٧٥ ، ١٨٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣٧ ، ٢٤٨  
 بحر مرمرة : ٨٠  
 البحيرة (مديرية) : ٢٠٤ ، ٢٢٧ ، ٢٣١  
 بحيرة بلخاش : ١٤٧  
 بحيرة المنزلة : ٢٠٥  
 البخور : ٦٩  
 البرابرة : ٦٨  
 براغ : ٥٣ ، ١٤٦  
 برترادى منتفرت : ٢٤٩  
 البرتغاليون : ٨٦  
 البرتغال : ٢٠٨ ، ٢٥٠  
 برتولد أوف ريخسبرج : ١٢١ ، ١٢٢  
 برجنديا : ٢٤٩ ، ٢٥٠  
 برطلما : ٩٨  
 برلين : ١٦١ ، ١٧٢ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٨٣  
 برنارد أوف كليرفو : ٤٢  
 برنارد لويس : ٣٧  
 برنتون : ٢٧١ ، ح (١٤) ، ٢٧٢ ، ح (١٦)  
 برنتون : ١٦٠ ، ١٧٧  
 برنولد (مؤرخ) : ١٥  
 بروان (أدوارد ج) : ١٧٢  
 بروفانس (أقليم) : ٢٤٣  
 بروكلمان : ١٦٣ ، ١٨٣  
 بريثاني : ٢٤٨ ، ٢٦٢  
 بربو : ٢٦٧  
 برييه (مؤرخ) : ٧ ، ح (١)  
 البسقلون : ٢٢٧  
 بشانس (أنظر فبسيان) : ١٩٩  
 البطالمة : ٢٣٧  
 بطرس (القديس) : ٥٨ ، ١١٧ ، ١٩٩  
 بطرس الأول (لوزنيان) : ٣ ، ٦٤ ، ح  
 (٢) ، ١١٣ ، ١١٥ ، ح (٢) ، ١٦٩ ، ٢١٨ ، ح (٥) ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٢ -  
 ٢٢٣ ، ٢٣١ ، ٢٣٢

النتار (أنظر التتر وانتاتار) : ١٣٧ ، ١١٥ :  
ح (١) ، ١٣٩ ، ح (٢) ، ١٤٥ ، ح (١) : ٢٠٧ .

التجسس (نظام) : ١٦٧  
تراجان (طربان) : ١٩٩  
ترسانة الاسكندرية : ٢٣١ ، ٢٣٠  
التركان : ١٩ ، ١٣  
نرونوط (مدينة) : ٢٠٢

تريف : ٥٤  
تق الدين أحمد بن علي : ١٩٧ ح (١)  
اتكرتي : ١٩١  
تنيس : ٢٠٥  
التوابل : ٦٩ ، ٧١ ، ١٠٢ ، ١٥١ ،  
٢٢٨ ، ١٩٠

توليه : ٢٠٤  
توما الاكويي : ١٣٦ ح (١)  
تونس : ٥٦ ، ٤٥  
تويل : ٢٦٣  
تيان شان (جبال) : ١٤٧  
تيود الرابع (كونت شامبانيا) : ٢٥١  
تيدبوده (مورخ) : ٢٤  
تيربان : ٢٦٢  
تيودور ميلر : ٢٦٦

(ث)

ثقة الدول (لقب) : ١١٨  
ثيداسيس (ثيودسيوس) : ١٩٩

(ج)

جاستون باريس (أنظر باريس) : ٢٥٣ ،  
٢٦٦ ، ٢٧٠ ح ٩  
جاليكيا : ١٤٦  
جاليليو : ١٨٩

جامع التواريخ (تاريخ غازاني) : ١٣٤ ح (١)  
جامعة الاسكندرية : ١٦٠  
جامعة السوربون : ٢٦٣  
جامعة القاهرة : ١٦٠  
جامعة يوتا : ١٥٨ ، ٢ ، ١٦٠ ، ١٧١

بول ريان (مورخ) : ١٤ ، ١٦ ، ١٧ ،  
٢٥ .

بولس (قديس) : ١١٧ ، ١٩٩  
بلانكندران : ٢٦١  
بولندا : ١٣٩  
بون : ١٧٦  
بوهر : ٢٦٦  
بوهيند التورماندي : ١٨ ح (١)

بوهيميا : ١٥٢  
بوى (مدينة) : ٢٣ ، ٢٨  
بياتريس : ١٣٦ ح (١) ، ٢٦٣ .  
بياتشزا (مؤتمر) : ١٣ ، ١٥ ، ٢٥ ، ٢٨ ،  
٢٩ ، ٣١

البيازة : ٢ ، ٦٥ ، ٦٧ ، ٧٠ ، ٧٩ ،  
٨٧ - ٨٩ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٦  
بيرس (أنظر الظاهر بيرس) : ١١١  
بيت المقدس (أنظر اورشليم) : ٧ ح (١) ،  
١٠ ، ١٨ ، ٢٠ ، ٢٣ ، ٣١ ، ٤٠ - ٤٤ ،  
٧٣ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٨٩ ، ١٣٣ ح (١) ،  
١٦٦ ، ٢٥٠ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٦٩  
ح ٨

بير كارد من جبل صهيون : ٤٦  
بيروت : ١٠٦  
بيزنطة : ١١ ، ١٢ ، ١٧ ، ٦٢ ، ٢٨ ،  
١٣١ ، ١٣٣ ، ١٣٨ ، ١٤٤ ، ٢٠٣  
البيزنطيون : ١٥ ، ١٣٣ ، ١٥٠ ، ١٦٥ ،  
٢٤٩ .

بيزة : ١ ، ٧٩ ح (٣) ، ٨٦ - ٨٩ ،  
١١٨ ، ١١٩ ح (٢) ، ١٤٣ ،  
بين : ٢٦٣

(ت)

تاج الامناء (لقب) : ١١٨  
تاريخ الأدب العربي (كتاب) : ١٨٣  
تاريخ انجلترا (كتاب) : ٥٨  
التاريخ الكبير (كتاب) : ٥٨  
تانا : ١٤٥

جوزيف فوزار : ١٢٨ ، ١٢٤ ، ٢ :  
جوزيف نسيم يوسف : ١٧٠ ، ٣ :  
جوهر الصقلي : ٢٠٢ :  
جويليو برتوني : ٢٦٦ :  
جويوم دي ماشو : ١٧٥ ، ١٦٧ :  
جيان : ٢٠٨ :  
جيبرت ده نوجان (مؤرخ) : ١٢ ح (١)  
١٦ :  
جيران : ٢٦٢ :  
جيريه : ٦٢ :  
الجزيرة : ٢٠٠ :  
جيوفاي دي بيان كارينو : ١٤٠ :

(ح)

حاجي خليفه : ١٨٤ :  
الحينة : ١٣٨ :  
الحجاز : ٢٠٦ :  
الحجر الاسود : ٢٠٦ :  
الحديد البزاق : ١٠١ ح (١)  
حركة الاقافة الاسلامية : ٧٧ :  
الحركة الصليبية : ١٢ ، ١١ ، ٧ ، ٥ ، ١٧ ، ١٨ ، ٣٨ ، ٨٠ ، ٨٧ ، ٨٩ ، ١٣١ ، ٢٥٦ ، ٢٥٤ ، ٢٥٣ ، ٢٥٠ ، ٢٧٠ ح (٩) :  
الحرمان الكنسي : ٢٤٩ ، ٥٩ :  
الحروب الصليبية : ١٧ ، ١٤ - ٨ ، ١ :  
١٩ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٣٧ ، ٤٣ ، ٤٦ ، ٦٠ ، ١٠٠ ، ١٣٣ ، ١٤٤ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٦٠ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ٢١٨ ، ٢٣٦ ، ٢٤٤ ، ٢٥٢ ، ٢٥٥ :  
الحرير : ١٥١ :  
الحسين بن يحيى الانصاري : ٢٦٠ - ٢٦٢ :  
حطين (موقعة) : ٤٢ :  
حلب : ٩٠ ، ٧٤ :  
حملة الاسكندرية الصليبية (وايضا حملة القبارصة أو حملة بطرس لوزنيان) : ١٥٨ ، ١٦١ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٧٠ ،

جاميكة : ٢١٣ :  
جان دي برين : ٤٤ ، ١١٥ ح (٢)  
جان دي جوانفيل : ١٣٧ ح (١)  
جانوس الثاني : ٢٣٣ ، ١٦٩ :  
جانيلون : ٢٦٢ ، ٢٤٧ ، ٢٤٦ :  
جبال البرانس : ٢٦٤ :  
جبال تيان شان : ١٤٧ :  
جبال القوقاز : ١٤٤ :  
جبال الكريات : ١٤٦ :  
جرجم بن فضائل : ٢٢٩ :  
الجرمان : ٣٩ :  
جروبير : ٢٦٦ :  
جروسيه (ريشه) : ٧ ح (١) ، ٣٧ ، ٤٩ :  
ح (١)  
جريجوري السابع : ٢٥ ، ٣٧ ، ٢٥٠ :  
٢٥١ :  
جزيرة الأندلس : ٧١ :  
الجزيرة البريطانية : ٢٥٤ :  
جمال الاكابر (لقب) : ١١٩ :  
جمال الدين بن بصاصة : ١٠٣ :  
جنفرا : ٢٢٢ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ :  
جنكيز خان : ١٣ ح (١) ، ١٣٩ ح (٢)  
جنوة : ٣١ ، ٦٥ ، ٦٧ ، ٧٩ ، ٧٠ ، ٧٩ ، ٨١ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٩٣ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٩ ، ١١٨ ، ١١٩ ح (٢)  
١٤٣ ، ١٥٣ ، ٢٣٣ :  
الجنوية : ٢ ، ٨٧ ، ٨٩ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٨ ، ١١٢ ، ٢٢٩ :  
جوانفيل (جان دي) : ٩٣ :  
الجوخ البندق : ١٠١ :  
جودفري (دوق اللورين السفلى) : ٢٣ :  
جوستاف لانسون : ٢٥٣ ، ٢٧٠ ح (٩)  
٢٧٢ ح (١٦) :  
جورج تريفيليان (مؤرخ) : ٣٧ :  
جورج جوردون كولتون : ١٢٢ :  
جوزيف بديه : ٢٥٣ ، ٢٦٦ :

(د)

- دارا : ١٩٨  
دار ابن لقان : ٤٤  
داني الجبري : ١٣٦ ح (١) ، ٢٦٣ .  
٢٧٢ ح (١٦) .  
الاراجان : ٢٠٤  
الدرهم : ٢١٣  
دائرة المعارف الألمانية : ١٧٩  
دبرونيك : ١٤٣  
دجلة : ٢٣٧ ، ١٣٠  
دقديانوس (دقيانوس) : ١٩٩  
الدكن : ١٧٢  
دليريك : ١٠٩ ، ح (٤)  
"الملك" : ٢٠٥ ، ١١٤  
دمشق : ٢١٨ ح (٤)  
دمهور : ٢٣١  
دمياط : ٧٠ ، ٨٣ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٧ ،  
١٠٠ ح (١) ، ١٠١ ، ١١٣ ، ١١٤ ،  
١١٤ ح (٢) ، ١١٦ ، ١١٥ ح (٣)  
١٨٤ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ .  
الدناير (المصرية) : ١١٧  
الدناير الافرنجية : ١١٧ ح (٣)  
دوج البندقية (وايضا دوك ودوقس) : ٧١  
ح (٥) ، ٧٢ ، ٨٤ ح (١) ، ٨٥  
الذوكات (عملة) : ٨٥ ، ١١٧  
الدولة الأخشيديّة : ٢٠٢  
الدولة الايوبية : ٧٤ ، ٧٦ ، ٧٧ ح (١)  
٨٩ ، ٩١ ، ٢٠٢ .  
الدولة البيزنطية : ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ٢٠ ،  
٢٢ ، ١٢٨ ، ١٣١ ، ١٣٨ ، ٢٥٠ ،  
٢٥١ ، ٢٥٥ .  
دولة الروم : ٢٧  
دولة الساسان الشرقية : ٢٠١  
الدولة الطولونية : ٢٠٢  
الدولة الألمانية : ٩٧ ح (٦)  
الدولة الفاطمية : ٩٠ ، ٩١  
الدولة الكارولنجية : ١٣٢

- ١٧١ ، ١٧٥ ، ١٨٥ ، ١٨٨ ، ١٩٣ ،  
١٩٧ ، ٢١٧ ، ٢٢٣ ، ٢٣٥ ، ٢٣٧ ،  
٢٣٨ .  
الحملة الالمانية الشعبية : ٥٣  
الحملة الصليبية الأولى : ١٤ ، ١٦ ، ١٧ ،  
١٨ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٨ ،  
٢٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٥٣ ، ٨٨ ح (٣) ،  
٢٤٩ ، ٢٥٦ .  
الحملة الصليبية الثانية : ٤١  
الحملة الصليبية الثالثة : ٤٢ ، ٥٦ ، ٥٧ ،  
الحملة الصليبية الرابعة : ١٤٤  
الحملة الصليبية الخامسة : ٤٤  
الحملة الصليبية السابعة : ٤٤  
الحملة الصليبية الثامنة : ٤٥  
حملة نيقوبوليس : ١٦٠  
حوض اليفانت : ١٠١ ، ١٣٠ ، ١٤٤  
حويلة العالم : ١٣٥  
حيدر اباد : ١٦٢ ، ١٧٢ ، ١٧٩  
حيفا : ٤٥ ، ٧٧ ، ١١١

(خ)

- خالد بن الوليد : ٢٠٣ ، ٢٠٤  
خايي الثاني : ٧٨ ح (٢)  
خسرو مصطفى : ١٥٨ ، ١٦١ ، ١٧١ ،  
١٧٣ .  
الخلافة العباسية : ٢٠٢ ، ٢٥٨  
الخلافة الفاطمية الشيعية : ٧٥ ، ٧٦ ، ٨٩ ،  
٢٠٢ .  
الخلفاء الراشدين : ٢٠١ ، ٢٠٢  
خليج جون البتادقة : ٧١  
الخليج الفارسي : ١٤٤ ، ١٤٧ .  
الخليج القسطنطيني : ٧١  
خليل بن ابيك بن عبد الله ابو الصفا : ١٩٦  
ح (٢) .  
خليل صلاح الدين بن عرام : ٢٢٢  
الخوارج : ٢٠٦



روبرت ران : ١٧٧  
 روبرت الراحب : ٣٠٠١٦  
 رودس : ٨١  
 الروس : ١٣٩٠١٣٢  
 روسيا : ١٣٩٠ ح (١)  
 رولان (أنشودة وشخصية) : ٩٠٨٠٣  
 ١٠٠١١٠٠١١٠٠٢٤٣ - ٢٤٩٠٢٥٢  
 ٢٥٥٠٢٥٦٠٢٥٩٠٢٦٢٠٢٦٣  
 ٢٦٩٠٢٧٠٠ ح (٩)  
 الروم : ٩٠  
 روما : ٧٨٠٣٨٠٢٤٠٨٠٧٠ ح (٣)  
 ١٣٢٠ ح (١) : ٢٥٠٠٢٤٩٠٢٢١٠  
 الرومان : ٩٧٠ ح (٦) : ١٦٥٠  
 الرياضيات : ١٣٥٠ ح (١)  
 ريتشارد قلب الأسد : ٤٢  
 ريجنر بورج : ١٤٦  
 ريماني الحبشي : ٢١٨٠ ح (٤)  
 ريموند داجيل : ١٥  
 ريمون كونت سان جيل : ٢٨٠٢٣  
 رينيه دي متوبان : ٢٤٤٠  
 ريني (أخت مارية القبطية) : ٢٠٣٠٢٠٢  
 ريو (شارل) : ١٦٣  
 ريوسالادو (معركة) : ٢٠٧  
 (ز)  
 الزمرد : ١٠٢  
 زمزم (بئر) : ٢٠٦  
 زين الأكابر (لقب) : ١١٩  
 زين الدين خالده : ٢٢٢٠ ح (١)  
 زين الدين كتيبا : ١٠٤  
 (س)  
 سان فرنسيسكو : ١٢٨٠٢  
 ستاتيوس : ١٣٦٠ ح (١)  
 ستيفن رانسيان (أنظر رانسيان) : ١٤  
 السخاوي : ١٩٦٠١٨٣٠ ح (٧)  
 سراي (مدينة) : ١٤٧  
 سرقسطة : ٢٤٥٠٢٤٧٠٢٥٨٠ - ٢٦١  
 ٢٦٣

دولة الممالك البحرية : ٢١٠  
 دولة الممالك البرجية : ٢٣٣  
 الدولة النورية : ٧٤٠ ح (٣)  
 اللومين الملكي : ٢٤٩  
 دير الزجاج (أنظر الهانطون) : ٢٠٣  
 ديفنز (كارلس) : ٧٠ ح (١) : ١١٠٠١٠٠  
 ديوان الانشاء : ٦٣٠٦٧٠٧٢٠٨١٠ ح  
 ٨٥٠ ح (٣) : ٩٦٠ ح (١)  
 (ذ)  
 الذراع (مقياس) : ١١٧  
 الذهب : ١٩٦٠١٢٠٠١١٧٠١٠١  
 ح (٢)  
 الذهبي : ١٦٣  
 (ر)  
 راجوزا : ١٤٣  
 رأس الرجاء الصالح : ٨٦٠١٢٢٠١٤٢  
 ح (١)  
 رامون لال : ٤٦  
 رانسيان (ستيفن) : ٧٧٠ ح (١)  
 راقول ده كاهن : ٢٤  
 الرأي العام الغربي : ٣٩٠٤٤٠٤٦٠٥٦  
 الراين (نهر) : ٥٣  
 رسالة الغفران : ١٣٦  
 رسطوليس : ٢٠٣  
 الروحول (عليه الصلاة والسلام) : ١٩٤٠  
 ٢٠٢٠٢٠٣٠٢٠٥  
 رشيد : ٢٠٤٠٢٢٠٠٢٢١  
 رشيد الدين فضل الله (الرشيد الطبيب) : ١٣٤٠  
 ح (١)  
 رقيق الأرض : ٢٥٢  
 رنسفالة (معركة) : ٢٤٧٠٢٦٣٠٢٦٤  
 الرها : ٤١٠٤٠  
 رهرشت : ١٤  
 روبرت الأول (أمير الأراضي الواطئة) :  
 ١٢٠ ح (٢) : ١٩٠١٤٠١٣٠  
 روبرت جويسكار : ٢٤٩٠

شامانيا : ٢٧  
 شامار : ٢٦٦  
 شاور : ٩٠  
 الشب : ١٠٢  
 شبه الجزيرة الايبيرية : ١٢ ، ٢٧ ، ١٥٠  
 ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢٥٦ .  
 شبه جزيرة البراقان : ١٣٣ ، ١٦٦ .  
 شبه الجزيرة العربية : ١٤٤ ، ١٩٨ .  
 شبه القارة الهندية : ١٣٧  
 شتنجل : ٢٦٦  
 شرحيل : ٢٠٣  
 شرف الأصفياء المقربين (لقب) : ١١٩  
 شرف الرؤساء في العالمين (لقب) : ١١٩  
 الشرق : ١ ، ٧ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٤ - ١٦ ، ١٨ ، ٢٠ ، ٢٧ ، ٢٩ ، ٣٢ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٠ - ٤٤ ، ٤٧ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٥ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٣ ، ٧٦ ، ٧٩ ، ٨١ ، ٨٦ ، ١٠٠ ، ١٠٥ ، ١١١ ، ١٦١ ، ١٧٦ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ .  
 الشرق الأدنى الاسلامي : ٦٥ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٨ ح (١) ، ٧٩ ، ٨٩ ، ٩٤ ، ١٢٨ ، ١٣٠ .  
 الشرق الأقصى : ٧٠ ، ١١٤ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٤٠ ح (٢) ، ١٤١ ، ١٤٨ ، ١٥٤ .  
 الشرق الأوسط : ١٢٨ ، ١٣٠  
 شطا بن الهاموك : ٢٠٥  
 الشمال الافريقي : ٧٣  
 شمس الدين بن ابي عذبة : ٢٢٦  
 شمس الدين بن غراب : ٢٢٢ ، ٢٢٦  
 شمس الدين الخطيب : ٧٤  
 شمس الدين سنقر : ٨١ ح (٣) ، ٩٦ ح (٢)  
 شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان بن قايماز  
 ابن عبد الله الذهبي الفارقي الشافعي : (أنظر  
 الذهبي) : ١٩٦ ح (٢)  
 شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي :  
 ١٩٦ ح (٧)

سزيل : ٢٦٣  
 السعيد بن الظاهر بپرس : ١٠٦  
 السفارة السويسرية : ١٧'  
 السفيري (لقب) : ١١٨  
 السكر : ١٠٢  
 سكندس (فيلسوف) : ١٩٣  
 السلاجقة : ١٢ ، ١٣ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ١٥٠ .  
 السلاف : ١٣٣  
 سلوفاكيا : ١٥٣  
 السلوك (كتاب) : ٢٣٣  
 سليمان بن يقظان الاعرابي : ٢٦٠ ، ٢٥٨  
 سوريه : ٥٩ ، ١٥١ ، ٢١٨  
 سيبريا : ١٣٠  
 سيجسوند (ملك المجر) : ١٤٦  
 السيد الباز العريبي : ٧ ح (١)  
 سيرنيكا : ٢٠٣  
 سيف الدين سودون : ٩٦ ح (٢) ، ٨١ ح (٣) .  
 سيف الدين قلاوون : ١١١  
 سيلان : ١٣٠  
 سيليزيا : ١٤٦  
 السيوطي : ١٩٧ ح (٢)  
 سينتا : ١٥٣  
 (ش)

شارل اومان : ٢٠٩ ح (٤)  
 شارلمان : ٨ - ١٢ ، ٢٤ ، ٦٨ ، ١٣٢ ، ٢٤٤ - ٢٤٧ ، ٢٥٥ ، ٢٥٧ ، ٢٥٩ - ٢٦٢ ، ٢٦٥ ، ٢٧٠ ح (٩) ، ٢٧٣ ح (٢١) .  
 شارل ديل : ١٤ ، ١٦ .  
 شارل مارتل : ٩ ، ٢٧٠ ح (٩) .  
 الشافعي (مذهب) : ١١٦  
 شالندون : ٧ ح (١) ، ١٤ - ١٦ ، ٢٦ ، الشام : ٤٠ ، ٧٣ - ٧٦ ، ٧٨ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ١٠٤ ، ١١٠ ، ١١٢ - ١١٥ .

(ض)

ضرغام (برج) : ٢٢٦ ، ٢٢٧

(ط)

الطلب : ١٣٥ ح (١) ، ٢٣٦ .

طبرية : ٢٠٣

طبريوس (طباريوس) : ١٩٩

طرابلس الشام : ٤٠ ، ١١١ ، ٢٣٢ .

طرسوس : ٢٣٢

طريف : ٢٠٧

طليطلة : ١٠٠ ح (١) ، ٢٥٠ .

الطنافس : ٧٠

الطولونيون : ١٦٥ ، ٢٠٠ .

طبريوس (أنظر طباريوس)

طيطنس : ١٩٩

(ظ)

الظافر بالله (الخليفة الفاطمي) : ٨٨ ح (١)

الظاهر بيبرس : ١٠٠ ح (١) ، ١٠٤ -

١٠٧ ، ١١٠ ، ١١٧ ، ٢١٠

(ع)

العاج : ٦٩ ، ٧١

العاصد : ٧٤ ح (٣) ، ٩٠ ، ٩١

العباسيون : ١٦٥ ، ٢٠١

عبد الحميد حمدي (دكتور) : ٧ ح (١)

عبد الرحمن الأموي (الداخل) : ٢٥٨ ،

٢٦٠ ، ٢٦٢

عبد الرحمن بن حبيب الفهري (الصقل) :

٢٥٩ .

عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي :

١٩٦ ح (٥) .

العبي : ٢١٣ .

العثمانيون : ١٣٣ ، ١٥٠ ، ١٦٦

عثليت : ١٠٩

العذري : ٢٦٠

العرب : ٧ - ٩ ، ١١ ، ١٢ ، ١٧ ، ٢٣ ،

٢٦ ، ٢٨ ، ٣٧ ، ٣٨ ، (٤) ٤٣ - ٤٧ ،

شهاب الدين ابو العباس احمد بن يحيى بن فضل الله العمري القريشي (انظر العمري) :

١٩٦ ح (١)

شهاب الدين بن حجر العسقلاني : ١٩٦ ح (٦)

الشواني : ٧٩ ح (١)

شيلديرك الثالث : ١٣٢

(ص)

الصالح اسماعيل بن نور الدين : ٧٤ ح (٣) . ٧٥

صالح بن الناصر محمد بن المنصور قلاوون :

٢١٩ .

الصالح علي بن المنصور قلاوون : ١٠٤ ،

١٠٨ .

الصالح نجم الدين ايوب : ٥٩ ، ٧٩ ، ٢٦٩

ح (٨) .

صبح الأعشى (كتاب) : ١ ، ٦١ ، ٦٣ ،

٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٧٨ ح (٣) ، ٨١ ،

٨٣ ح (٣) ، ٨٤ ، ٨٦ ، ٨٨ ، ٩٠ ،

٩٦ ، ١٠٣ ، ١١٣ ، ١١٨ - ١٢٠ ،

١٣٢ ح (١) ، ٢٦٩ ح (٨) .

الصحراء الغربية : ٢٢٧

الصدر (لقب) : ١١٨

الصفدي (مؤرخ) : ١٦٣ ، ١٩٦ ح (٣)

صقلية : ٥٩ ، ٧٨ ح (١) ، ١٠٠ ح (١)

١٨٥ ، ١٥٠

صكوك الغفران : ٥٠

صلاح الدين الايوبي : ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٥ ،

٥٦ ، ٧٤ - ٧٧ ، ٨٩ ، ٩١ ، ٩٤ ،

٢٠٢ ، ٢٥١ .

الصليبيون : ١٨ ، ٣٠ ، ٥١ ، ٥٥ ، ٧٥ ،

٧٦ ، ٧٧ ، ٨٩ ، ٩٩ ، ١٠٥ ، ١١٢ ،

١١٥ ، ١٣١ ، ١٤٨ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ،

٢٢٨ ، ٢٥٠ .

صور : ٢٢ ، ٤٥ ، ٧٧ ، ١١١ ، ٢٢٠

صيدا : ٤٥ ، ٧٧ ، ١٠٩ ، ١١١ ، ٢٢١

الصين : ١٣٠ ، ١٣٤ ح (١) ، ١٤١ ،

١٤٤ ، ١٤٧ ، ١٥٣ .

١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٤٨ ح (٤) ، ١٦١ ،  
١٧٦ ، ٢٤٤ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ - ٢٥١ ،  
٢٥٤ - ٢٥٦ ، ٢٦٠ ، ٢٦٢ ، ٢٧٠ ،  
ح (٩) ، ٢٧٢ ح (١٨) .  
غزو الاسكندرية (قصيدة) : ١٧٥  
الفقران البابوي : ٤٩

(ف)

فابري : ٢٦٦  
فارال : ٢٦٦  
فارس : ١٣٤ ح (١)  
فاروس : ٢٢٥  
فاروق الصغير : ١٧٦  
فازيليف : ٢٥ ، ١٧ ، ١٤  
فاس : ٢٠٩  
فاسكودى جاما : ١٤٢ ، ١٢٢ .  
الفاطيون : ٧٢ ، ٧٤ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٩٠ ، ١٦٥ .

فالترن : ٢٦٣  
فاوتيه : ٢٦٦  
فخر الأعيان (لقب) : ١١٩  
فخر الصدور (لقب) : ١١٩  
الفرات (نهر) : ٤٠ ، ١٣٠ ، ٢٣٧  
الفراييج : ٢١٣  
فرجيل : ١٣٦ ح (١) ، ٢٧٢ ح (١٦)  
خردان : ١٤٦

فردريك بارباروسا : ٥٧ ، ٥٦ ، ٤٢  
فردريك الثاني : ٥٧ - ٥٩ .  
الفروذق : ١٩١

الفرس : ١٣٤ ح (١) ، ١٦٥ ، ١٩٨  
فرساي : ٢٤٨

الفرنج (الأفرنج) : ١٨ ، ٤٥ ، ٥٠ ، ٥٥ ،  
٧١ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٢ ،  
ح (١٣) ، ٨٧ ، ٩٠ - ٩٦ ، ١٠٠ ،  
ح (١) ، ١٠٣ ، ١٠٥ ، ١٠٧ ، ١٠٩ ،  
١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١٣١ ، ١٣٢ ،  
١٦٨ ، ١٦٩ ، ٢٣٠ .  
الفرنجية : ٩ ، ٨ ح (١) ، ١٣١ ، ١٣٥ ،

٥٠ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٩ ،  
٦٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٥ ،  
ح (١) ، ١٣٧ ، ١٤٣ ، ١٥٠ ، ١٥٢ ،  
١٦٥ ، ١٩١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٥ ،  
٢٠٧ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٥٥ ، ٢٦٠ ،  
٢٦١ ، ٢٦٤ ، ٢٧٠ ح (٩) .

عزيز سوريال عطية (دكتور) : ٢ ، ٣ ،  
١٥٩ - ١٦٧ ، ١٧٠ - ١٧٢ ، ١٧٩

عصر النهضة : ٢٤٩ ، ٢٥٢  
الصور الوسطى : ١ ، ٩ ، ٣٨ ، ٨٥ ،  
١٢١ ، ١٢٤ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٤٢ ،  
١٤٤ ، ١٦١ ، ١٧٦ ، ١٩٠ ، ١٩٢ ،  
١٨٩ ، ١٩٧ ، ٢١٥ ، ٢١٧ ، ٢٥٨ ،  
٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ .

المطور : ٦٩ ، ٧٠  
عكا : ٤٤ ، ٤٥ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ١٠٩ ،  
١١١ ، ١٤٤ ، ١٤٦ ، ١٦٦ ، ١٨٤

ح (٤) .  
مل بن راشد الحجازي : ٢١٨ ح (٣)

عماد الدين زنكى : ٤١ ، ٤٢  
عمارة البيسى : ٩٢

عمرو رضا كعالة : ١٨٤  
عمرو كمال (دكتور) : ٧ ح (١)

عمرو بن العاص : ٢٠٢ ، ٢٠٣  
العمري (شهاب الدين أبو العباس) : ١٦٣ ،

١٩٦ ح (١)  
المهد الأعظم : ٢١٥

المهد الجديد : ١٣٧

(غ)

غازان محمود خان : ١٣٤ ح (١)

غالة : ١٣٢ ، ٢٧٠ ح (٩)  
الغراب : ٧٩ ح (١)

الغرب : ١ ، ٧ ، ١٠ ، ١٠٠ - ١٥ ، ١٧ ، ١٩ ،  
٢٥ ، ٢٦ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٣٧ -

٥٠ ، ٥٢ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٥٨ ، ٦٠ ،  
٦٧ - ٧٠ ، ٧٣ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٢ ،  
١٠٥ ، ١١٠ ، ١١٤ ، ١٣٣ ح (١) ،

٢٣١ - ٢٣٣ .  
 قبر ص : ٩٤ ، ٨١ ، ٩٦ ، ح (١) ٩٩ ،  
 ١١٢ ، ١١٣ ، ١٦١ ، ١٦٩ ، ١٧٦ ،  
 ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٣١ ، ٢٣٣ .  
 القبر المقدس : ١٠ ، ١٤ ، ١٨ .  
 القبيلة الذهبية : ١٣٩ ح (١) ، ١٤٥ ، ١٤٧ ،  
 القرامطة : ٢٠٦ .  
 القرآن الكريم : ٥٩ ، ١٩٤ .  
 قرطاجنة : ٩٧ ح (٦) .  
 قرطبة : ٩ .  
 قسطنطين الكبير : ١٠ ، ٥٨ ، ١٩٩ .  
 القسطنطينية : ١٩ - ١٣ ، ١٨ ، ١٩ ،  
 ٣٧ ، ٣١ ، ١١٩ ، ١٤٤ ، ٢٥٥ .  
 قشتالة : ٧٨ ح (١) ، ١٠٠ ح (١) ،  
 ٢٠٨ ، ٢٠٩ ح (٢) ، ٢٥٠ .  
 قصة الجحوش الثلاثة : ١٣٧ .  
 القطلانيون : ٢٢٩ .  
 القطن : ٦٩ .  
 قلابطرة (كلوباترا) : ١٩٩ .  
 القلاشندى : ١ ، ٤٧ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٦٥ ،  
 ٦٦ ، ٧٠ ح (٣) ، ٧١ ح (٥) ، ٧٥ ،  
 ٨١ - ٨٥ ، ٨٧ ، ٩٦ ح (١) ، ٩٩ -  
 ١٠١ ، ١٠٥ ، ١١٦ ، ١١٨ ، ١١٩ ،  
 ١٢١ ، ١٣٢ ح (١) .  
 قناش الاسكندرية : ١٠٢ .  
 القند (ملك النصارى) : ٢٠٩ ح (٢) .  
 القنوط الشرقيون : ٨ .  
 القنوط الغربيون : ٨ .  
 قيس بن سعد : ٢٠٤ .  
 (ك)  
 كافا : ١٤٥ .  
 الكافور : ٧١ .  
 كامبريدج : ١٧٢ ، ٢٤٨ .  
 الكامل محمد : ٥٩ .  
 كانوسا : ٢٥١ .  
 الكاهن يوحنا : ١٢٧ ح (١) ، ١٣٨ ، ١٤٠ .

١٨٤ ، ١٩٢ ، ٢١٨ ح (٤) ، ٢١٩ ،  
 ٢٢٠ ، ٢٤٦ ، ٢٥٩ ، ٢٦١ .  
 فرنسا : ٨ ، ١٢ ح (٢) ، ٢٧ - ٢٩ ،  
 ٤٢ ، ٥٧ ، ٧٠ ، ٧٩ ح (٢) ، ١٤٣ ،  
 ١٥٢ ، ٢٤٨ - ٢٥١ ، ٢٥٦ ، ٢٦٢ .  
 الفرنسيسكان : ١٢١ .  
 فرنسيس جنان : ٢٦٦ .  
 فرنسيس ميشيل : ٢٤٧ ، ٢٦٥ .  
 الفروسية : ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٦٣ .  
 فيسيان (شبانس) : ١٩٩ .  
 الفضة : ١٠١ ح (٢) ، ١٢٠ ، ١٥٢ ،  
 ١٥٣ .  
 الفكرة الصليبية : ٨١ ، ٨٣ ، ٨٥ ،  
 ١٠٢ .  
 فلاندرز : ١٢ ح (٢) .  
 فلسطين : ١٠ ، ١٧ ، ٣٨ ، ٤٠ ، ٤٢ ،  
 ٥٧ ، ١١٢ .  
 الفلسفة : ١٩٠ ، ٢٢٤ .  
 الفلك : ١٣٥ ح (١) .  
 فلورنسا : ١٤٣ ، ٢٦٦ .  
 فلوريا : ٣ .  
 فما جوسته (انظر : الماغوصة) : ٩٦ ح (١) .  
 فنان دى بوفيه : ١٣٧ ح (١) .  
 فودوز : ٢٦٦ .  
 فوشيه ده شارتر (مؤرخ) : ١٥ ، ٢٤ ، ٣٠ ،  
 فوة : ٢٠٤ .  
 فولكمار : ٥٣ .  
 الفيزياء : ١٣٥ ح (١) .  
 فيليب اوغسطس : ٤٢ .  
 فيليب الأول : ٢٤٩ ، ٢٥١ .  
 فيليب دى مزير : ٤٦ .  
 (ق)  
 قارلة (ملك) : ٢٦٠ .  
 القاضي الفاضل : ٧٤ .  
 القاهرة : ٤٤ ، ٦٤ ، ٨٣ ، ١٦١ ، ١٦٩ ،  
 ١٧١ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٨٣ ، ١٩٧ ،  
 ٢١١ ، ٢١٣ ، ٢١٩ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ .

لورا : ٢٦٣  
لمبارديا : ٧١  
لومنتون : ١٦٠  
لويس الثاني : ١٦٦  
لويس السادس : ٢٥١  
لويس التاسع : ٧٩ ، ٥٦ ، ٤٥ ، ٤٤  
٩٣ ، ١١٥ ح (٢) ، ١٤٠ ح (٢)  
ليبيج : ١٦٠  
ليفربول : ١٥٩  
ليون : ٢٥٠ ، ٢٤٨ ، ١٦٤  
ليوناردو دافنشي : ٢٦٣  
ليونتيوس ماخريراس : ١٦٧  
ليون جوتييه : ٢٦٦

(م)

مارتينوس بولونوس : ١٣٥  
مارجريت ( زوجة لويس التاسع ) : ٩٣  
مارسيل : ٢٤٥ ، ٢٤٧ ، ٢٦١ ، ٢٦٤ - ٢٧٥  
مارك بلوك : ٢٧٢ ح (١٨)  
ماركو بولو : ١٤١ ح (١)  
مارينو سانوتو : ١٣٧ ح (١)  
مارية القبطية : ٢٠٢  
الماغوصة ( أنظر فما جوسته ) : ٩٦ ح (١)  
١١٢ ، ٩٧  
المأمون ( العباسي ) : ٢٠٠  
ماينز : ٥٤ : ١٤٦  
المتحف البريطاني : ١٨٧ ، ١٨٣  
متشجان : ١٦٠ ، ١٧٧  
المتوكل ( جعفر ) : ٢٠٠  
متي الباريزي : ٥٧ ، ٥٨  
مجد الصدور ( لقب ) : ١١٩  
المجر : ١٥٢  
المجربون : ١٤٥ ، ١٤٦  
مجنون ليلي : ١٩٢  
مجلة عالم الفكر : ١٥٥ ، ١  
المحتشم ( لقب ) : ١١٩  
المحتشمون : ٨٢ ح (٢) ، ٨٣

كراكاو : ١٤٦  
الكارولنجيون : ٩  
كريت : ٨١  
كريستوفر كولومبس : ١٤٢ ح (١)  
كريستوفر وولف : ٢٧١ ح (١١) ، ٢٧٢  
ح (١٦)  
الكريون : ٢٢٧  
كسري انوشروان : ١٩٨  
الكمة : ٢٠٦  
كلوديوس ( فاودس ) : ١٩٩  
كلوفيس : ١٣٢ ، ٢٧٠ ح (٩)  
كلوني : ٢٨ ، ٢٦ ، ٢٨٠ - ٢٤٩  
كليات : ٢٦٦

كليرمون : ١٣ ، ٢٥٠ ، ٢٥٦ ، ٢٥٦  
كلية الآداب ( جامعة الاسكندرية ) : ١٦٠  
كندرامان : ١٨٩  
الكنيسة اللاتينية الكاثوليكية : ٢٢٨ ، ٣٢٤  
٣٨ ، ٤٥ ، ٥٩  
كوبرنيكوس : ١٨٩  
كوردين : ٢٧٢ ح (١٥)  
كولومبيا : ١٦٠ ، ١٧٧  
كولونيا : ٥٤  
كومبيل : ٢٦٣  
الكوميديا الآلهية : ١٣٦ ح (١)  
الكويت : ١٥٥ ، ١  
كيليا : ١٤٧  
الكيمياء : ١٣٥ ح (١)  
كيهلر : ٢٠٩ ح (٤)  
كيبف : ١٣٨ ، ١٤٤ ، ١٤٦

(ل)

اللاتين : ٤٤ ، ٥١ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ١٣٢ ، ٢٥٦  
اللاذقية : ٢٣٢  
اللازورد : ١٠٢  
لانجو يدوق : ٢٥٠  
لندن : ١٦٠ ، ١٧٦  
لوت ( ف . ) : ٢٠٩ ح (٤)

الحلة : ٢٠٤  
 محمد ( عليه الصلاة والسلام ) : ١٩٨  
 محمد بن سلام : ٢٢٥ ، ح (٢)  
 محمد بن الطفال : ٢٢٥  
 محمد بن قاسم بن محمد النويرى المالكى  
 الأبيكندرانى ( أنظر النويرى ) : ١٧١  
 محمد خدابنده : ١٣٤ ح (١)  
 محمد الخامس العتي بالله ( انظر ابن الأحمر ) :  
 ٢٠٨ ح (٢)  
 محمد الشريف : ٢٢٥  
 محمد عبد المييد خان : ١٧٩  
 المحيط الهندى : ١٢٩ ، ١٤٤ ، ١٨٩ ، ٢٣٧  
 المرجان : ١٠٢  
 مرسوم الملك الناصر بن محمد : ١١ ، ٢١٢ ،  
 ٢١٥  
 مرسيليا : ٢٢٩  
 مركز الشرق الأوسط : ١٥٨ ، ١٥٩ ،  
 ١٦١ ، ١٧٣  
 المرقب ( حصن ) : ١٠٥ ، ١٠٧ ، ١٠٨  
 المستضى بالله العباسى : ٩٠  
 المستعصم بالله العباسى : ٢٠٧  
 المسلمون : ٧٤ ، ٨٩ ، ٩٤ ، ١٥٠ ،  
 ١٦٥ ، ١٦٧ ، ١٦٩ ، ١٩٠ ، ٢٠٤ ،  
 ٢٠٩ ، ٢٢١ ، ٢٣١ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ،  
 ٢٦٢  
 المسيح ( عليه السلام ) : ١٠ ، ١٤ ، ٢١ ،  
 ٣٢ ، ٤٣ ، ٥١ ، ١٩٩  
 المسيحيون : ٧٦ ، ٧٨ ح (١) ، ٨٠ ،  
 ١٦٨ ، ١٩٠ ، ٢٠٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ،  
 ٢٢٠ ، ٢٢٢ ، ٢٢٧ ، ٢٢٩ ، ٢٣١ ،  
 المسيحية : ٧ ، ١٧ ، ٢ ، ٤٤ ، ١٣٧ ح  
 (١) ، ١٣٨ ، ١٤٨ ح (٢) ، ٢٠١ ،  
 ٢٤٣ ، ٢٥٠ ، ٢٥٩  
 المسيح الدجال : ٤١  
 المشرق الإسلامى : ٢٥٠  
 مصر : ١ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٥٩ ،  
 ٦١ ، ٦٣ ، ٦٧ ، ٧٢ ، ٨٦ ، ٨٩ ، ٩٩  
 ١٠١ - ١٠٤ ، ١١٢ - ١٢٣ ، ١٣٠ ،  
 ١٣٣ ح (١) ، ١٤٣ ، ١٤٧ ، ١٥١ ،  
 ١٥٩ ، ١٦١ ، ١٦٥ ، ١٦٧ ، ١٦٩ ،  
 ١٧٦ ، ١٨٤ ، ١٨٧ ، ١٩٧ ، ٢٩٩ ،  
 ٢٠١ - ٢٢٣  
 المعهد السويسرى للآثار بالقاهرة : ١٧٧  
 المغرب : ٧٤ ح (٣) ، ٧٥  
 المغول : ١٣٤ ح (١) ، ١٣٩ ، ١٤٠ ح (٢)  
 ١٤٧ - ١٤٩ ، ١٥٤ ،  
 ١٩٦ ح (١)  
 المقداد بن الأسود : ٢٠٤  
 مقرب الحضرتين ( لقب ) : ١١٩  
 المقرئى ( تقي الدين ) : ١٩٧ ح (١)  
 ٢١٠ ، ٢٢٣  
 المقوقس : ٢٠٢ - ٢٠٤  
 المكتبة الاسبانية : ٢٦٣  
 مكتبة بودليان : ٢٦٦  
 المكتبة البامة ( بلدية الإسكندرية ) : ١٧٦  
 المكتبة الملكية الفرنسية : ٢٤٧  
 مكة : ٢٠٦  
 الملح : ١٠٢  
 الممالك التجارية الإيطالية : ٦١ ، ٦٤ -  
 ٦٧  
 الماليك : ٤٥ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٧٧ ، ٨٧  
 ح (١) ، ٨١ ، ٩٤ ، ١٠١ ، ١٢٠ ح (١)  
 ١١٢ ، ١١٥ ، ١١٨ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ،  
 ١٣٣ ح (١) ، ١٦٥ - ١٦٩ ، ٢٢٢  
 المنصور عبد العزيز بن برقوق : ٨١ ح (٢)  
 المنصور قلاوون : ١٠٠ ح (١) ، ١٠٤ ،  
 ١٠٨ ح (٤) ، ١٣٣ ح (١)  
 المنصورة : ٤٤  
 المهدية : ١٦٦  
 المؤمن (لقب) : ١١٨  
 مؤتمن الخلافة : ٩١  
 مؤرخ المجهول : ١٥ ، ٢٥٩  
 الموصل : ٤١  
 المؤلف المجهول : ٢٥٦  
 الموناليزا : ٢٦٣  
 ميتر : ٥٤

٢٠٤ ح (١) ، ١٤٣ ، ١٤٧ ، ١٥١ ،  
 ١٥٩ ، ١٦١ ، ١٦٥ ، ١٦٧ ، ١٦٩ ،  
 ١٧٦ ، ١٨٤ ، ١٨٧ ، ١٩٧ ، ٢٩٩ ،  
 ٢٠١ - ٢٢٣  
 المعهد السويسرى للآثار بالقاهرة : ١٧٧  
 المغرب : ٧٤ ح (٣) ، ٧٥  
 المغول : ١٣٤ ح (١) ، ١٣٩ ، ١٤٠ ح (٢)  
 ١٤٧ - ١٤٩ ، ١٥٤ ،  
 ١٩٦ ح (١)  
 المقداد بن الأسود : ٢٠٤  
 مقرب الحضرتين ( لقب ) : ١١٩  
 المقرئى ( تقي الدين ) : ١٩٧ ح (١)  
 ٢١٠ ، ٢٢٣  
 المقوقس : ٢٠٢ - ٢٠٤  
 المكتبة الاسبانية : ٢٦٣  
 مكتبة بودليان : ٢٦٦  
 المكتبة البامة ( بلدية الإسكندرية ) : ١٧٦  
 المكتبة الملكية الفرنسية : ٢٤٧  
 مكة : ٢٠٦  
 الملح : ١٠٢  
 الممالك التجارية الإيطالية : ٦١ ، ٦٤ -  
 ٦٧  
 الماليك : ٤٥ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٧٧ ، ٨٧  
 ح (١) ، ٨١ ، ٩٤ ، ١٠١ ، ١٢٠ ح (١)  
 ١١٢ ، ١١٥ ، ١١٨ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ،  
 ١٣٣ ح (١) ، ١٦٥ - ١٦٩ ، ٢٢٢  
 المنصور عبد العزيز بن برقوق : ٨١ ح (٢)  
 المنصور قلاوون : ١٠٠ ح (١) ، ١٠٤ ،  
 ١٠٨ ح (٤) ، ١٣٣ ح (١)  
 المنصورة : ٤٤  
 المهدية : ١٦٦  
 المؤمن (لقب) : ١١٨  
 مؤتمن الخلافة : ٩١  
 مؤرخ المجهول : ١٥ ، ٢٥٩  
 الموصل : ٤١  
 المؤلف المجهول : ٢٥٦  
 الموناليزا : ٢٦٣  
 ميتر : ٥٤

أنثوري الرومي : ٢٠٢  
 أنثوري الكندي : ١٦٣  
 أنثورة : ٢٢٧ ، ١٨٤ ، ١٦٤  
 نيقولا البندق : ٨٢ ، ٨١ ح (١) ١١٢  
 نيكوبوليس : ١٣٣ ح (١) ١٦٦  
 نيويورك : ١٦٠

(٥)

هاجنباير : ١٢ ح (١) ٢٢ ، ١٤  
 هارون الرشيد : ٩  
 هاستنجز : ٢٥٣ ، ٢٤٩  
 حال : ٢٦٦  
 الهاموك : ٢٠٥ ، ٢٠٤  
 هرقل : ١٩٩  
 هرمزد : ١٩٨  
 الهلال الخصيب : ٢٠٧  
 هيرت أوف رومانز ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١  
 الهند : ١٠٢ ، ١٢٢ ، ١٣٤ ح (١)  
 ١٣٧ ، ١٤١ ، ١٤٢ ح (١) ١٤٧ ، ١٥٤  
 ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٧٨ ، ١٩٠  
 هنري الأول : ٢٤ ، ٢٧ ، ٢٥١  
 هنري الرابع : ٢٥١  
 هنري لابلورد : ٢٧٥ ح (٣)  
 هنري مونا : ٢٤٧  
 هنري وليم كارلس ديفيز : ٢٥٥  
 هنغاريا : ١٣٩  
 نولا كوشان : ٢٠٧  
 هيو الأول : ٢٥٠

(و)

وادي نبات الموشج : ٢٦٤  
 الوادي المتعطف : ٢٦٤  
 الواتدي : ٢٠٢ ح (٣)  
 الوباء الأسود : ١٩٦ ح (١)  
 وجيه الدين عبد الرحمن : ١٨٤  
 الوديان الخشنة : ٢٦٤  
 الوديان المنادة : ٢٦٤  
 الوديان المنقاة من الحشائش : ٢٦٤  
 ورمز : ٥٤

ميهائل (دوج البنادقة) : ٨٤ ، ١١٢  
 ميخائيل السابع : ١٩  
 ميشو (مورخ) : ٧ ح (١)  
 ميكائيل : ٨٢ ح (١)  
 ميونيخ : ٢٦٦

(ن)

الناصر بن محمد : ٨٥ ح (١) ٢١٠ ، ٢١٥  
 الناصر حسن : ٢٢٠  
 ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن القرات :  
 ١٩٦ ح (٤)  
 الناصر فرج بن برقوق : ٨١ ، ٨٢ ، ٨٨  
 ٩٦ ، ٩٧ ، ١١٢ ، ١١٣  
 ناظر المباشرة (ناظر الاسكندرية) : ١٠٣  
 ح (١) ١١٤  
 نافار : ٢٥٠ ، ٢٦٤ ، ٢٧٢ ح (٢٠)  
 النحاس : ١٠١ ، ٦٩ ح (٢)  
 النسيج : ١١٤ ح (٢)  
 أنصاري : ٢١٣  
 النصرانية : ٥٩  
 نصيبين : ٢١٨ ح (٢)  
 النملون : ١٠٢  
 النظام الاقطاعي : ٣٩ ، ٢٤٣ ، ٢٥١  
 نظر كتابة الدرج : ١١٤  
 نهر اندانوب : ١٤٥ ح (٢) ١٤٦ ، ١٤٧  
 نهر السند : ١٣٧  
 نهر الفولجا : ١٤٤ ، ١٤٧  
 نهر النيل : ٤٤ ، ١٤٤ ، ٢٣٧  
 نور الدين محمود : ٤٢ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٩٠  
 . ٩١  
 النورمان : ١٥٠ ، ١٨٥ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠  
 ح (١١) ٢٧١  
 نورمان كانتور : ٢٧٢ ح (١٨)  
 نورمانديا : ٢٤٩ ، ٢٥١ ، ٢٥٦  
 أنثوري الاسكندري : ٢ ، ٣ ، ١٥٥  
 ١٥٩ ، ١٦١ - ١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٨٣ -  
 ٢١٠ ، ٢١٧ ، ٢١٩ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ،  
 ٢٢٧ ، ٢٢٩ - ٢٣٩ .



ياروسلاف سيزار : ۲ ، ۱۲۴ ، ۱۲۸  
يزيد بن عامر : ۲۰۵  
يلغا الخاسكى : ۲۲۲  
اليمين : ۷۴ ح (۳) ، ۷۵ ، ۱۰۲ ، ۱۹۶  
ح (۱) .  
اليهود : ۵۲ - ۵۴ ، ۱۴۶ ، ۱۶۸ ،  
۱۹۹ ، ۲۱۴ ، ۲۳۱  
يواكيم الفلورى : ۴۳  
يوحنا الحزين : ۵۶  
اليونان : ۱۳۶ ح (۲) ، ۱۶۵

الوصيف : ۲۰۰  
وليم اورانج : ۲۴۴  
وليم اوف روبروك : ۱۴۰  
وليم دوق نورمانديا : ۲۴۹  
وليم رتيوف : ۵۲ ، ۵۷ .  
وليم الصورى : ۲۲ ، ۱۳۷ ح (۱)  
وليم الفايح : ۲۴۹ ، ۲۵۳  
وليم مالمبرى : ۲۵۳  
(ى)  
اليابان : ۱۳۰



طبع در مشهد  
روای لا اختلاف  
المصنفه . اسكندرية

